

في الدين والعلم والحياة والإنسان

المفكر الإسلامي
العلامة السيد عدنان البكاء

مؤسسة الشيخ زين الدين البحار والاسلامية

فءى الدين

والعلم والحياة والانسان

في الدين

والعلم والحياة والانسان

أصل الانسان _ التشريح وزرع الأعضاء _ الاستنساخ
الحيواني والبشري _ الاحلام _ الأرواح الماسة _ الامام
علي عليه السلام الشاهد التالي للرسالة _ جوانب من عمل
الامام الصادق عليه السلام - حرب التحرير العربية الفلسطينية

المفكر الإسلامي

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء



هوية الكتاب

اسم الكتاب في الدين والعلم والحياة والانسان
المؤلف العلامة الحجة السيد عدنان البكاء
الناشر مؤسسة الشيخ زين الدين (قده) للمعارف الإسلامية
الإخراج الفني مؤسسة الشيخ زين الدين (قده) للمعارف الإسلامية
الحجم وزير
الطبعة الطبعة الاولى ١٤٤٥ هـ / ٢٠٢٣ م
طباعة قم المقدسة - ايران
عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم رسله محمد
وأهل بيته الطيبين الطاهرين ، وعلى صحابته الأخيار الميامين .

وبعد ...

قد أتيت لي بحمد الله ان أستجيب لدعوة الأخوان والزملاء الأعزاء
في كل مرة رغبوا إلي فيها وان ألقى منذ سنة ١٩٩٧ م وحتى هذا العام
في الندوات العلمية والمؤتمرات التي أقامتها نقابة الأطباء في النجف
الأشرف بالاشتراك مع عمادة كلية الطب في جامعة الكوفة ودائرة
صحة النجف: عدداً من المحاضرات في موضوعات مختلفة يهتم بها أهل
العلم وأهل الدين معاً، وقد أعطيتها أحياناً من العناية والجهد ما يعطى
للبحوث الجادة رغم انشغالي في هذه الفترة بالتزاماتي التدريسية وقد
دعيت لأحاضر في بعض موضوعاتها في جامعات و مؤسسات علمية
أخرى..

ولابد لي ان اشير هنا ان بعض الموضوعات التي حاضرت فيها في
المؤتمرات (ندوة المؤتمر) قد عدت الى بحثها بصورة موسعة ومتكاملة من
كل جهة ثم تقدمت بها لغرض الترقية العلمية الى مدرس والى أستاذ
مساعد ، ومنها (الاستنساخ والهندسة الوراثية) ، و (التشريح
واحكامه)، و(الانسان بين التطور والخلق المستقل) الذي نشر في المجلة

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٦

العلمية لنقابة الأطباء (مجلة الراقي) العدد الثاني ٢٠٠٥ م - ١٤٣٦ هـ .

وهي من حيث تسلسلها التاريخي على النحو التالي:-

١- الروح بين الفلسفة والتجارب الروحية الحديثة، والإسلام...

في ندوة جوانب طبية ودينية في الموت. في رمضان يوم ١٨ سنة ١٤١٧ هـ

المصادف ٢٧ / ١ / ١٩٩٧. وقد شاركني في الحديث عن الجوانب

الطبية السريرية الدكتور علي الشالجي الاختصاصي في الجملة العصبية

والدكتور مازن إسماعيل رئيس قسم الباثولوجي في كلية الطب.

٢- أصل الإنسان بين نظرية التطور ونظرية الخلق المستقل ، وذلك

في يوم ٨ / ٣ / ١٩٩٧، وقد شاركني في هذه الندوة متحدثاً عن نظرية

التطور طبقاً لوجهة نظر دارون الدكتور فاضل فرهود الأستاذ في كلية

الطب. ثم الدكتور عقيل عبد ياسين، مساعد رئيس جامعة الكوفة

ورئيسها بعدئذٍ ، الأستاذ في الباثولوجي.

٣- الاستنساخ والهندسة الوراثية من الناحيتين الفلسفية والفقهية.

وقد ألقى في الندوة العلمية التي أقامتها نقابة الأطباء في قاعة رئاسة

جامعة الكوفة، ٢٩ / ٩ / ١٩٩٧، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور عقيل

عبد ياسين، وأدار الندوة الدكتور محمد محيي التلال نقيب الأطباء، ونشر

ملخصه في العدد الأول من مجلة النجف الطبي سنة ١٩٩٩ م - ١٤٢٠ هـ.

٤- الأحلام، أصلها، رمزياتها، حجيتها، بين الدين والفلسفة

والعلم. وذلك في يوم ١٩ / ٣ / ١٩٩٨ وكان المتحدث الآخر الذي

تناول وجهة النظر العلمية في الأحلام وتفسيرها الدكتور عبد الرسول

الياسري الاختصاصي في الأمراض النفسية، والمحاضرات الثلاث

٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان
باستثناء: الاستنساخ أقيمت في قاعة مستشفى صدام التعليمي العام
الصدر حالياً .

٥- غرس الأعضاء البشرية، مصادرها وأحكامها، في الفقه
الإسلامي الإمامي. وقد أقيمت في ندوة مؤتمر النجف الطبي الثاني في
قاعة رئاسة جامعة الكوفة في ٢ / ٥ / سنة ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، وكان
الباحثون بالإضافة إلى صاحب هذا البحث الدكتور صفاء مزهر
العبيدي أستاذ الجراحة العامة في كلية الطب، والأستاذ فاضل عباس
الملا نائب الإذاعة العام في رئاسة محكمة النجف، وأدار الندوة الدكتور
حسين الطيب الاختصاصي في القلبية والباطنية وكان عنوان الندوة
(غرس الأعضاء البشرية بين الطب والفقه والقانون)، وقد نشرت
المحاضرة في العدد الثاني من مجلة النجف الطبي لسنة ٢٠٠١م التي
تصدرها نقابة الأطباء .

٦- الشفاء بالوسائل غير المألوفة أو الخارقة بين الدين
والباراسايكولوجي. أقيمت في ندوة مؤتمر النجف الطبي الثالث يوم ٤
نيسان ١٩٩٩م تحت عنوان (تحديات القرن الواحد والعشرين في الشفاء
بالوسائل غير المألوفة)، في قاعة رئاسة جامعة الكوفة، وكان الباحث
الآخر الأستاذ الدكتور عبد الهادي الخليلي الاختصاصي بالجملة
العصبية وجراحة الدماغ، وقد أدار الندوة وقدم لها وشارك بها الأستاذ
الدكتور ظافر داود سليمان العميد السابق لكلية الطب في جامعة
الكوفة، والرئيس السابق للجامعة.

٧- الأرواح الماسة ودورها في الاضطرابات النفسية والعقلية.

وألقيت في ندوة مؤتمر النجف الطبي الخامس بتقديم ومشاركة الدكتور نبيل عباس عبد علي، وقد عقدت الندوة في قاعة رئاسة جامعة الكوفة يوم ٢٥ / ٢ / ٢٠٠١ م، وقد رأى بعض الأخوة من الأطباء والأساتذة الكرام، ومن هؤلاء بعض طلبتي الأعزاء في درس التفسير في الحوزة العلمية: ان تطبع، ففي بعضها وجدوا إجابة لبعض التساؤلات - كما قالوا- ولذلك نضدتها مستقلة وضممت لهذه المحاضرات محاضرات أخرى كتبتها وألقيتها في نفس الفترة أمثال:

١- عالمية المضمون القرآني جوانبه بعض الأمثلة، وقد ألقيتها في قسم علوم القرآن، من كلية القائد لتربية البنات في قاعة الكلية يوم ٦ / رمضان / ١٤١٨ هـ المصادف ٥ / ١ / ١٩٩٨، وكان المحاضر الآخر الأستاذ الدكتور محمد حسين الصغير، وأدار الندوة الدكتور باسم جريو رئيس القسم.

٢- النيازك والقيامة بين العلم والقرآن. وقد ألقيتها في الندوة الخاصة التي أقامتها كلية العلوم يوم ٩ / ١٠ / ١٩٩٩، قاعة الجامعة الكبرى في رئاسة جامعة الكوفة بمشاركة السيد عميد الكلية الأستاذ الدكتور ضياء الراوي وأستاذين آخرين اختصاصيين أحدهما من بابل وآخر من الأنبار.

وفي تاريخ متقدم كثيراً على ذلك ألقيت في مؤتمرات جامعية أو مؤتمرات إسلامية عالمية محاضرات رأيت ان موضوعها ما زال قائماً وان تناولها ما زال يشكل حاجة بالفعل وخشية عليها من الضياع بخاصة تلك التي لها سمة بحث ضممتها إلى المحاضرات السابقة لتكون باذن الله

٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان

تعالى كتاباً تحت عنوان: بحوث في الدين والعلم والحياة. وقد قمت بتنفيذها ريثما تحصل الفرصة لإصدارها انشاء الله بجزء واحد أو أكثر من جزء وقد أفردت محاضرتي الأخيرة في المؤتمر الطبي الخامس لفتح استنساخها دونما كلفة لبعض من طلبها مني بعيد المحاضرة...

وقد لمست من الأسئلة والمناقشات غرابة الموضوع قليلاً أو كثيراً في الوسط العلمي والطبي، لان الإيمان بالجن لا بصفته كائناً لا منظور لأن عالم الفيروسات وجزيئات DNA وعالم الإشعاعات في مناطقها الثمانية بتردداتها المختلفة سرعات وأمواجها المختلفة أطوالاً لم يترك مجالاً لإنكار هذه العوالم وسعة فعاليتها بل بصفته كائناً حياً عاقلاً مختاراً... لكن أوساطاً وشخصيات علمية كبيرة أتت لها أن تشاهد أو تجري تجارب في الباراسايكولوجي والروحية الحديثة وفيهم أطباء كبار عادوا يرون ذلك حقيقة علمية لا تقبل نقاشاً..

ولذلك فان اختياري لهذا الموضوع لأحضر فيه في مؤتمر طبي كان لأكثر من هدف.

الأول : الإسهام بعرض ذلك في طرد الشكوك في حقيقة العوالم الروحية اللامنظورة وفعاليتها بعد ان تحدث القرآن الكريم عنها، لان الشك بها من قبل المسلم يستبطن الشك بالقرآن نفسه..

الثاني : ان كثيراً بل الأكثر من أطباء الأمراض النفسية والعقلية لا يدخل في افتراضاته مس أو استحواذ الأرواح السافلة أو الجن كعامل في بعض هذه الأمراض بل سخر من ذلك رابطاً بين هذه القضية كحقيقة وبين ما يتعاطاه الدجالون من أهل الفأل والشعبذة من ادعاءات

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ١٠
باطلة وهو ربط لا يجد أساساً ومن المتوقع ان تفشل محاولاته عندئذ في
علاج مريضه لأنها مبنية على أساس خاطئ من حيث الأسباب التي
وراء المرض أصلاً كما سترى من شهادات الأطباء الذين ذكرناهم..
والذين وصلوا إلى قناعات وأساليب علاجية أخرى مختلفة.

ثالثاً : ان بعض من ادعى البابية والمهدوية أو ادعى النبوة بعد ان
ختم الله الأنبياء بالرسول محمد ﷺ فارتكب الحرام وأسقط الفرض
ليس إلا ممسوساً، أو مستحوذاً عليه يتصور -ضمن الحالة- انه موصول
مفيداً من الصلة بالأرواح السفلية ليجعل اتباعه في مثل حالته مخدوعين
ببعض الأمور التي تحصل بالآثار الوضعية للأسماء الإلهية وبالارتياض
مما تحدثنا عنه في هذا البحث وهو ما أردنا التصدي له كما أشرنا في
مقدمة الجزء الأول من كتابنا: الإمام المهدي المنتظر وأدعياء البابية
والمهدوية بين النظرية والواقع. والمحاضرة أصلاً بحث من بحوث الجزء
الثاني الذي لم يصدر بعد كيفت بالشكل الذي يجعلها صالحة للمناسبة.
وأسأل الله سبحانه وتعالى ان يتقبل مني ذلك فهو من وراء القصد.

النجف الأشرف

عدنان البكاء الموسوي

البحث الأول

أصل الإنسان

بين نظرية التطور ونظرية الخلق المستقل

في ضوء الفلسفة والعلم والدين

أصل الإنسان

بين نظرية التطور ونظرية الخلق المستقل

في ضوء الفلسفة والعلم والدين^(١)

القول بنظرية التطور في أصل الخلق ، واشتقاق الأحياء ، أجناسا وأنواعاً ، بعيدة وقريبة ، بعضها من بعض ، نظرية قديمة ، تحدث عنها الفيلسوف اليوناني انكسيمند روس الملطي ، المتوفى عام ٥٤٥ ق.م^(٢) .
وفي التاريخ الإسلامي تحدث عنها فلاسفة المسلمين ومنهم أحمد بن عبد الله بن محمد (ت ٢١٢هـ) صاحب الرسالة الجامعة، أحد الأئمة المستورين عند الإسماعيلية^(٣) ، وفلاسفة إخوان الصفا ما بعد (٣٥٠

(١) ألقى ملخصها في الندوة العلمية الخاصة التي عقدتها نقابة الأطباء- فرع النجف الأشرف في يوم ١٩٩٧/٣/٨م في قاعة مستشفى صدام (الصدر) حالياً، وقد شاركني متحدثاً عن نظرية التطور لدى دارون، الدكتور فاضل فرهود مكي العلوان، الأستاذ في كلية طب الكوفة، رئيس جامعة بابل آنذاك ، والأستاذ الدكتور عقيل عبد ياسين، مساعد رئيس الجامعة ورئيسها بعدئذ- الأستاذ في الباثولوجي ، ثم نشر في مجلة الراقي العلمية التي تصدرها نقابة الأطباء في النجف ، العدد الثاني ، السنة ٢٠٠٥ ميلادي .

(٢) جورج سارتون : تاريخ العلم م ١ ص ٣٧٢ .

(٣) الرسالة الجامعة ص ١٦٠-١٦١ .

هـ) ^(١) وابن مسكويه المتوفى (٤٢١ هـ) ^(٢) ، والفيلسوف طاهر بن إبراهيم الحارثي ^(٣) ومحيي الدين الطائي الأندلسي (ت ٦٣٨ هـ) ^(٤) لكن نظرية الخلق المستقل ابتداءً للأنواع ، وبقاء وانقراض الأنواع بتعاقب الخلق ، والإفناء هما النظريتان اللتان ظلتا سائدتين ... في العالم ، حتى طلع العالم الطبيعي الفرنسي (جان بابديست لامارك) (١٧٤٤ م - ١٨٢٩ م) بنظريته التي ترى : أن أنواع الأحياء ليست أصيلة في التكوين ، بل يشتق بعضها من بعض ، بطريقة التحول والارتقاء التدريجي البطيء ، اللذين يحصلان بعدة أسباب ، منها : استعمال الأعضاء ، وإغفالها ، والاستجابة للحاجة . التي تخلقها البيئة ...

ثم جاء من انكلترا (تشارلس روبرت دارون) (١٨٠٩ م - ١٨٨٢ م) بنظريته في أصل الأنواع سنة ١٨٥٩ م ، في أصل الإنسان سنة ١٨٦٧ م .

وكان قد وصل قبله مستقلاً إلى نظرية مشابهة ، عالم طبيعي انجليزي آخر هو (الفرد رسل والاس) (١٨٢٣ م - ١٩١٣ م). وكان دارون معجباً كثيراً بما كتبه الأخير حتى كان يفكر بالاختصار

(١) رسائل اخوان الصفا م ٢ ص ١٦٨ وما بعدها.

(٢) ابن مسكويه : تهذيب الاخلاق ص ٦٨ - ٧٥ .

(٣) الانوار اللطيفة في حقيقة الفلسفة الفاطمية ٩٨ ، ضمن كتاب الحقائق الخفية للأعظمي .

(٤) ابن عربي: عنقاء مغرب في ختم الأولياء وشمس المغرب ، مطبعة مصطفى الحلبي

وأولاده ، ١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م ، ص ٩٣ .

١٥..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
على نشر ما كتبه والاس في التطور ، مكتفياً به في تلك المرحلة ، لولا
أن بعض أصدقائه من العلماء نصحه أن ينشر معه ، نتيجة أبحاثه الخاصة
أيضاً .

و حين فعل ذلك ، اشتهرت نظريته بصورة فاقت المتوقع ، وقرأها
العلماء والمثقفون في مختلف الأوساط - رغم تباين المواقف إزاءها -
حتى لقد طويت جهود لامارك ووالاس ، اللذين أفاد دارون من
أبحاثهما وأسس عليها ... ويعود ذلك في ما نرى إلى انتشار أنصار
العلمانية والفلسفة المادية ، وإلى ما كان يتمتع به دارون في صياغته
لنظريته من أسلوب وبيان متميزين ومن أناة وموضوعية - من حيث
الظاهر-، ووضوح في الطرح ، وما كان يملك من قدرة كبيرة على حشد
الأمثلة والمقارنة بينها بذكاء ، لتبدو النتائج صريحة أو تكاد ، فتقرب إلى
القارئ ما يريد الذهاب إليه من تصورات وآراء. ثم إلى انتشار
الأيدلوجيات الإلحادية التي وظفت النظرية لصالحها بتحميلها منطق
الصدفة خطأ وتضليلاً ، وقامت- من أجله- بجهد إعلامي كبير لتسويقها
كذلك كما سيأتي.

ويكفي أن تقرأ كتاب : أصل الأنواع ، ليبدا لك هذا الجانب بارزاً
في شواهد كثيرة .

النظرية في الأصل

ولندع دارون نفسه يقدم لنا نظريته كما ذهب إليها في الأصل ،
قال: (يبدو لي: أن فطاحل المؤلفين مقتنعون بوجهة النظر القائلة بخلق
كل نوع مستقل عن غيره ... أما بالنسبة لي فان نشوء ، وانقراض

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ١٦
الأحياء القديمة والحالية في هذا العالم ليتفق أكثر مع ما نعرف من قوانين
طبعها الله على المادة^(١).

وقال : (إن هناك جمالاً ، وجلالاً في هذا النظرة عن الحياة بقواها
العديدة التي نفخها الخالق ، لأول مرة في عدد قليل من الصور أو في
صورة واحدة)^(٢).

(الاستدلال على النظرية)

ومما استدل به التطوريون على أصل نظرية النشوء والارتقاء ابتداءً
الملاحظات الثلاث التالية:

١- واقع الأنواع الحيوانية الموجودة على الأرض ، التي تضم أنواعاً
أعلى وأدنى ، ابتداءً من حيوانات تتألف من خلية واحدة إلى أخرى
تتألف من ملايين الخلايا ، وإلى جانب ذلك نرى اختلافاً في درجات
رقيها وتطورها مما يلقي ضوءاً يشير إلى مسار الصيرورة وحلقاتها .

٢- ان الأحافير تثبت أن هناك ترتيباً ارتقائياً ، يتصاعد مع الزمن ،
فالحيوانات التي وجدت على الأرض قبل ملايين من السنين كانت
بسيطة التركيب ، ثم ظهرت أنواع أرقى وأكثر تعقيداً على مر الزمن ،
وهذا يدل على أن الأنواع لم تظهر في وقت واحد وإنما تدرجت من
البسيط إلى الأكثر رقياً وتعقيداً.

(١) أصل الأنواع : ص ٧٧٧.

(٢) ن.م . ص ٧٧٧.

١٧..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

٣- إن النظام الجسماني لكل الحيوانات متشابه في الهيكل والبناء العام وفي الصورة الأساس كما يبدو - في المقارنة - بخاصة في مراحل الأجنة، رغم الاختلافات النوعية ... التي جاءت مما حدث لها من التحوير بعدئذ^(١) .

وتظهر المراحل الأولى ، أو ما قبل النهائية شكلاً موحداً ، وذلك - كما يبدو - تأشير إلى الأصل .

(أسباب وكيفية التنوع)

ولكن ما هي الأسباب ، والكيفية التي حصل بها هذا التنوع ، وفي أي مدى زمني تم هذا التصاعد حتى وصل إلى مثل ما نراه من أبداع وكمال خارجي وداخلي في كل نوع من الحيوان ، وفي الإنسان خاصة ، مبتدئين من الخلية البسيطة الأولى التي خلقت لأول مرة وإنهاءً بالإنسان، فيما يتميز به من تفكير وقدرة على الإبداع .

يقول دارون : (إن الصدقة لا تستطيع بأي حال من الأحوال تفسير هذه الاختلافات الكثيرة الموجودة بين أنواع الصنف الواحد ، والاختلافات بين مجموعات النوع الواحد^(٢) .

وقد قال كما في النص الأول الذي ذكرناه له (إنها تعود إلى القوانين التي طبعها الله على المادة).

(١) الدين في مواجهة العلم (١٩)

(٢) أصل الأنواع ص ٧٧٦ .

والتي استقرأ عدداً منها دلل عليه بالأمثلة ، والمقارنات منها بل هو الأساس لها. لأنه - كما يرى - ناموس طبيعي شامل يهيمن على التحويلات والتغيرات التي تحصل للمخلوق بأسبابها المختلفة، ذلك هو: الانتخاب الطبيعي ، فهو عنده القانون المسؤول عن انتقاء الصفات المفيدة التي تحدث للكائن ، وتثبيتها وإبقاء الأصلح منها ، وإنهاء الصفات الضارة التي لا تخدم تطور المخلوق وارتقاءه ، ولذلك أطلق هالدين وهكسلي على نظرية دارون اسم (انتخاب التغيرات).

يقول دارون : إن الانتخاب الطبيعي قوة دائبة الفعل كل يوم بل كل ساعة في استجماع التحولات العرضية في العالم العضوي كافة ، نافية كل ما كان منها مضرًا مبقية على كل ما كان منها مفيداً صالحاً تعمل في همودها ، وسكونها عملها الدائم ما سمحت الفرص في كل زمان ، ومكان لتهديب كل كائن من الكائنات بما يلائم طبيعة حالات الحياة المحيطة به ما اتصل منها بالموجودات العضوية ، وما اتصل بغير العضوية^(١).

ويقول : (إننا لا نلاحظ شيئاً من الترقى المنبعث عن هذا التحول البطيء حتى يظهر لنا ما استدبر من الدهور في سبيل إبرازه على أننا لا نعلم من الأمر شيئاً إلا أن صور الحياة في هذا العصر تغاير صور الزمان الماضي)^(٢).

(١) ن.م. ص ٢١٨.

(٢) ن.م. والصفحة .

أما الأسباب التي يحدث بها هذا التغيير في المخلوق وراء الانتخاب الطبيعي، أو التي يعمل الانتخاب الطبيعي من خلالها فقد ذكروا منها :

١- التحول بالطبيعة : وعنوا به: نزوع الكائن - بحكم ما ينطوي عليه أصلاً - من امكانية إلى الارتقاء في التعضى ، وبلغة الفلاسفة التكامل.

٢- الفروق الموجودة أصلاً في أفراد الأنواع النباتية والحيوانية فمن الملاحظ أن أفراد النوع الواحد لا تتماثل تماثلاً تاماً حتى تلك التي تأتي من أصل واحد - سواء أمكن مشاهدته أو لم يمكن - وسيكون الصالح للبقاء منها - بموجب الانتخاب الطبيعي - اساساً لنشوء الأنواع تدريجياً ومع الزمن.

٣- الصراع من أجل البقاء : والمراد منه ما يواجهه به الكائن - بطبيعة ما يملك من قدرات تكوينية - الظروف غير الملائمة في البيئة بتكيف نفسه عضوياً ليتمكنه التعايش معها وإلا انتهى إلى الموت والانقراض.

ومن الأمثلة التي زعموها طول عنق الزرافة - لتواجه شحة الكلاً الذي يحتم الحاجة إلى التغذية على ورق الاشجار ، ومن الأمثلة: فقدان الحية لأرجلها لتصبح ملساء يمكن أن تلج الجحور الضيقة ؛ هرباً من أعدائها أو من شدة الحرارة في بيئتها.

٤- التحول بالإيلاف ، والتأنيس ، ويعنون به : انتقال الكائن من الحياة الوحشية إلى الحياة المدنية الذي يلزمه الاستغناء عما كان يحتاج إليه سابقاً من وظائف عضوية كالدجاج الذي فقد القدرة على الطيران

٥- استعمال الأعضاء وإهمالها . فإن الملاحظة تثبت : أن عضو الكائن ووظيفته يرتقيان بالاستعمال ، ويضعفان بالإهمال كمثال الدجاجة سلباً ومثال الإوز والبطة وأمثالهما إيجاباً ، فقد أصبحت أرجلهما كالمجاديف حين وجد لها ماسد الفرجة بين أصابع أقدامهما.

٦- شواذ الخلقة التي تحدث لدى بعض الأفراد بالانحراف الوراثي لسبب أو لآخر ، فإن المفيد منها - سيثبت - بحكم الانتخاب الطبيعي - ويكون مع مرور الأزمنة منشأ لنوع جديد .

وقد انتبه دارون نفسه إلى أن في نظريته نقصاً ، وأن هناك ملاحظة تظهر في البعد بل الانقطاع الذي يظهر بين بعض الحلقات والحلقات الأخرى في السلسلة المفترضة لكيفية التطور ، والتدرج بين الأنواع الدنيا والعليا كما هو الأمر مثلاً بين الأحياء اللاقارية والفقارية ، وبين النباتية والحيوانية ، وبينها في المرحلة المائية والأرضية ، وهكذا ثم ... ، وهذا ما أكدوا عليه إجماعاً بسلامة ما قبل ذلك - بين القرد الذي افترضه دارون سلفاً للإنسان ، وبين الإنسان نفسه مما حتم عليه أن يفترض لتلافي ذلك (وجود حلقات مفقودة عفت على آثارها ورسومها - كما قال- في الطبقات الجيولوجية في الدهور الموعلة في القدم ... وسيأتي الحديث عن آراء العلماء في ذلك.

المواقف المتقابلة حول النظرية

ما إن نشرت النظرية ، وقرأها المختصون والعلماء ، والمفكرون في

٢١..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
الأوساط الثقافية والعلمية المختلفة حتى انقسموا : في مواقفهم إزاءها
انقساماً حاداً أخذ طابعاً خصومياً لم يعرف من قبل.

فقد تبناها بعضهم - بحماس - لم يعرفه دارون نفسه - وادمجوا بها
ما لهم من افهام وتصورات ايدلوجية مما لا علاقة للنظرية - في نفسها -
به ، وتبرعوا لذلك بالتدليل على صحتها حتى لجأوا إلى التزوير وإلى
مناقضة البدهة والضرورة العقلية وجاوزوا المنطق ... بصورة فاضحة
كما ستقرأ قابلاً ...

وتقبل بعضهم اتجاهها أو منطقتها العام في تفسير الخلق إجمالاً...
دون تفاصيلها وأدلتها .

ورفضها بعضهم دون أناة وبجدة وتطرف لم يترك معها مجالاً لا
مكان دراستها أو تقبلها.

ولم ير قسم رابع في اكتشاف القوانين والآليات التي شاءها الله في
التكوين - كما في النظرية أو في غيرها - ما يشكل منافاة مع الأيمان
بالله أو بالدين أو بالنصوص الثابتة عن الوحي في التفسير الصائب لها
...؟ ولذلك فهو يقبل النظرية - لو صحت - دون شعور بانشطار
فكري أو عاطفي ...

نظرية التطور ليست تأسيساً للمادية)

لا تؤدي نظرية التطور - بالانتخاب الطبيعي - لداورن بنفسها إلى
نفي التدبير الإلهي ، ولا إلى القول بالصدفة ، ولذلك آمن بالنظرية كثير
من العلماء المؤمنين دون أن يروا بين إيمانهم بها ، وبين إيمانهم بالله -

تعالى- أية مناقضة ... وكان دارون نفسه من هؤلاء المؤمنين إلى ما بعد كتابه : (أصل الأنواع) ، وقد ذكرنا عنه في مقدمة البحث أقوالاً تدل على ذلك ... ثم يبدو لنا - إن صح ما نقلوا من أقوال له- انه تأثر بأصداء المادية الفلسفية التي كانت آنذاك في أوج انتشارها ، وأصغى لبعض دعائها من أصدقائه ، كتوماس هكسلي ... وربما كان تأكيده على الأسباب المادية المباشرة في تفسير الخلق ، واستغراقه في ذلك قد ارتد عليه وحجبه عما وراءها مما أفضى به إلى الشك أو إلى اللا أدريّة ... رافضاً - بزعمه - الثقة بأدلة تمخض عنها : ذكاء تطور عن أدنى الحيوانات

قال- فيما نسبوا إليه- : (إن ثمة مصدراً آخر للإعتقاد في وجود الله يرتبط بالعقل وله في نظري أهمية أكبر بكثير من المصادر المتعلقة بالمشاعر والأحاسيس).

وهذا المصدر يأتي من الصعوبة البالغة، أوبالأحرى استحالة تخيل هذا الكون الفسيح الرائع الذي يشتمل على الإنسان بقدرته على النظر إلى الماضي البعيد وإلى المستقبل البعيد أيضاً، على إنه ظهر نتيجة للمصادفة البحتة أو نتيجة للضرورة وحين أفكر بهذه الطريقة ، أشعر بأنه لا بد لي من البحث عن علة أولى لها عقل بصير يشبه إلى حد ما عقل الإنسان وهذا يعطيني الحق بأن أوصف بإنني مؤمن بالله ... وقد كانت هذه النتيجة واضحة في ذهني بقدر ما أتذكر في الوقت الذي كتبت فيه (أصل الأنواع)

وإذا فلم يكن يرى آنذاك: أن كتابه ونظريته يؤسسان لفكرة مادية،

٢٣..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
أو ينافيان الإيمان؟، وان هذا إنما حدث له بعد ذلك .

قال دارون : (ومنذ ذلك الحين أخذت هذه الفكرة تضعف
بالتدرج ولكن مع شيء من التقلب والتراوح....ولكن هنا يثور
الشك : هل يمكن أن نثق في عقل الإنسان الذي اعتقد كل الاعتقاد :
أنه نما وتطور من عقل كعقول أبسط الحيوانات وأدناها حين يستنتج
مثل هذه الإستنتاجات الضخمة ...

ويعلن دارون -على ما يقول داونز- قائلاً: (لا أستطيع أن أدعي
بأنني ألقى أقل بصيص من الضوء على مثل هذه المشاكل العميقة فإن
سر بداية الأشياء كلها غير قابل للحل .

أما فيما يتعلق بي شخصياً فإنني قانع بأن يكون موقفي هو موقف
اللاأدري حول هذا الموضوع^(١) .

وواضح من كلامه : ان هذا الشك أو اللا أدرية لم يأت من أصل
نظرية التطور والنواميس التي تحكمها عنده في المراحل المختلفة ، وإنما
جاء من تصوره : ان الدليل الذي يفرض الإيمان بالله تمخض عنه ذكاء
(عقل) تطور عن أدنى الحيوانات ولذلك فهو لا يستأهل الثقة به
عنده...

وهذا أمر آخر لا يتصل بالنظرية بما هي في نفسها بل الجهل
بالحقائق التي تحتم اليقين بالإلوهية ، ولذلك تبني النظرية - كما قدمنا -

(١) دارون: كتابه المنشور تحت عنوان (النشوء والإرتقاء) التمهيد: ص٧/نقلاً عن مجلة

(عالم الفكر) الكويتية، المجلد ٣، العدد ٤، آذار ١٩٧٣

علماء وفلاسفة مؤمنون، وقد نوقش في رأيه هذا بما يأتي :

اولاً : ان هذا مبنى على ثبوت أصل النظرية بالتصورات ،
والتفاصيل التي يراها على أن هذا التطور كان صدفة وليس بتدبير
إلهي.. وهذا ما لم يحصل ، فهي تواجه لدى كبار العلماء المعاصرين
إشكالات كبيرة لم تستطع الخروج منها حتى الآن .. بل ولن تستطيع
بخاصة حين يستبطن القول عند أصحابها منطق الصدفة المنفي رياضياً ،
وحين تصر على أن تحتكر التاريخ الأحيائي وتوحده من الأصل ..

ثانياً : إن ذلك - لو صح - يشمل الحقائق والبديهيات التي يقطع
بها العقل بالإدراك المباشر وغير المباشر (مادام ليس أهلاً للثقة به عنده
بسبب أصله)، حتى الحقائق التي تثبتها التجربة المحسوسة بحكم أن
معرفتها لم تتم بالتجربة بل بالعقل وان تعميمها يحتاج الى مبادئ عقلية
محضة وإسقاط ذلك كله يعني الإطاحة بالكيان الفكري والحضاري
لبشرية ، وإسقاط نظريته نفسها كذلك.

ثالثاً : إن الذكاء (العقل) القائم لدى الإنسان بالفعل ، لا علاقة له
من الناحية الواقعية العلمية والعملية بالأصل الذي هو في أدنى سلم
التطور كما قال ، كما لا علاقة للإنسان بالفعل بالحيوان المنوي
والبويضة إلا بأنه كان البداية والأصل في الخلق المادي ، على ان دارون
وعالمه كله كان يجهل ما عبأه الله تعالى في هذا الأصل من مخططات
وقابليات مذهلة تحملها المورثات أو جزيئات DNA ولو كان قد عرفها
لا حنى رأسه ، ولا ستحيى من قوله الذي لا يقع فيه إلا من يستبطن
القول بالعشوائية والصدفة في نشوء الخلق ، وارتقائه .

٢٥..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

رابعاً : ان حقيقة الإنسان وجانبه الأهم يتمثل بالروح والعقل من وجوهها الثابتة ديناً وفلسفة وفي الاختبارات العلمية الباراسايكولوجية والروحية، وهي منفصلة ابتداءً أو انتهاءً عن التكوين المادي الجسمي مختلفة عنه في الجوهر ، وانما تتحد به حين يصبح صالحاً ليعبر عنها صورة ، وإمكانيات وافاعيل في العالم الدنيوي المادي : ولذلك فلا مجال للنظر إلى البداية المادية الأولى.

ومع ذلك فان دارون وبصورة لا شعورية لم يستطع أن ينسب عمليات التخطيط المحكم والغائية الدقيقة في مسار التكوين الاحيائي لما هو فاقد للحياة والعقل والقدرة ، فأسبغ لدى حديثه عن (الانتقاء الطبيعي) -السبب الرئيس وراء عملية التطور في نظريته-، صفات الحياة والقدرة والعقل عليه ليستقيم الحديث لديه ...

قال : (ان الانتخاب الطبيعي يطوف بالدنيا باجمعها ليلاً ونهاراً ، ويفحص بدقة التغييرات كبيرها وصغيرها فيرفض الضارة ، ويقبل المفيدة منها ويراكمها ، ويسعى بكل هدوء ودون ضجة ودون جلب انتباه أحد لانتهاز أية فرصة ، يجدها لتكييف كل كائن حي للشروط العضوية وغير العضوية بشكل أفضل)^(١).

هل ترى ما هو الانتخاب الطبيعي عنده وما هي إمكانياته...؟

إنه قدرة محيطية مختارة يقبل ويرفض.....

(١) بلوت : دارون ونظرية التطور ص ٨١ .

ما بعد دارون

توظيف النظرية لتأييد النزعة المادية

أما ما بعد دارون فان المتبنين للنظرية والمتحمسين لها حاولوا توظيفها لصالح المادية الفلسفية، وكانوا على قسمين.

القسم الأول : أيدوا أصل القول بالتطور في تفسير الخلق والتنوع فيه ، لكنهم رفضوا : الإيمان بأسبابه وقوانينه كما تصورها دارون ، وصرحوا : بانهم انما قبلوا القول بذلك؛ لأنه البديل للقول بالخلق المباشر من قبل الله -تعالى- (العامل الغيبي)

قال السير ارثركيث (١٨٦٦م - ١٩٥٥م).

(الارتقاء غير ثابت ، ولا يمكن إثباته ، ونحن نؤمن بهذه النظرية لأن البديل الوحيد هو الإيمان بالخلق المباشر وهو أمر لا يمكن حتى التفكير فيه) ^(١).

ورغم أن الخلق المباشر لم يقل به إلا علماء العهد القديم وأن تفسير الخلق: بالأسباب والقوانين المادية الطبيعية المباشرة لا ينفي التدبير الإلهي وراءها وبها لانتهاه خلقها إليه أصلاً ، ولذلك آمن بالنظرية علماء وفلاسفة يؤمنون بالله تعالى ٠٠٠ فان هؤلاء -كما يبدو- يقصدون الوقوف عند التفسير المادي ولذلك فصلناهم عن قدمنا الحديث عنهم من العلماء المؤمنين.

(١) وحيد الدين خان : الدين في مواجهة العلم ص ٣٨.

إن المشكلة عند بعض رجال الدين وبعض العلمانيين والماديين- كما يرى الفيلسوف الهولندي سبينوزا- أنهم يفصلون بين قوانين الطبيعة وقدرتها وبين مشيئة الله وقدرته وهو خطأ فلسفي فادح فإن قدرة الطبيعة هي ذاتها قدرة الله، وكلما يحدث بالعلل الطبيعية يحدث بإرادة الله وقدرته وحدها^(١). بل يرى الفلاسفة والعلماء أن الخلق المباشر للمخلوقات المركبة والمادية مستحيل لأن الكائن المركب المتعدد لا يكون إلا بالأكوان المنزلة المتعددة ضمن المكان والزمان والأحوال، وإن كانت غير منفصلة بحكم قيموميتها بخالقها ابتداءً واستمراراً.

القسم الثاني :

آمنوا بالنظرية على أنها تمثل حقيقة نهائية أو اشبه بذلك ، وتعصبوا لها بتطرف وصل إلى حد أن يتبرع بعضهم بتقديم أدلة مزورة في محاولة لاثبات صحتها.... ومن ذلك :

الأدلة المزورة

أولاً : ما فعله آرنست هايز نبرش هيكل (١٨٤٣م - ١٩١٩م) استاذ العلوم المتخصص في علم الأجنة في كلية ايتبا في المانيا ، فقد زور صور الاجنة بقصد تدعيم النظرية ، فجرى حسب افتراضاتها ، ورسم هيئة السلسلة الجنينية كما هو الأمر لدى دارون من الأدنى إلى الأعلى :

(١) باروخ اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د.حسن حنفي، الهيئة المصرية

الفقاعية فالهلامية فالحلقيه فالنقارية ، ومن بين (٢٢) صورة دخل بعضها التزوير ، لم يكن للصورة (١٤) الرابعة عشرة ، والتي اسماها: السوزور ، ولا للصورة (٢١) الواحدة والعشرين والتي اسماها: الإنسان القرد ، أي وجود في الواقع على الإطلاق ، وحين كشف الدكتور برانس ذلك وهالت الفضيحة هيجل اعترف قائلاً : (أني اعترف حسماً للجدال في هذه المسألة ، أن عدداً قليلاً من صور الأجنة نحو ستة في المائة أو ثمانية ، موضوع أو مزور) ، وذكر ان معه في ذلك مئات من العلماء الأحيائيين والفلاسفة ، وقال : إن كثيراً من الصور التي توضح أبنية الاحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة مزور مثل تزويري تماماً لا يختلف بشيء وان ذلك مما يعزیه ^(١) .

ثانياً : وفي محاولة لسد فجوة الحلقة المفقودة بين الإنسان والقرد خاصة من بين ألوف الحلقات المفقودة بين الأنواع ، قدم الطبيب الهولندي يوجين ديبوا : إنسان جاوا الذي كشف زيفه الدكتور فيرشاو واثبت انه مؤلف من جمجمة قرد وعظمة فخذ إنسان ، وإن طفل دارت الذي زعم الدكتور (ريمون دارت) انه كشفه، تبين بعدئذٍ انه جمجمة لقرد صغير ، وإنسان بلتداون الذي قدمه (جارلس داوون) سنة ١٩١٢ م ، وخدع به العلماء حتى العام ١٩٤٠ م ، فكشف العالم الألماني فرانز ، انه عبارة عن تركيب اصطناعي بين جمجمة انسان وفك قرد الأورانج مع وضع اسنان اصطناعية في هذا الفك ، وايدت الابحاث

(١) دارون . ت . كيش : هل تعرضت لغسيل الدماغ : الشروح والتعليقات ص ٧٢ .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٣٠
والتجارب على يد كنبت أوكلي ، وجماعة من العلماء سنة ١٩٥٣م.
ذلك فكانت فضيحة مدوية. وانسان نبراساكا وانسان بكين وامثال
ذلك^(١).

ثالثاً: رفض التطوريون تصحيح معلوماتهم على أساس معطيات
الواقع الجيولوجي تعصباً، ففي تكساس قرب كلين روز اكتشفت آثار
أقدام الديناصورات بوضوح، وبالقرب منها على بعد عدة ياردات آثار
أقدام الإنسان، وأحياناً كانت متقاطعة في نفس الطبقات الصخرية.

لكن التطوريين قاموا بإنكار هذه الآثار بكل بساطة، أما سبب
الإنكار فيشرحه أحدهم وهو ألبرت .س. أنكلسن قائلاً:

لو كان الإنسان موجوداً منذ العصر الكربوني بأي شكل من
الأشكال فمعنى ذلك أن علم الجيولوجيا خاطيء تماماً إلى درجة يكون
من الأفضل للجيولوجيين تقديم استقالاتهم والعمل كسائقي
شاحنات.....^(٢) وهذا يعني- كما هو واضح- أنه يُخضع الواقع
للجيولوجيا وليس العكس.

وأصر فريق من العلماء رغم كل ذلك على نشر النظرية وتأييدها
والإشادة بصاحبها ، واعتبارها حقيقة ، نهائية أو أشبه بذلك.

يقول البروفسور ماندير : (لقد ثبت صدق هذه النظرية ، حتى اننا

(١) نفس المصدر ص ٦٢ - ٧٣ ، وبلوت : دارون ونظرية التطور ص ٩٠ - ٩٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٩ .

٣١..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
نستطيع ان نعتبرها أقرب شيء إلى الحقيقة^(١).

واثنى العالم الأمريكي سيمسن ثناءً بالغاً على دارون ، ثم قال :
لقد حصل على هذا المركز لأنه اثبت نظرية الارتقاء على انها حقيقة
كلياً، بحيث لم تعد قياساً أو فرضاً بديلاً لأخترع للبحث العلمي^(٢)، وأصر
قسم منهم على توظيف النظرية ايدولوجياً ، وطرح نتائجها العلمية ،
وتفسيراتها بصورة متعمدة لتدعم الفكر المادي الإلحادي .

ومن هؤلاء العالم الإنجليزي جوليان هكسلي الذي ألف كتاباً
أسماه (الإنسان يقوم وحده) إثباتاً لنظرية الصدفة في الخلق ، ونفي دور
الله - سبحانه - فيه. سيراً على خطى جده توماس هكسلي صديق
دارون (١٨٠٥ - ١٨٩٥ م) ويتركز جهده فيه على محاولة طرح زعمه:
في أن العالم ومنه الإنسان حدث نتيجة لعديد من المصادفات وذكروا انه
قال- وهو في صدد تقريب اطروحته-: انه لو أخذ عدداً من القرود
وعدداً من الآلات الكاتبة ، لتضرب عليها باستمرار (لملايين وملايين)
السنين لأمكن أن تحصل لنا منها بزعمه إحدى مسرحيات شكسبير
صدفة .

وكان من أشهر من تصدى للرد العلمي عليه ، وتسفيه افهامه عالم
من أكبر علماء امريكا وهو العلامة . كريسي موريسون رئيس أكاديمية

(١) الدين في مواجهة العلم ص ١٧ .

(٢) المصدر نفسه .

العلوم بنيويورك في كتاب اسماه (الإنسان لا يقوم وحده) ^(١)

ومن الاسماء البارزة المشهورة التي ظلت ترتكز على النظرية ،
وتبنى على انها حقيقة يصلح الارجاع اليها في النفي وفي الإثبات حتى
في إمكان الصدفة في نشأة الحياة (وهو أمر عجب)، الفيلسوف الإنجليزي
الرياضي برتراند رسل في مرحلة من مراحل تفكيره ، فقد كتب عن
الأدلة التي قدمها المتكلمون ، والتي يمكن ان يقال عنها - في ما يقول
هو- إنها أدلة منطقية ومثبتة لوجود الله ، والتي أقرها كثير من الفلاسفة
الكبار ...

فقال : (وهناك دليل من بين هذه الأدلة ليس منطقياً محضاً انه
الاستدلال بنظام الكون) وما أدري كيف أمكن له أن ينفي صفة
المنطقية عن هذا الدليل؟ ثم قال : (مع أن دارون على كل حال قد
أبطل هذا الدليل) ^(٢) .

ومن هؤلاء جين مونود الذي رأى أن البرنامج الوراثي خلال
التطور قام على الصدفة التي أوجدت بنيات جديدة ^(٣) .

إن المتحمسين لنظرية التطور من أصحاب الإيدولوجيات الإلحادية
أصلاً، ينسون حين يكتبون ، أكثر حقائق العلم وضوحاً ، وأوضح

(١) كريسي موريسون : العلم يدعو إلى الأيمان (ترجم إلى العربية بهذا الإسم) ، المقدمة
ص ٣٦-٣٧ .

(٢) وحيد الدين خان : الدين في مواجهة العلم ص ٣٦ .

(٣) موريس بوكاي ص : ٦٣ .

٣٣..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
القضايا المنطقية بداهة ، حين يشيّدون تفسيراتهم على الصدفة ،
ويفسرون الصدفة أحياناً بالصدفة فخذ على سبيل المثال هذا النص
لأحدهم قال :

(إن الاستراتيجيات والخطط التي طورها الكائنات الحية في
صراعها مع الصدف ومع البيئة هي نفسها وليدة الصدف ، والبيئة
وبهذه الصورة استطاع الانتخاب الطبيعي استخراج ملامح غائية من
حوادث عشوائية لا غاية لها وخلق أعضاء معقدة لأنواع من الكائنات
تبدو وكأنها متلائمة مع محيطها حسب خطة مدروسة وموضوعة بعناية
، ولكن هذه الأعضاء ، وهذه الأنواع استطاعت أحياناً تجاوز وتخطي
حدود وظائفها ، فاستطاعت زعنفة أن تنقلب إلى يد، وذراع إلى جناح ،
أو إلى يد فنان ، واستطاع نظام للأعصاب أن ينقلب إلى دماغ يتكلم ،
ويبحث ، ويشعر بالسعادة أو بالندم).

الإشكالات العلمية على النظرية

لقد سجل العلماء الذين عنوا بدراسة النظرية من الاختصاصات
المختلفة إشكالات عديدة عليها ، لا مجال لتناولها بصورة وافية وبالمدى
الذي ذكره ، وإنما نوجزها بالحدود الذي نعرّف به مضمونها ومعناها.

الإشكال الأول:

يرى العلماء أن النظرية مجتزأة من الكيان الكوني ، فهي تقصر
نفسها على الجانب الاحيائي وجوداً وتاريخاً متجاهلة وجود الكون
وتاريخه ابتداء منذ خلق ومما لا شك فيه ان الوجود الاحيائي وتاريخه لا

يمكن تصويره منقطعاً عن ذلك ابتداءً من حيث الوجود والنواميس المفروضة لأن الوجود من العدم والحركة من السكون ابتداءً، لا يأتيان صدفة قطعاً.

الإشكال الثاني:

إن تاريخ الأحافير يرفض النظرية لأنه لا يوجد في التسجيل الجيولوجي ما يشير إلى الحلقات المفقودة في تاريخ الأحياء ، ويقدم العلماء إثباتات من المتحجرات تبين : ان التطور لا يأتي نتيجة لتراكم التغيرات الطفيفة عبر الملايين من السنين، كما تفرض نظرية دارون ويقول البروفسور دوان ، ت كيش :

(ان الاثبات الذي يحتاجه التطوري لدعم ادعاءاته: هو أن ترينا المتحجرات تطوراً تدريجياً في أشكال الحياة من الأشكال البدائية للحيوانات إلى الأشكال المعقدة والمتطورة متسلسلاً ومتدرجاً ، ويتم هذا الإثبات في حالة وجود الأشكال المتعددة لصورة الانتقال في سجل المتحجرات . أما الإثبات الذي سيدعم فكرة الخلق فهو وجود متحجرات ، تظهر انبثاق الأشكال المعقدة والمتطورة فجأة دون أن يكون هناك تسلسل وتطور في أشكال الحياة من الأنواع الدنيا البسيطة إلى الأنواع المتطورة والمعقدة. كذلك هناك في سجل المتحجرات غياب ملحوظ وبنسبة كبيرة في كل مكان للأشكال الانتقالية المفترض وجودها حسب نظرية التطور ، فهناك مئات الآلاف من الحلقات المفقودة بين

٣٥..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
اللافقرات وبين الفقرات (١).

وحول هذا الموضوع قالت المجلة العلمية الأمريكية في عدد آب سنة
١٩٦٦ :

(ان علماء الاحياء يمرون ساكتين عن ذكر الظهور المفاجئ
والتركيب الكامل لحياة الحيوان بينما هما الصفتان المميزتان للفترة
الكامبرية كما ان الابحاث الأخيرة التي تمت عن طريق المستحثات ، قد
دلت على انه من الصعب التغاضي عن اللغز الذي يطرحه الظهور
المفاجئ للكائنات الحية كثيرة الخلايا ولم تكن هذه الكائنات مائة
ولابسيطة التركيب ، بل كانت معقدة التركيب تعود في ظاهرها إلى
الأنواع الكبيرة المعروفة في عالم الحيوان ... ونحن نعلم اليوم أنها كانت
في عداد الحيوانات التي تتمثل في كل أنواع الحيوانات الكبيرة التي تتمتع
بهيكلي عظمي قابل للتحجر ، ومع ذلك قلماً نجد أثراً لهذه الحيوانات
قبل الفترة الكامبرية الدنيا ويمكن بكل جدية وصف ظهور الحيوانات
الإقليمية للفترة الكامبرية (٢) الدنيا ، بأنه ظهور مفاجئ (٣).

ويقول العالم التطوري ج ج سمبسون - في كتابه عوامل التطور
الرئيسية-: يعلم علماء المتحجرات ولاشك بأن أكثرية الأنواع

(١) في نظرية التطور : هل تعرضت لغسيل الدماغ ص ٢٥ - ٢٦ .

(٢) العصر الكامبري: استغرق ١٠٠ مليون سنة تقريباً (أي قبل ٥٢٠-٤٢٠ مليون سنة
مضت) .

(٣) ن.م : ص ٥٣ نقلاً عن الشروح والتعليقات ، لأورخان محمد علي .

والأجناس والأسر وكل الأصناف الجديدة التي هي فوق مستوى الأسرة، إنما ظهرت فجأة ، وإنما لانجد أي خلق مستمر ومتقدم لأشكال انتقالية.

وأصدرت الجمعية الجيولوجية في لندن تقريراً عن سجل الحفريات بصورة مخططة ومنظمة يوضح ظهور الأنواع المختلفة للحيوانات والنباتات حسب العصور الجيولوجية المختلفة والملاحظ في هذا المخطط أن الحيوانات ظهرت فجأة ودون أية مقدمات أو حلقات وسطى فمثلاً:

إن الطيور ظهرت في العصر الجوارسي^(١) ، والثدييات ظهرت في العصر الترياسي^(٢) والزواحف في العصر الكاربوني ، والشعاعيات في العصر الكمبري ، ولاحقات هناك بين الأنواع في أي منها :^(٣) ...

وفي سنة ١٩٦٧م قامت الجمعية الجيولوجية بنشر كتاب بـ(٨٠٠) صفحة اشترك في تأليفه ١٢٠ من رجال العلم ، قالوا بعد تدقيقها ، وتصنيفها إلى (٢٥٠٠) : (ان كل مجموعة من الحيوانات و النباتات تملك تاريخاً خاصاً بها ، يعنون أنها لا تتصل بتاريخ مجموعة سابقة خلافاً لافتراضات دارون)^(٤)

(١) استمر حوالي ٣٠ مليون سنة (أي منذ ١٧٠-١٤٠ مليون سنة خلت) .

(٢) استمر حوالي ٢٥ مليون سنة (أي منذ ١٩٥-١٧٠ مليون سنة مضت) .

(٣) المصدر السابق ص ١١-١٢ نقلاً عن علم الجولوجيا د . محمد ابراهيم فارس ، ود .

حسين لطيفي عباس وعبد العزيز محمود .

(٤) ن . م . ص ١٣ .

٣٧..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
ويرى العلماء انه ليس من الممكن أن نقبل النظرية القائلة بوجود
سلسلة نسب مشترك بين الإنسان وكبار القردة المعاصرة ، على أنها
فرض معقول كما انه ليس هناك ما يوضح : ان التطور وقع للإنسان
بنفس الطريقة التي وقع بها في باقي مملكة الحيوان ، وعلى ذلك فمن
الممكن - في ما يرى العلماء - أن تكون الإنسانية قد بدأت منذ فترة
بعيدة لم يحددها العلم بعد تصل في قدمها إلى أقدم مما تم التوصل إليه من
آثار وبقايا بشرية موثوقة . ورأت عالمة الإحاثة ، البرفسورة جنيت
فارسين : انه ابتداءً من الحقبة الثالثة (أي منذ ٦٠ مليون سنة) فإن
السلسلة التي نتج عنها القردة الكبار والسلسلة التي منها إنسان اليوم
منفصلتان تماماً عن بعضها البعض وحتى بالنسبة للفترات السابقة على
الحقبة الثالثة ، فليس هناك من دليل يوحى بوجود الأصل أو المنشأ
المشترك^(١) .

الإشكال الثالث:

رفض العلماء (الانتقاء الطبيعي) أو (بقاء الأصلح) الذي حسبه
دارون قانوناً يحكم عملية التطور بصورة شاملة لوجود شواهد لا تحصى
تخالف ذلك ، فبموجب هذا القانون عند دارون يجب أن لا تبقى صفه
من الصفات التي تؤدي إلى إلحاق الأذى بالحيوان أو النبات، لكن من
الحقائق المعروفة التي تخالف ذلك أن بعض النباتات الصنوبرية تنتج

(١) موريس : ما أصل الانسان ص ١٢-١٣ نقلاً عن الموسوعة العالمية المجلد الثامن
ص ٤٩٩ .

مركبات كيميائية تجذب إليها الحشرات التي تسمى مغمدات الأجنحة ، ومن ثم تلتهمها وتفترسها ثم بعد ذلك تؤدي هذه المركبات الكيميائية إلى موت النبات نفسه ، وهذه العملية مستمرة منذ ملايين السنين ، ولا يتدخل الانتقاء الطبيعي لانقاذ شجر الصنوبر والتنوب من التدمير الذي يصيبه بسبب ذلك، ويشبه ذلك وضع الظبي الذي يستطيع أن يفلت من أعدائه بما يتميز به من سرعة فائقة ، ومع ذلك، فإن هناك أنواعاً من هذا الحيوان يملك غدداً في أظلافه تفرز رائحة معينة تترك أثرها ورائحتها على الأرض التي يجري عليها الظبي ، وما على الحيوان الضاري من آكلات اللحوم الذي يطارده إلا أن يتابع الريح في أثر فريسته ، وهذا ما هو حاصل ، ولذلك فإن الظبي الرشيق ، لا تنسحب عليه أية حماية خلافاً لنظرية دارون ، ويعتبر النمو المتزايد للقرون مثلاً آخر للصفات للضارة التي يمكن أن تشكل معوقاً كما هو الأمر في الأيائل ، ذات القرون الشجرية المتشعبة خاصة أو الطويلة طويلاً مفرطاً مما يعيق حركتها داخل الغابة وجريها للنجاة من أعدائها . وقد اتضح من دراسة سمكة السيلكانت وهي ترجع إلى ٣٥٠ مليون سنة مدى الصفات والخصائص التي عليها هذه السمكة ، ولو كان الانتقاء الطبيعي قائماً بحق لا ستلزم ذلك اختفاء هذه الخصائص وإضفاء تشكّل آخر أكثر فائدة وفاعلية وأداءً ، لكن الواقع أن شيئاً لم يطرأ عليه التغير على مدى مئات عديدة من ملايين السنين^(١) .

(١) الدكتور موريس بوكاري : ما أصل الإنسان ص ٥١ .

الإشكال الرابع:

ردّ العلماء على ما رآه دارون من أن تحوير ، وتغيير صفات الحيوان، إنما هو للتلائم مع الظروف والبيئة - بالانتقاء الطبيعي - أيضاً وبقاء القوى وذهاب الضعيف في عملية الصراع الشامل؛ لوجود حيوانات متعاصرة في وجودها ونشأتها ومن جنس واحد، ومع ذلك فهي مختلفة من حيث صفاتها وقوتها ، قال البروفسيور إتين رابود مدير معهد علوم الحياة في جامعة باريس : (لم تعد أفكار دارون صحيحة ، لأنه لا وجود للانتخاب الطبيعي في صراع الحياة بحيث يبقى الأقوياء ، ويزول الضعفاء فمثلاً : ضب الحدائق يستطيع الركض بسرعة ، لأنه يملك أربع أرجل طويلة، ولكن هناك في الوقت نفسه أنواع أخرى من الضب له أرجل قصيرة ، حتى ليكاد يزحف على الأرض ، وهو يجر نفسه بصعوبة ...

أما الثعبان الأعمى وهو نوع آخر من الزواحف فليست له أرجل بالمرّة. إن هذه الأنواع الثلاثة من الزواحف تملك البنية الجسمية نفسها حتى بالنسبة لأرجلها ، وتتناول الغذاء نفسه ، وتعيش في البيئة نفسها والظروف الحياتية نفسها ، فلو كانت هذه الحيوانات متكيفة لبيئتها لوجب عدم وجود هذه الاختلافات بين أجهزتها ، وبالرغم من تماثل بيئة وغذاء (ضب الحدائق) مع بيئة وغذاء الأنواع الأخرى من الضب إلا أنه - بالمقارنة معها - يبدو في وضع أفضل ويظهر لنا وكأنه يملك قابلية أكثر للعيش أما الأنواع الأخرى فإنها لم تمح ولم نزل من الوجود ، على الرغم من الصعوبات التي تواجهها من جراء بعض أعضائها ، بل

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٤٠
استمرت في الحياة وفي التكاثر مثلها في ذلك مثل ضرب الحدائق.....
وضرب عدة أمثلة أخرى للتدليل على نفس الرأي وخلص إلى
القول :

إن هذه الأمثلة تبين بوضوح : أن الأعضاء المختلفة للأحياء لم
توجد لكي تقوم بفعاليات معينة ، بل على العكس فإن هذه الأعضاء
موجودة أصلاً. وهي تيسر للأحياء القيام بنشاطات معينة أو تحول دون
ذلك ، وهذا يعني : أن الأعضاء لم توجد في الأحياء نتيجة تكيف هذه
الأحياء للظروف بل على العكس فإن ظروف حياتها هي التي تشكل
لهذه الأعضاء ووظائفها^(١).

ومن ذلك الفروق الشكلية والتشريحية الداخلية بين الذكر والأنثى
وما يتبعها من تكيف نفسي وعاطفي ووظيفي رغم أنهما يعيشان ابتداء
في نفس الظروف ونفس البيئة ومثل ذلك اختلافات الألوان والأصوات
والأحجام وطرز المعيشة في الحيوانات والنباتات التي تعيش في بيئة
واحدة يقول أحد العلماء : (كيف حدث التميز والاختلاف الشامل في
الأنسجة الحية ، هذا اللغز لا يعلم سره أحد وليس في إمكاننا القيام
بشيء سوى سوق الافتراضات بانها كانت نتيجة سلسلة من الصدف
الشاملة والنادرة^(٢)).

(١) بلوت : دارون التطور ص ١٩ - ٢١ .

(٢) بلوت : ص ٥٧ .

الإشكال الخامس: الشريط الوراثي لا يسمح بالتغيير النوعي

الشريط الوراثي (DNA) ، مستودع المعلومات التي تتصل بهندسة الكائن من حيث الشكل الخارجي والتكوين الداخلي ، ومجمل صفاته التاريخية وخصوصياته ما يبرز منها ومالم يبرز وكل إمكانياته ، وهو محكوم بضوابط دقيقة وحاسمة من المستحيل تجاوزها.

ففي أبسط الكائنات الحية يتصل DNA بالخلية مباشرة (السيتوبلازم) فالبكتريا لا تحتوي على نواة ، أما في الخلايا الحيوانية والنباتية التي هي على درجة أرقى فيكون DNA داخل نواة الخلية في الكروموسومات ، وهذا يعني انه يتدخل بشكل غير مباشر فقط في عملية تخليق المادة الحية ، وبما انه مستودع كل المعلومات التي تتطلبها التفاعلات داخل الخلية ، فانه يحمل رسائله في ذلك الحمض النووي الريبوزي RNA لنقلها إلى الأجزاء الأخرى من سيتوبلازم الخلية ، لكن RNA لا ينقل ذلك بصورة مباشرة أيضاً فهو يعمل بمعونة RNA آخر ويسمى الأول والثاني بالرسول فهو فعال في نقل وسائل DNA فقط، بعد هذا يتحطم RNA الرسول لانتهاه دوره... ويوضح ذلك دقة وتعقيد نظام الاتصالات القائم داخل الخلية وشفراتها والتي يقدر ما تخزنه من معلومات بمليون صفحة في الوقت الذي لا تتجاوز الموسوعة العلمية البريطانية ٤٦ ألف صفحة^(١).

(١) نفس المصدر .

وإذا أخذنا فكرة عن العلاقات المتداخلة التي لا حصر لها الموجودة في داخل الخلية بقيادتها ورسالتها وأعضائها الوسيطة التي توجه القيادة المركزية لحفز التخليقات الكيماوية ذات الاعداد الهائلة التي تتحكم في اتمام مجموعة متباينة من المهمات اللانهائية بما في ذلك تكاثرها وصفاتها^(١) اتضح لنا القوانين الحاسمة التي تحكم خط التخليق والتطور ، انه خط لا يخرق ، ولا يفسح المجال لافتراضات دارون ، ولا مجال لما ذكره أتباعه من التعليل بالطفرات الوراثية.

يقول : ب . ب . جراسيه :

لا يمكن لظاهرة ما أن تحدث في الخلية دون توسط جزئي DNA ، وهو الذي يتولى بواسطة جزئي RNA تكوين البروتين الذي يشكل أصل التخليق الكيماوي ومن أجل حدوث أي تغيير مورفولوجي ، فانه يلزم ان يحصل جزئي الـ DNA على جين جديد يضيف إلى رصيد المعلومات التي يحتفظ بها كيميائياً أو أن تحدث تعديلات في جين موجود بالفعل ..

وان الاستجابات للمنبهات التي تحكم التطور مسجلة في جينات الوراثة في الفرد وهذا هو الذي يجعل التكيف ممكناً ويلزم وجود ظروف معينة حتى يمكن تسجيل هذه الاستجابات .

إن أي حيوان لا يكون في وضع يسمح له بالبقاء ما لم يكن لديه معلومات عن بيئته – والكلمة هنا بأوسع معانيها – فالجهاز العصبي

(١) الدكتور موريس بوكاي : ما أصل الإنسان ص ٧٠.

٤٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان

يستقبل رسائل وينقلها بشكل ملائم إلى المراكز العصبية حيث يتم تفسيرها ومن ثم تحفز الاستجابات التي تناسب المثيرات أو المنبهات في البيئة الخارجية، وتقوم المراكز العصبية بوظيفتها وفقاً للمعلومات الفطرية والمتخصصة التي تحكم أفعالها على الدوام وهي في ذلك تقوم بدور الحاسب الآلي لهذه الأحياء بما لها من قدرة على استقبال برامج مختلفة ... إن المعلومات المحددة مودعة في داخل كل خلية على شريط DNA متضمنة في الشفرة الوراثية انه الإدراك الذي يتمتع به النوع كله وهو أيضاً الإدراك المودع في سلسلة النسب .

ويقول: وواقع الأمر أنه لم يبق أي دليل على تكون جينات جديدة بمرور الوقت ولم يلاحظ عالم بايولوجي واحد ذلك ، ومن ثم فإنه بدون هذا التكون يصبح التطور ظاهرة تستعصي على التفسير^(١) .

الإشكال السادس: الطفرات الوراثية

قد ينسبون إلى ظاهرة التطفر كل التغيرات الوراثية التي تراكمت عبر الاجيال المتتالية مما يؤدي في نظرهم إلى تطور الكائنات الحية .. ولكن لا بد - ليصح ذلك - أن نعتقد أن هذه الطفرات تتم وفق تتابع زمني تام منضبط ، وفي اللحظة المناسبة والحلقة المناسبة تماماً ، حتى يمكن أن يصل الأمر إلى إضافة أو نقص أعضاء ما ، أو لإحداث تغيير في بعض الوظائف بعينها ملاحظين أن كل تغيير مورفولوجي يصحبه

(١) نقلاً عن موريس : ما أصل الانسان ، ملخصاً عن ص ٩٣ - ٩٥ .

إلا أن من الواضح أن هذه الطفرات تقع على نحو لا ينتظمه نمط أي تقع بطريقة عفوية ، ويلزم ابتداءً أن يتوصل التطوريون إلى رقم يبين العدد الممكن للطفرات التلقائية ، وحتى الآن لم يتم التوصل إلى هذا الرقم ، فبالنسبة لجين واحد عبر جيلين يقدر (بي ليربتييه) العدد بنحو (١:١٠٠٠٠) وهو غير كافٍ لتفسير بلايين البلايين من التغيرات الخارجية والداخلية الحاصلة في عالم التطور.

إننا يجب أن لا نخلط بين عملية التطفر العضوي الفجائي الذي يرجع إليه أمر الصفات الفردية وبين الطفرات بوصفها القوة الأولى المفترضة وراء عملية التطور التي تعني اطراد التحول ، وعلى نطاق واسع جداً ، فعلى سبيل المثال ، أثر تطور الحشرات على تركيبها بالكامل ، وبنظام صارم جداً ، كما إن تحول الأعضاء حدث ببطء ولكن باطراد عبر مراحل متتالية ... كل ذلك بنظام يستحيل معه أن يكون ذلك قد تم عن طريق الطفرات الفجائية العشوائية ، وبالإضافة إلى هذه الحقائق التي نستمدتها من علم الاحاث ، نشير إلى أن الأبحاث في علم الوراثة تمدنا بمعلومات تعتمد أساساً على أكثر الكائنات بدائية مما يعيش في عصرنا الحاضر ، وهذه هي البكتريا ، وهي موضوع سهل للدراسة ، فهي تتكاثر في مدى عشرين دقيقة ، وبذلك يكون من الممكن متابعة تقدم آلاف الأجيال التي تحدث بينها الطفرات في جزئي DNA ، ولكن ما هي النتيجة العلمية للطفرات ؟ تغيرات على نطاق ضيق ...

٤٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
فالأنواع تبقى كما هي وكما كانت عليه منذ مئات ملايين السنين^(١).

لقد حاول أنصار نظرية التطور التفسير بالطفرات - بكل ما
يملكون من جهد ووسائل لإثبات إمكانية ذلك ففشلوا ، ومن ذلك أنهم
أرادوا بكل الطرق إحداث طفرات كبيرة ونوعية في المختبر مستعملين
كل العوامل والوسائل المفترضة لإحداثها كالأشعة فوق البنفسجية
والأشعة السينية ، وزيادة درجات الحرارة ، والمواد الكيماوية ، واجروا
التجارب متصلة ومستمرة على ٨٠٠ جيل متعاقب لذباب الفاكهة ،
وهذا يقابل (٢٠٠٠٠) سنة عند الإنسان ، فلم يحصلوا إلا على
تغيرات طفيفة أكثرها تشوهات خلقية ، وان ذلك كله لم يحول الكائن
عن نوعه أي أن الذبابة بقيت ولم تتحول إلى كائن آخر.

والثابت لدى العلماء :

١- ان الطفرات نادرة الحدوث في الطبيعة ، وكلما ترقى الكائن
قل احتمال حدوث الطفرة عنده.

٢- ان أغلب الطفرات تكون ضارة ومهلكة.

٣- ان التغيير الحادث نتيجة الطفرة ، يبقى الكائن داخل نوعه ،
ولا يمكن لأية طفرة تغيير نوع الكائن الحي.

وبذلك تحبط بصورة نهائية محاولة تعليل التطور النوعي بالطفرة.

(١) بوكاي: ما أصل الإنسان (٦٠-٩٤)، ودوان.ت. كيش: هل تعرضت لغسيل الدماغ/

المقدمة ص ٨ ، وبلوت: دارون ونظرية التطور: ص ٦٨-٧٩ .

الإشكال السابع :

ما يسميه علماء الحيوان بالأنواع المزمنة التي عاشت كما هي عبر الأزمان : ومنها الطحالب الزرقاء وهي كائنات لا تفتقر إلى الأسباب القوية التي تجعلنا نعتقد أنها وجدت منذ بليون سنة على الأقل ، ومع ذلك فقد كانت كما هي اليوم ، كما إن هناك أمثلة أخرى مثل بكتريا الحديد (فيروبيكتريا) والاسفنجيات والرخويات ، ويذكر وليام داي : قائمة طويلة من الأنواع المزمنة من الاحياء يقول : هناك الأحافير الحية وهي نباتات وحيوانات ، لا تزال متواجدة بدون أي تغيير يذكر عن أسلافها الاحفورية ، ونجد الكوسج اليوم قد بقى جوهرياً بنفس حالته دون تغيير طوال السبعين مليون سنة الماضية والسرطان الحدوي يتواجد اليوم بنفس حالته بدون تغيير يذكر أكثر من مائة وثمانين مليون سنة ، ولم تحقق الصراصير والعقارب والألفيات الأرجل والنوتيلاس أي تقدم خلال عديد من مئات الملايين من السنين وكانت شجرة الجنك مزدهرة في الصين في عصر الديناصور ، واكتشف سانفورد سيفل وهو خبير نباتي من جامعة هاواي لدى زيارته ويلز متعضية مجهرية لما قبل حقبة الكمبري قبل ألفي مليون سنة^{(١)(٢)}.

(١) وليام داي : نشأة الحياة على الأرض ص ١٩١ - ١٩٢ .

(٢) ذكر بعض الباحثين أن عصر الكمبري استغرق (١٠٠) مليون سنة تقريباً (أي قبل

٥٢٠_٤٢٠ مليون سنة مضت) خلافاً لما ورد أعلاه/ أورخان محمد علي في شرحه

لكتابه المترجم : هل تعرضت لغسيل الدماغ؟

٤٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

وكذلك الحيوانات مثل الأيسوم وقد أحدثت سمكة السيلكانت التي يبلغ طولها أكثر من ٥ , ٤ أقدام ، ضجة كبيرة حين اكتشفت بعيداً عن ساحل الجنوب الافريقي سنة ١٩٣٨ م ، ويعتقد العلماء أنها ظهرت من نحو ٣٠٠ مليون سنة ، وهناك أمثله عديدة عن هذه السمكة حيث تم صيدها في ايامنا هذه وكلها على نفس النمط ، لأن السيلكانت مألوفة لدى صيادي السمك المحليين وبفحص هذه الاسماك استطاع العلماء الوصول إلى معلومات مهمة عن تشريح هذه السمكة وفسولوجيتها ، التي أبت مثل كثير غيرها ان تنسجم مع ما قال به دارون عن الانتقاء الطبيعي^(١) .

وقد أصدرت المملكة البريطانية سنة ١٩٨٣ م طابعاً تذكاريّاً بمناسبة مرور قرن على وفاة دارون ، وفي الطابع صورة لدارون تقف إلى جانبه اغوانتان (أكلتا عشب) تهمسان في أذنيه قائلتين : (نأمل الاستماع إلينا كل منا ينتمي إلى نفس النوع لملايين وملايين السنين على عكس نظريتك)^(٢) .

وفي غلاف مجلة العلم بتاريخ ٩ كانون الأول سنة ١٩٦٦ م، نرى صورة متحجرة لخنفاش قيل إن تاريخها يرجع إلى ما قبل ٥٠ مليون سنة، ومع ذلك فهي تبدو مثل الخنفاش الحالي تماماً ، دون أي فرق ، يرينا

(١) موريس بوكاري : ما أصل الإنسان : ص ٥٠ - ٥١ .

(٢) موريس بوكاري : ما أصل الإنسان : ص ٥٣ .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٤٨
علاقة أو بينة على أي تطور^(١).

ومما يلاحظ على التطورين عدم الإشارة إلى الحشرات عند شرح النظرية وتهربهم من ذلك ، أما السبب في ذلك فهو أن جميع هذه الحشرات بقيت دون أي تغيير يذكر منذ وجودها على الأرض قبل ٣٥٠ مليون سنة ، لأنها ظهرت في نهاية الدور السيلوري^(٢) ، وبداية العصر الديفوني^(٣) ، وقد جاء في التقرير الذي نشرته وزارة الزراعة الأمريكية سنة ١٩٣١ م :

(إن أقدم الحشرات المعروفة تشبه الحشرات الموجودة حالياً شبيهاً تاماً)^(٤).

الإشكال الثامن:

ومن الاشكالات على النظرية انه ليس هناك صراع لا يفسح المجال للبقاء فيه إلا للأقوى ، بل الذي يسود الطبيعة انسجام وتداعم وتكامل من جهة أو أخرى .

(١) د.دوان.ت. كيش: المصدر السابق ص ٣٤ .

(٢) العصر السيلوري: استمر حوالي ٣٠ مليون سنة (أي قبل ٣٥٠_٣٢٠ مليون سنة مضت) .

(٣) العصر الديفوني: استمر حوالي ٤٥ مليون سنة (أي منذ ٣٢٠_٣٧٥ مليون سنة مضت) .

(٤) أورخان محمد علي: هل تعرضت لغسيل الدماغ ، ص ١٣ .

٤٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان

وإذا استطاعت النظرية أن تقدم تفسيراً لبقاء الأقوى فأنها لم تستطع أن تقدم تفسيراً لبقاء الأضعف من (عالم المخلوقات المزمنة) ومنها الحشرات ، وبقاء الأجل كالفراشات ، إن الجناح المنقوش لا يمتاز بأية صلاحيات مادية أو معاشية تفوق الجناح الأسود أو الرمادي في الطيران ... وإذا قلنا إن الذكر يفضل المنقوش من الأجنحة في التزاوج ، فسوف نسأل ولماذا ؟ ولماذا في هذا النوع دون غيره ؟ ما دام النقش لا يمثل أي زيادة في الكفاءة .

وإذا دخل تفصيل الأجل في الحساب فان النظرية المادية تنهار من اساسها وتبقى عاجزة عن تفسير لماذا خرج من عائلة الحمار حيوان كالحصان ولماذا خرج من عائلة الوعل حيوان مرهف رقيق كالغزال مع انه أقل قوة وأقل احتمالاً كيف نفسر شكل الهدهد وريش الطاووس وطيور الحب والبيغاوات وموديلات الفراش بألوانها البديعة ونقوشها المذهلة ، لا شك نحن هنا أمام يد مصور مبدع يقدم من ألوان الإبداع ما شاء .

ويتمثل الموقف الراض دون إصغاء لأية مناقشة بـ

(موقف رجال الدين "من الكتابيين")

في العلماء من رجال الدين الكتابيين ، بل وفي غيرهم حرفيون لا يستسيغون التأويل ويرفضون نتائج العقل والعلم ويأبون النظر اليهما، والتفكير فيهما مجرد أنها تتعارض مع ظاهر النصوص في العهدين (التوراة والإنجيل) دون بذل أي جهد للموائمة العقلية والفلسفية التي تجمع السبب المباشر (المادي) واللامباشر (الذي يتقوم الأول به - ليفهم

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٥٠
بذلك الخطاب الديني الوارد الذي يطوي البعد الزمني والسلسلة الطولية
في حلقات الأسباب بخالقها دون نفي لها ، وهي محنة كبيرة عانت منها
الحضارة الإنسانية والعالم العلمي بل عانى الدين نفسه من ذلك زماناً
طويلاً.

على أن نصوص العهدين نفسها - كما أثبتت الدراسات العلمية
من علماء أهل الكتاب أنفسهم - موضع شك من حيث نسبتها
للوحي ، وللسولين موسى وعيسى -عليهما السلام- أصلاً ، ولذلك
فلا ينبغي التوقف طويلاً فيما لا يقبل التلاؤم منها ، ظاهراً أو بالتأويل
- مع الحقائق العلمية ، لأن ذلك وحده دليل على عدم صحة نسبة
النص للوحي ...

إن العدد الذي هاجم نظرية دارون من علماء الكنيسة أكبر من أن
ينظر إليه على انه تعبير عن مواقف فردية خاصة ... ونحن هنا لا نذكر
إلا بعض الأمثلة لتبيين لغة الهجوم ومنطقاته .

فمن هؤلاء أسقف اكسفورد وهو من كبار العلماء ، الذي قال في
خطبة ألقاها أمام مجمع تقدم العلوم البريطاني :
(إن دارون ارتكب أبشع جريمة حينما حاول أن يحدد مجد الله في
فعل الخلق)

وتحدث لوتاردت أستاذ اللاهوت في لايبزيغ في المانيا فقال :
(إن فكرة النشوء تناقض الحكمة الإلهية مناقضة تامة ، وإن فكرة
الخلق ملك للدين لا للعلم الطبيعي ، وإن الهيكل الأعلى للدين إنما
يقوم على مذهب الخلق).

٥١..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

وقال الدكتور (هدج) من جامعة (برنستون) : انه يجب منع نشر أمثال هذه المذاهب التي تنافي الكتب المقدسة) .

وقال الدكتور دوفيلد من الجامعة نفسها :

(إن التوفيق بين مذهب النشوء وبين التنزيل غير ممكن ، وان من يؤمن به - ولو ثبت علمياً - يكون كافراً بالله).

وتحدث الدكتور (لي) فقال : (انه لا يمكن بأي أسلوب من أساليب التفسير أن نؤول لغة الكتاب المقدس بتوسع يحتمل القول بهذا المذهب. ووصف الدكتور (لي) دارون وأتباعه : بأنهم مبشرو البلاليح القدرة.

وفي فرنسا قال المونسنور (سه غور) وهو يذكر نظرية دارون :
إنها من المذاهب المرذولة التي لا تؤيدها إلا أحط النزعات ،
وأسفل المشاعر فأبوها الكفر وأمها القذارة وجاء في مجلة جامعة دبلن.

(إن دارون يبحث كيف يخلع الله عن عرشه؟)

ونقلوا كثيراً من أمثال هذه الكلمات عن شخصيات دينية وعلمية
أخرى تعبر عن موقف واحد ، ولهجة واحدة^(١).

ومن البين - لدى الباحثين - : ان الأساس الذي كان وراء موقف هؤلاء العلماء وغيرهم في مهاجمة (نظرية التطور) لدارون ومن قبله لم يكن شيئاً وراء تدينهم بالكتاب المقدس (اسفار ، التوراة ، والاناجيل)

(١) نديم الجسر : قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن من ص (١٩٣ - ١٩٤).

المتداولة دون تأويل للنصوص، وتصورهم بناءً على ذلك أن نظرية التطور أو النشوء والارتقاء تناقض الخلق الإلهي وما يظهر عليهم في ذلك من الخواء الفلسفي والمحدودية العلمية.

فان من المعروف : ان النظرية وغيرها أيضاً ومن ذلك الثابت التاريخي والمقطوع به فلسفياً وعلمياً، تخالف الكتاب المقدس في جوانب هامة في تاريخ وكيفية التكوين البشري في حدوثه لأول مرة في جوانب منها :

أولاً - أن الكتاب المقدس بعهديه (القديم والجديد) يقرر أن خلق الكون والإنسان تم في أسبوع واحد من ^(١) أيام ذات صباح ومساء وان الله استراح في اليوم السابع (تعالى عما يصفون) ويحدد تاريخ الوجود البشري على الأرض بما لا يقل عن ستة آلاف سنة :

ذلك انه: ذكر للأجيال ما بين آدم -عليه السلام- وهو أول مخلوق بشري على الأرض -كما يرى- وبين إبراهيم -عليه السلام- الذي عاش كما يرى المؤرخون سنة ١٨٥٠ ق.م (١٩) تسعة عشر اسماً بحسب سفر التكوين ^(٢). وعشرين اسماً بحسب انجيل لوقا ^(٣) فقط ، ولدى حساب جدول أعمار أنسال آدم في التوراة كما في سفر التكوين ^(٤) نجد

(١) موريس بوكاي : ما أصل الإنسان ص: ١٧١ .

(٢) الكتاب المقدس (التوراة) سفر التكوين : ف ٤ و ٥ و ١١١ .

(٣) الكتاب المقدس (الأنجيل) انجيل لوقا : ف ٣ ص ١٠١ .

(٤) الكتاب المقدس (التوراة) ف ٥ و ٩ و ١١ .

٥٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
انه قد مر من آدم إلى إبراهيم (١٩) تسعة عشر قرناً فقط.

وساق انجيل لوقا في نسب السيد المسيح إلى آدم ﷺ (٧٧) سبعة
وسبعين اسماً فقط^(١).

قال الدكتور موريس بوكاي : (إننا نستنتج أن الإحداثيات التي
يعطيها سفر التكوين تحدد ظهور الإنسان على الأرض بحوالي ٣٨
ثمانى وثلاثين قرناً قبل المسيح واستلهم لوقا هذه المعطيات ليحرر
انجيله)^(٢)

ثانياً – إن الخلق ومنه الإنسان ، تم بفعل مباشر من الله تعالى، بل
وبمعاناة حتى انه استراح في اليوم السابع، وليس هناك من أسباب طولية
تحمل الإرادة الإلهية ولا مراحل أدى بعضها إلى بعض .

ثالثاً – إن حواء كانت قد خلقت لغاية ثانوية ولحاجة آدم فقط
لامستقلة لحاجة التكوين البشري النوعي ، ومما جاء في التوراة (فان آدم
لم يوجد له عون بازائه فاوقع الرب الإله سباتاً على آدم فاستل إحدى
أضلاعه وسد مكانها بلحم وبنى الإله الضلع التي أخذها من آدم
امرأة)^(٣).

وتعلل التوراة الميل الجنسي والعاطفي نحو المرأة بذلك لا بالتكوين

(١) الكتاب المقدس (الأنجيل) انجيل لوقا : ف ٣ ص ١٠١ .

(٢) د. موريس بوكاي : القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ص ١١٢ . د. موريس
بوكاي : ما اصل الإنسان ؟ اجابات العلم والكتب المقدسة ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٣) سفر التكوين : فصل ٣ فقرة ٢١ ص ١١ .

الفطري والغريزي في صميم الخلقة لتحقيق الغرض النوعي بالإنسال.
جاء في التوراة بعد الفقرة السابقة (ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ، فيصيران جسداً واحداً) ^(١).

رابعاً - ما رآه بعضهم من ان القول: بالتطور والمراحل ورفض القول بالخلق الدفعي وبالارادة المباشرة؛ انتقاص من قدرة الله بل خلع له عن عرشه.

وسيبيّن لنا النقاش العلمي والفلسفي والديني أن أياً من هذه الآراء لا يملك قيمة يستحق معها الوقوف عنده أو الاصغاء إليه ، ومن ذلك :
أولاً: ما ذكرناه من هدم مرتكزها من الأساس وذلك أن:

الكتاب المقدس مشكوك الأصل ومحرّف:

فإن الدراسات والبحوث التي جرت من قبل العلماء الغربيين في القرنين السابقين تنفي نسبة الكتاب المقدس (القديم) و (الجديد) إلى الوحي المنزل على الرسولين موسى وعيسى ، لتأخر تدوينهما كثيراً عن عصرهما ، وتسرب بعض الافكار والتصورات الغريبة إليهما.

فقد كانت التوراة - كما يثبت البحث العلمي - تراثاً شفويّاً لم يكتب إلا بعد رجوع اليهود من سبي بابل سنة ٥٧٠ ق.م ، ولذلك دخلتها لدى التدوين العقائد والآراء التي تلقاها اليهود خلال القرون السابقة كالأساطير المصرية والبابلية واليونانية ... ويكفي ان نراها

(١) ن.م . فقرة : ٢٥ .

٥٥..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

تعطي لله -سبحانه- صورة بشرية شكلاً ومعنى ، وان تنسب للرسول
الزنا وشرب الخمر والكذب والخداع، لنقطع بما فيها من تحريف^(١).

قال العالم اليهودي سيقلر : (ان التوراة الحالية لا تمثل توراة موسى
في أية ناحية . وحتى الوصايا العشر التي يكاد يجمع العلماء أنها الشيء
الوحيد المتبقي من التوراة الأصلية لم تكن في شكلها ، ومضمونها
الحاليين تمثل التوراة التي أتى بها موسى)^(٢).

ويؤكد العلامة لودز ذلك : (لأن ما ورد من روايات هذه الأسفار
- كما يقول - قد تعرض أكثر من بقية اسفار التوراة الأخرى إلى
تكرار، وإعادة تصنيف أو توسيع مستمرين على مر العصور).

وقدم الأب ديفو مدير مدرسة الكتاب في مقدمته لترجمة سفر
التكوين عام ١٩٦٢م حججاً قيمة تناقض نسبة الاسفار الخمسة للنبي
موسى ﷺ ، خلافاً لما أصر عليه اليهود والنصارى ، كل هذه القرون .

ونقل عن كالتشاد من القرن (٦) السادس القول باستحالة أن
يكون موسى قد كتب بنفسه كيف مات كما في سفر التثنية الاصحاح
(٣٤) الرابع والثلاثون الفقرات من (٥ - ١٢)^(٣).

ومما سجله الفيلسوف سبينوزا من ملاحظات على الأسفار
الخمسة:

(١) إقرأ التوراة : سفر التكوين

(٢) د. احمد سوسه : مفصل تاريخ العرب واليهود ص ٣٤٤.

(٣) د. موريس بوكاي : القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم ص ٢٧ - ٢٩.

انها كتبت بضمير الغائب وليس بضمير المتكلم .
مقارنة موت موسى ولحده والحزن عليه بموت الأنبياء التالين له .
تسمية بعض الأماكن بأسماء مختلفة عما كانت عليه في عصر
موسى .

استمرارية الرواية في الزمان حتى بعد موت موسى^(١) .
وقال الدكتور مورتكات : (لا يمكن الاعتماد من الناحية العلمية
على أساطير التوراة فقد برهنت الأبحاث الأثرية على عدم صحة أكثر
تلك الاساطير التي وردت فيها كما وتوجد ابحاث تبرهن على عكس
هذه الأساطير^(٢) .

وارجع العلماء بعض محتويات الأسفار إلى مصادرها السابقة فقرة
فقرة مما ينفي صلتها بالوحي الإلهي^(٣) .

أما العهد الجديد (الأنجيل الأربعة) وهي المتبقية من أكثر من
(١٠٠) مائة أنجيل ، شطبت بقرار من مجمع نيقية الذي عقد عام ٣٢٥م
انتصاراً للقائلين بابنية المسيح وإلوهيته ضد الموحدين (الاريوسيين) تأثراً
بالوثنية الرومانية وبدعم من قسطنطين-امبراطور الرومان- فإن المقطوع
به : أنها ليست (الإنجيل) المنزل على المسيح ﷺ وإلا لما كانت أربعة ،

(١) سينوزا (اللاهوت والسياسة) المقدمة، بقلم د.حسن حنفي، ص ٢٣

(٢) أحمد سوسة المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) أحمد سوسة المصدر السابق نفس الصفحة.

٥٧..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
أو مائة ، ولما اختلفت إلى حد التناقض.

فهي لا تعدو أن تكون تسجيلاً لسيرة المسيح ﷺ وتعاليمه ،
وأقواله - كما تلقاها مؤلفوها رواية - لأنهم لم يكونوا من تلاميذه في
الأصل وقد دونوها بحسب خلفياتهم العقائدية ، يقول ول ديورانت :
(إن الكتاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادي لا ينقلون
قط شيئاً عن العهد الجديد ، بل كل ما ينقلونه مأخوذ من العهد القديم
ولسنا نجد إشارة لانجيل مسيحي قبل عام ١٥٠ م إلا في كتابات بيباس
الذي كتب عام ١٣٥ م :

(ان مرقس الف انجيله من ذكريات نقلها إليه بطرس ، وأعاد متى
كتابه الكلمات بالعبرية ٠٠

وقال : (ترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل إلى القرن الثالث
الميلادي أما النسخ الاصلية فيبدو (لاحظ ذلك) أنها كتبت بين عامي
(٦٠ - ١٢٠) م ، ثم تعرضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان
لاخطاء في النقل ولعلها تعرضت أيضا لتحريف مقصود يراد به التوفيق
بينها وبين الطائفة التي ينتمي إليها الناسخ)^(١).

ولاحظ الباحثون اختلاف انجيل يوحنا في خلفيته ورؤيته العقائدية
عن الأناجيل الثلاثة الأخرى وبه تبدو النظرة الغنوصية المغالية التي
تقول بابنية المسيح لله وبإلهيته.

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة م (١١ - ١٢) ج ١١ ص ٢٠٧.

وقد كتب هذا الإنجيل بعد مائة عام مما استبعدوا معه انتسابه ليوحنا تلميذ المسيح.

وقدم الدكتور بوكاي دراسات واثباتات هامة تثبت حقيقة : أن الأناجيل المتداولة لا تنسب إلى المسيح ولا إلى تلاميذه، وان الإنجيل الموحى إلى عيسى عليه السلام ضاع مع استئصال أصحابه واتباعهم من قبل اليهود في الحرب السبعينية ، وما بعدها ولم تبرز الفئات المسيحية التي كانت متشظية ومختلفة إلا بعد تنصر قسطنطين الذي عقد بإشارته مؤتمر نيقية ^(١).

وبناءً على ما اشرنا إليه ، وعلى النقد المضموني الذي اثبتته الدراسات العلمية ^(٢) ، تتبين لنا حقيقة الكتاب المقدس (بعهديه) وانه لا

(١) اقرأ د: مورنس بوكاي : القرآن الكريم والتوراة و الإنجيل والعلم ص ٧٥ - ٩٣ .
(٢) قصة الحضارة م(١١-١٢) لول ديورانت ص ٢٧٥-٢٧٦ : " إن المسيحية لم تقض على الوثنية بل تبنتها فانتقلت الطقوس اليونانية الخفية إلى طقوس القداس الخفية الرهيبة وجاءت من مصر آراء الثالوث المقدس ومنها جاءت عبادة أم الطفل ومن مصر استمدت الأديرة نشأتها وصورتها ومن فريجيا جاءت عبادة الأم العظمى ومن سوريا أخذت تمثيلية بعث أوتيس، وربما كانت تراقيا هي التي بعثت للمسيحية بطقوس ديونيش، وموت الإله ونجاته، ومن بلاد الفرس جاءت عقيدة رجوع المسيح وحكمه الأرض ألف عام، ولقد بلغ التشابه بين المشراسية والقربان المقدس حداً جعل الآباء المسيحيين يتهمون إبليس بأنه هو الذي ابتدعه، ومن عهد الإنجيل الرابع يصبح المسيح نوراً يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه".

وجاء في كتاب العقائد والأديان للدكتور محمد جابر عبد العال الجيني ص ٢٥٠ أنه في سنة

٥٩..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
مجال علمياً وفلسفياً ، ودينياً ، لاعتباره وحياً إلهياً ، يمثل الصيغة المنزلة
على الرسولين (موسى وعيسى عليهما السلام) ، ولذلك لا يصح الاستناد إليه
في رفض هذه النظرية ، أو غيرها في هذه الجوانب، أو غيرها...

ثانياً- وفي ما يخص الجانب الأول : ان النظرية لم تنفرد بمخالفة
(الكتاب المقدس) في تاريخ خلق الكون ، وفي ظهور أول كائن بشري
على وجه الأرض ، بل ذلك - كما سيأتي - ما تؤمن به بعض الأديان
الأخرى ومنها الإسلام والهندوسية وهو ما أثبتته علمياً بالنسبة للعالم
قياس أطياف النجوم ، الذي يكشف لهم عمرها ، وما أثبتته - بالنسبة
للأرض وللإنسان - علم الأحافير ، ومما غاب عن هؤلاء العلماء : أن
الطبقات الجيولوجية في الأرض سجل أمين لعمر الأرض ، والكائنات
التي ظهرت عليها في الحقب المختلفة ، وبقدر العلماء عمر العالم بـ
(١٥) بليون سنة ^(١) ، ويقدرون عمر الأرض بـ (٤, ٥) بليون سنة ^(٢) ،
ويرون : ان الظهور البشري الأول على الأرض كان قبل خمسة

١٩٢١ اجتمع عدد كبير من رجال الدين المسيحي في أكسفورد، ورأس الاجتماع الدكتور
راشدل أسقف كارليل الذي أذهل خطابه العالم المسيحي، ذلك لأنه ذكر أن قراءته للكتاب
المقدس لاتجعله يعتقد أن عيسى إله، وإنه إنسان بكل ما يحتمل هذا اللفظ من معان.
وافتح المناقشة في هذا المؤتمر ه.د.أ. ميجر فقال: يجب أن يكون مفهوماً بوضوح أن
عيسى لم يدع أنه ابن الله بالمعنى الميتافيزيقي كما تذهب إلى ذلك عقيدة مجمع
نيقية.... الخ

(١) القوة العظمى : ص ٢٣ ، بول ديفز.

(٢) د. موريس بوكاي : ما أصل الإنسان ص ١٧١ .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٦٠
وعشرين مليون سنة ، ويرى بعضهم أنه يرجع إلى عشرة ملايين سنة ،
وذهب آخرون ومنهم وليام داي وغيره أنه يرجع إلى ما قبل أربعة أو
خمس ملايين سنة ^(١) ، لكن الإنسان الذي نمثل نحن نموذج له
العلماء في ما ذكر بعضهم في التنقيبات الجيولوجية على أي أثر أقدم من
نصف مليون أو ستمائة ألف سنة مضت فقط ^(٢) .

ويذكر وليام داي : ان التطور البايولوجي للإنسان بلغ هضبته قبل
حوالي مائة ألف سنة (١٠٠,٠٠٠) وبقي هناك. ^(٣) .

ويذكر العلماء : أنه إلى ما قبل ثلاثين أو أربعين الف سنة كانت
أجناس من الناس غيرنا تعيش أواخر عهدها آنذاك وانقرضت وزالت
تماماً .

وانقراض ومجىء الكائنات الحيوانية والأدمية على التعاقب عبر
ملايين السنين هو ما يقوله بعض العلماء اليوم كما سيأتي ، وما تقول
به بعض الديانات كالهندوسية والإسلام.

ففي منوسمرتي (كتاب الهندوس المقدس) : إن براهما يخلق
ويهلك بيقظة ونوم ، فإذا أردنا أن نعرف عمر العالم في كل دورة من
دوراته بسني دهرنا وجب علينا ان نضرب زمن الإلهة (الملائكة) ، وهو
(١٢,٠٠٠) سنة الهية بـ(١٠٠٠) سنة الهية = ١٢,٠٠٠,٠٠٠ ثم

(١) يعقوب يوسف ابونا (توطئة) : نشأة الحياة على الأرض ، د. وليام داي ص ٢١ .

(٢) وليام داي : نشأة الحياة على الأرض (توطئة ليعقوب يوسف أبونا) ص ٢١ .

(٣) وليام داي : نشأة الحياة على الأرض ص ٥٠٢ .

٦١..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
نضرب هذا العدد بـ ٣٦٥ وهو أيام سنتنا الشمسية فيكون المجموع :
٠٠٠, ٠٠٠, ٣٨٠, ٤ أربعة ملايين وثلثمائة وثمانين مليون
سنة^(١).

وعلق الدكتور أحمد زكي قائلاً : انه قريب من التقدير العلمي^(٢)
ولكن ذلك بالنسبة للأرض وحدها كما هو معلوم.

رأي الإسلام في القرآن والسنة:

أما القرآن الكريم فلم يحدد البداية التاريخية زمنياً وذلك غاية في
الحكمة لاستحالة استيعابه وعدم إمكانية الوصول إلى يقين فيه وفي
التقدير الحقيقي الدقيق وحتى الآن ، وهو متفق مع اسلوبه في القضايا
المماثلة من عدم العناية بالتفاصيل التي هي مجال الخلاف لكن الآيات
أشارت أن أبانا آدم جعل خليفة في الأرض ... وهذا يعني انه يأخذ
مكان خلق سابق كما في الآية (٣٠) من البقرة ... وتدل على ذلك
رواية آتية ، وتشير اليه الآية (١٣٣) من الأنعام التي تقول : (إِنْ يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ
آخَرِينَ).

كما قد يفهم منها الخلق المتعاقب ، وكذلك الآية ١٨٤ من الشعراء
التي تقول : (وَأَتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِيلَةَ الْأُولَى) وطلب القرآن

(١) منوسمترى : تعريب احسان حقي ص ٣٢ .

(٢) أحمد أمين : الموسوعة العلمية .

الكريم من الناس أن يتعرفوا على تاريخ الخلق بالسير في الأرض فقالت الآية الكريمة من العنكبوت : (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخُلُقَ) ^(١) وهو سبق علمي باهر فقد ثبت أن سجل التكوين ما اتصل بعمر الأرض والكائنات النباتية والحيوانية فيها مسجل بدقة في الطبقات الجيولوجية وهو ما يسمى بعلم الاحاث ^(٢).

ولم تحدد الروايات الواردة عن أهل البيت -عليهم السلام- كذلك تاريخاً زمنياً محدداً إلا أنها ذكرت انه قد سبق آدم الذي ترجع إليه البشرية في عالم اليوم مئات الألوف من الأدميين وهي التي سمحت لنا أن نفهم الآيات السابقة على أنها إشارة لهذه الجهة :

فقد روى هشام بن سالم (رض): أن الإمام الصادق -عليه السلام- قال :

(وما علم الملائكة بقولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ ، لولا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء.

وروى جابر بن يزيد (رض) عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: في إجابة لسؤال عما إذا كان ابونا آدم عليه السلام أول مخلوق بشري: انه قال : لقد خلق الله ألف ألف عالم، وألف ألف آدم ، وانتم في آخر تلك العوالم وأولئك الأدميين) ^(٣).

(١) العنكبوت : الآية ٢٠ .

(٢) د.محمد جال الفندي :لماذا أنا مؤمن، ص ١٥٣ ط ١

(٣) الصدوق التوحيد ص ٢٧٧ .

٦٣..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

ورروا : ان الإمام الصادق عليه السلام حين سأله أحدهم ، هل كان قبل آدم سواه ، فقال: نعم.. فلم يزل يعد حتى عدَّ واحداً وعشرين غير آدم وذريته ، وذكر المؤلف وهو فيلسوف و داعي إسماعيلي : ان وقوف الإمام عند الواحد والعشرين كان لمناسبة ما أو اكتفاءً. أما لو عنى الأوامد من أصل ابتداء وجود العالم ، لكان ذلك أكثر من ان يحصى ^(١).

ورروا: أن الإمام علي بن الحسين عليه السلام اجاب أم النداء وقد سألت أن يخبرها كم قد قضى من الدنيا ؟ وكم قد بقى منها ؟ فقال لها : أما ما مضى فاخبرك ، واما ما بقى فلا سبيل إليه ... قد مضى أربعمئة الف كور في كل كور اربعمئة الف دور فهذا شيء لا يحصيه إلا الله ^(٢).

أما ما يخص الجانب الثاني : فان ما يراه الكتاب المقدس من ان الخلق ، ومن ذلك خلق الإنسان كان مستقلاً بفعل الهي مباشر ، بمعنى أنه كان دون اسباب طولية تحمل الإرادة الالهية وتقوم بالفعل الالهي ، ولم يكن الخلق على مراحل ولم يشتق بعضه من بعض عبر ازمان طويلة ... أمر مرفوض عقلاً وعلماً ووجداناً ، لأن الخلق لا يتصور إلا بتنزيل الصفات من العالم الالهي إلى العالم الطبيعي المادي وإن لم يكن هناك انفصال واستقلال إلا بالرتبة والحد والقدر والتركيب أو هندسة

(١) الحقائق العالية (ضمن أربعة كتب اسماعيلية ص ٩ (تحقيق شرطمان).

(٢) نفس المصدر والموضع • (ولغة هذا الحديث لغة اسماعيلية (كالكور والدور) فهي

مصطلحات خاصة بهم وهي كذلك متاخرة لا تعرف في عصر الإمام السجاد عليه السلام .

الصفات والحاجة إلى الزمان والمكان كما ورد عنهم عليهم السلام ^(١).

ان تنزل العوالم وتعددتها - عبر مراحل - ضرورة تفرضها طبيعية المخلوق وحاجته ، فالكائن - كما قالوا - لا يكون إلا بالأكوان ...
واتفق الفلاسفة على ان الخلق تسلسل من العالم الإلهي نزولاً من عالم العقول فعالم النفوس - بحسب رتبها طولية وعرضية إلى العالم المادي الطبيعي ^(٢) وطوت الكتب المنزلة ذلك كله بمحدثها عن العرش والكرسي والسموات والأرضين ...

وتتحدث الفيزياء الكونية - كما في نظرية الانفجار الكبير - عن الكون منذ ولادته - منذ خمسة عشر بليون سنة - فتذكر انه مر بمراحل كذلك ، فهناك مرحلة ما قبل تكون المادة ثم بعد ذلك تكون مكونات الذرة فالذرات الخفيفة ثم الذرات الثقيلة فعالم الأجرام ... الخ ^(٣).

ولا مجال للقول : بان هذه الصورة والاسلوب في الخلق أقل دلالة على القدرة الالهية من الخلق المباشر والدفعي ، لأنها تجري جميعاً طبقاً لما قدره الله سبحانه - من الأسباب والقوانين الكونية والطبيعية ، وإذا كان ذلك كله قائماً به ، وممثلاً لارادته ، فانه لا يشكل بينه ، وبين خلقه - في الحقيقة - فاصلاً ولا يغيب بها عن خلقه، ولا تكون ثانياً معه بحكم قيامها به بداهة .

(١) المجلسي : البحار م ٥ ص: ١٢٢ .

(٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة .

(٣) بول ديفز : القوة العظمى ص ٢٢ - ٢٨ .

٦٥..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

وبالإضافة إلى ذلك ، فان في الخلق - بالاسباب وعبر المراحل -
حكمة اتاحت للإنسان دراسة العالم بما يحكمه من قوانين وأنظمة دقيقة
وما يسوده من ترابط ، وتداعم وضبط ، وانسجام ، وما يتجلى فيه من
مسار غائي لا يتخلف بحال في جوانبه المختلفة من أعظم جرم إلى أصغر
جزء في العالم المادي حياً وغير حي في ظواهره المستقرة والمتغيرة.

وبذلك استطاع العلماء أن ينفوا القول بالصدفة - بحساب
الاحتمالات - رياضياً وبصورة قاطعة ...

وانشأ الإنسان استناداً إلى دراسة - هذه الأسباب وهذه القوانين -
في جوانب الكون المختلفة فروعاً عديدة من المعرفة الكونية ، كيميائية
وفيزيائية ، وبايولوجية ، وفلكية وغيرها ... مما لا مجال له في الخلق
الدفعي إلا في النور الأول الذي قوم به عرشه ، لا من حيث عجز القادر
-تعالى- بل من حيث عجز المقدور ، أي عدم تقبل بعض المخلوقات
بطبيعتها ان توجد الا ضمن ظروف ومراحل طولية وأسباب متعددة.

ولا يوجد في القرآن ما ينص على ان الخلق قد كون بعضه مستقلاً
عن البعض الآخر ، ولا ما يدل انه كان دفعياً يخلق في نفس الآن بل
العكس هو الصحيح لا بمعنى اشتقاق النوع البشري من أنواع حيوانية
أخرى وجدت على الأرض ، فهذا ما لا مجال لا ثباته علمياً ودينياً حتى
الآن ، كما سيأتي - وإن كان هو ما يراه بعض الفلاسفة والعلماء
المسلمون- ، بل بمعنى ان خلق النوع الإنساني لأول مرة من الأرض
(الماء والطين والحما المسنون) أخذ مساراً متطوراً ضمن الزمان ، والمكان
، وتفاعل الأسباب في المراحل المختلفة من حال إلى آخر ومن صورة إلى

أخرى. كما هي سنن الله المشاهدة في التكوين بدءاً من خلق الكون لأول مرة ، وانتهاءً بالنبات والحيوان ... بما يشبه أطوار تكوين الجنين داخل الرحم ، وقد رأى بعض الفلاسفة أن هذه الأطوار تشير إلى تلك الأحوال ، والمراحل التي حدثت للإنسان لدى خلقه من الأرض وعليها لأول مرة ...

أي إن أطوار الجنين الجسمية ، وتبديل نفسه من نفس نباتية إلى نفس حيوانية إلى نفس إنسانية صور تؤرخ إلى ما مر به في خلقه من الأرض لأول مرة^(١). ولا بد أن تكون هذه الحالات في الأرض مختلفة من حيث صورتها وتعدد أطوارها. ومن حيث المدى الزمني عما هي عليه داخل الرحم ، وربما بما لا يقبل القياس ، وفي الكتاب العزيز آيات صريحة في وجود هذه الأطوار في مسار الخلق الإنساني.

لكن قد يبدو في خطاب الوحي الإلهي في الكتاب المنزل غموض على البعض في الإشارة إلى الخلق المتطور عبر المراحل، لأمر منها:

أولاً: إن الأشياء عند الله سبحانه حاضرة في أزمانها الثلاث على حد واحد لتساويها من حيث النسبة إليه فيبدو الحديث عنها حتى مع كونها معطوفة بعضها على بعض بـ(ثم) -وهي للتراخي- كما لو أنها متصلة زماناً... .

ثانياً: إن الأسباب في ما بين الأشياء وبينه تعالى- في الحلقات

(١) رسائل اخوان الصفا: م ٢ ص ١٦٨ وما بعدها، وابن مسكويه: تهذيب الأخلاق

٦٧..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
الطولية - معدومة بالنسبة إليه، فتطوى في كلامه سبحانه، لقيامها به
أصلاً فلا تصبح عدأً مضافاً إليه، ولا تقارنه في شيء، فما ينسب إليها -
من حيث الاعتبار والمباشرة- ينسب إليه على الحقيقة ... مما يجعل الفرز
بين الدفعي وغيره - لدى من لا يعرف ذلك - صعباً وكذلك معرفة
المديات الزمنية في المراحل المختلفة والدور الذي تلعبه الأسباب
المخلوقة في كل منها وأمثال ذلك... لكن القرآن الكريم يسجل بوضوح
أن في بداية الخلق المادي الجسمي للإنسان أطواراً ومراحل لا نستطيع
تقدير المديات الزمنية بينها ٠٠٠

قال تعالى: ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾^(١).

وقال سبحانه: ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾^(٢).

وقال جل شأنه: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ
مسنون﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾^(٤).

وقال سبحانه: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾^(٥).

وفصل في تكوين الإنسان بين مرحلة الخلق في الأرض ومنها وبين

(١) سورة نوح: الآية ١٤ .

(٢) سورة النور: الآية ٤٥ .

(٣) سورة الحجر: الآية ٢٦ .

(٤) سورة نوح: الآية ١٧ .

(٥) سورة الأعراف: الآية ١١ .

التكوين في الرحم بالتزاوج ، وميز بينهما بشم إشارة للمدى الزمني .
قال تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾^(١) .

وقال جل شأنه: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾^(٢) .

﴿فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾^(٣) .

ومن الواضح في الآيات الكريمة أن بداية الخلق الإنساني في المرحلة الأولى التي كانت في (الأرض) عبر سلالة من طين، ولم يفصل سبحانه القول فيها، وذلك في غاية الحكمة لمداها البالغ الطول من الناحية الزمنية، ولعدم القدرة على استحضارها.

أما في المرحلة الثانية فقد خلقه من (نطفة) في الرحم (القرار المكين) وذكر سبحانه ما يمر بها من أطوار بصورة دقيقة تتطابق مع ما كشفه علم الأجنة.

ولا مجال لمن ينظر في هذه الآيات بمجموعها متأملاً ما أشارت إليه

(١) سورة السجدة: الآية ٧-٨ .

(٢) سورة المؤمنون: الايات ١٢ و ١٤ .

(٣) سورة ص: الآية ٧٢ .

٦٩..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
كل آية على حدة وفي ضوء ما قدمناه أن ينفي المراحل والأسباب
والظروف المادية المباشرة في أزمان التكوين المتطورة المختلفة.

ولذلك فإنه لو ثبت علمياً - بصورة قاطعة : أن التطور قد جرى
بالصورة التي رسمها دارون أو قريباً من ذلك، وان التكيف قد حصل
بالآليات التي ذكرها - وهذا ما لم يحصل حتى الآن - فإننا لانجد فيها
مناقضة للإيمان بالله ، ولا لما نزل من تأشيرات القرآن.

خلق حواء

وفي الجانب الثالث : فإن ما ذكرته التوراة من أن طينة حواء التي
خلقت منها، أخذت من ضلع آدم وتعليلها الميل العاطفي والجنسي بين
الذكر والانثى بذلك ، أي بالصلة الأصلية العضوية بينهما، أمر لا يمت
إلى الحقيقة ولا شك أنه من الأساطير التي ورثها اليهود من الأمم
الأخرى السابقة ككثير غيرها ، وقد اختلطت بتراثهم المنقول شفويًا، ثم
ضمنوها التوراة لدى تدوينها المتأخر كثيراً - عدة قرون - عن عصر
موسى عليه السلام .

ولاشك : أن العلم والفلسفة والدين لا يعرف ذلك ، ولو كان قد
انتقص من آدم ضلع من جانبه الأيسر - كما ورد - لورث ذلك ذريته
طبقاً لقوانين الوراثة ، و لوجدناه قائماً ماثلاً فيهم موروثاً حتى الآن ،
وهو - وهذا غريب - ما ادعته بعض الروايات الإسرائيلية لأهل
البيت عليهم السلام .

لكن علم التشريح المعاصر يثبت بالحس : أن للإنسان من كل

جانب إثني عشر ضلعاً من الأضلاع المتمفصلة ، والطافية السفلى. والتي قد تكون اثنين من كل جهة ، وأحياناً ثلاثة^(١).

والسؤال بعد ذلك : لماذا تخلق زوجة آدم. من جزء منه؟ ، لماذا تكون استنساخاً منه ، ولا تخلق من نفس طبيعة الطينة التي خلق منها آدم؟ ... وان الغاية والوظيفة التي أرادها الخالق سبحانه، هي التي حددت صورة تكوينها ، وبنائها الفسلجي والنفسي ، وكيفت أحاسيسها وعواطفها.... كما حددت صورة الرجل ومشاعره وميوله إليها أيضاً.

وان خلقها لم يكن لصالح آدم الوحيد آنذاك كما ورد في التوراة ، وان تحقق ذلك تبعاً ، بل لصالح التكوين في الأرض واستمرار النوع الإنساني عليها بهذه الصورة في المرحلة الثانية التي يصبح فيها التكوين بالتزاوج، ولا يوجد في القرآن الكريم ما يشير إلى خلق حواء من ضلع آدم مطلقاً ...

أما في السنة الشريفة ، فلم يرد ذلك المضمون إلا في أحاديث أسقطها العلماء المحدثون كالصدوق والمجلسي من الاعتبار ، وحملها الثاني على التقية موافقة للعامة فهو المشهور - كما قال - بين مؤرخيهم ومحدثيهم ومفسريهم مندسة في تراثهم الحديثي من الإسرائيليات ، أو ان المقصود بها مجازاً ، أنها من فضله طينة آدم وهو أحد الوجوه التي ذكرها الرازي

(١) كاننكهام : الموجز في التشريح (٨ - ١٢) ج ٢ ط ١٤ / ١٩٨١ - تعريب جامعة

٧١..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

والأخبار الصحيحة استنكرت الروايات الواردة بالمعنى التوراتي.

فعن عمرو بن أبي مقدام عن أبيه قال : سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام : من أي شيء خلق الله حواء ؟.

فقال عليه السلام : أي شيء يقولون . هذا الخلق ؟ .

قلت : يقولون : إن الله خلقها من ضلع من أضلاع آدم.

فقال عليه السلام : كذبوا ، أكان الله يعجزه أن يخلقها من غير ضلعه وذكر

عليه السلام : أنها خلقت من فضلة فضلت من الطينة التي خلق منها آدم عليه السلام
(١)

أي انها خلق مستقل عن آدم لا يجمعهما إلا وحدة الأصل والنوع.

وروى الصدوق رحمه الله بسند صحيح عن زرارة بن اعين انه قال:

سئل ابو عبد الله عليه السلام عن خلق حواء ، أو قيل له : ان اناساً عندنا يقولون : ان الله عز وجل خلق حواء من ضلع آدم الايسر الأقصى.

فقال عليه السلام : سبحان الله وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ، أيقول من

يقول هذا ... ان الله تبارك وتعالى لم يكن له من القدرة ما يخلق لآدم

زوجة من غير ضلعه !! ويجعل للمتكلم من أهل التشنيع سبيلاً إلى

الكلام أن يقول : ان آدم كان ينكح بعضه بعضاً إذا كانت من ضلعه ...

(١) الصدوق : من لا يحضره الفقيه ، ج ٣ ص ٢٣٥ ، والطبا طبائي ، الميزان م ٤

ما هؤلاء ، حكم الله بيننا وبينهم؟^(١).

وبمناقشة واسقاط الجوانب التي ذكرها علماء أهل الكتاب ، استناداً للعهدين القديم والجديد لرفض نظرية التطور ، وبيان ان الإسلام بمصدره الكتاب والسنة ، لا يرى شيئاً منها ، وانه يرى أن المسار التطوري إجمالاً - دون التفاصيل التي تذكرها نظرية دارون ، لعدم ثبوتها علمياً حتى الآن ... - حقيقة قائمة في صميم التكوين وما تزال. وقد يأتي تساؤل عن:

الحياة السماوية لآدم

ربما أشكل بعضهم بالحياة السماوية أو البداية التي كانت لآدم في الجنة متصوراً أنها تنافي نشوء جسمه المادي ، وتطوره من الأرض وفيها ... والحقيقة أن لامنافاة في ذلك ، فتلك المرحلة كانت في ما قبل هبوطه إلى الأرض وولادته فيها... وكان جسمه ما قبل الهبوط سماوياً مثالياً كالذي يصير إليه الإنسان بعد الموت وعندما بلغ تطور جسمه المادي وصورته في مسار خلقه من الداخل والخارج الكمال ... وقدر الله له باختياره أن يأكل من الشجرة حدث الأثر الوضعي الذي عرف به قبل ذلك... فأهبط إلى الأرض واتحد بجسمه شأن النائم حين يستيقظ ، والميت حين يبعث.

(خلق الله الأرواح قبل الأجساد)، قال بها الفلاسفة اليونانيون

(١) الصدوق : المصدر السابق ، نفس الصفحة .

٧٣..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
ومنهم أفلاطون في بيانه لنظرية الاستذكار والفلاسفة المسلمون
وأشهرهم ابن سينا في قصيدته في النفس:

هبطت إليك من المحل الأرفع... وبذلك جاءت الروايات...^(١)

الذين لم يروا في النظرية نقيضاً للإيمان

قد سبق ان ذكرنا في بداية البحث بعض الفلاسفة المسلمين الذين تحدثوا عن التطور بالمعنى العام في خلق الصورة المادية - طبقاً لما فرضته القوانين الطبيعية في الأرض - ولم يروا في ذلك ما يناقض الإيمان أو الوحي المنزل في صورة الخلق لما عرفوه مما سبق أن ذكرناه من أن الأسباب المنزلة القائمة بالله وجوداً، لا تعتبر مقارنة له، ولأن الإسلام- وهذا بالنسبة للمسلمين- لا يتقاطع ومفهوم التطور العام. ومن هؤلاء الفيلسوف أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل، أحد الأئمة المستورين عند الإسماعيلية والمتوفي سنة ٢١٢هـ، الذي ذكر: (أن أول المرتبة النباتية متصل بآخر المرتبة المعدنية، وآخر المرتبة المعدنية متصل بالتراب، وآخر المرتبة النباتية متصل بأول المرتبة الحيوانية)^(٢) وفلاسفة إخوان الصفا حيث جاء في رسائلهم: (أن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات، وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان)^(٣)

(١) الكليني، أصول الكافي ج ١ ص ٤٣٦ و ٤٥١، وراجع الشيرازي، الأسفار ج ٨ فصل

٢: شواهد سمعية- الاستدلال بالآيات والروايات.

(٢) الرسالة الجامعة ص ١٦٠-١٦١ .

(٣) رسائل إخوان الصفا م ٢ ص ١٦٨ وما بعدها .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٧٤
وابن مسكويه^(١) وابن عربي الطائي الأندلسي (ت ٦٣٨هـ) قال: (فأول
تكوين في الأرض المعادن ثم النبات ثم الحيوان ثم الإنسان) وجعل آخر
كل صنف من هذه المكونات أولاً للذي يليه ٠٠٠ إلى أن قال : (وأول
الإنسان القرد)^(٢) .

ونظرية الحركة الجوهرية التي قدمها الشيرازي لا تعني إلا نظرية
التطور كمسار عام في الخلق، ويرى أن النفس جسمانية الحدوث
روحانية البقاء^(٣) .

وهناك معاصرون أمثالهم في أوساط أهل الدين والعلم. في العالم
الغربي و الإسلامي ومن هؤلاء الدكتور ادوارد لوتر^(٤) الذي تحدث
عن ذلك قائلاً: (الانتخاب الطبيعي هو أحد العوامل الميكانيكية للتطور
كما أن التطور هو أحد عوامل الخلق ... فالتطور إذاً ليس إلا أحد
السنن الكونية أو القوانين الطبيعية ، وهو كسائر القوانين العلمية
الأخرى ، يقوم بدور ثانوي لأنه هو بذاته يحتاج إلى من يبدعه ...
ولاشك في أنه من خلق الله وصنعه .. والكائنات التي تنشأ بطريق
الانتخاب الطبيعي قد خلقها الله تعالى أيضاً كما خلق القوانين التي
تخضع لها.

(١) ابن مسكويه : تهذيب الأخلاق ص ٦٨_٧٥ .

(٢) ابن عربي ، عنقاء مغرب، مصر، ١٣٧٣هـ-١٩٥٤م، ص ٩٣ .

(٣) الأسفار ج ٨ ص ٣٤٥ .

(٤) استاذ علم الاحياء ورئيس هذا القسم بجامعة سان فرانسكو .

فالانتخاب الطبيعي ذاته لا يستطيع ان يخلق شيئاً^(١).

قال : (وبرغم ان صيحات الماديين والطبيين قد حجت كثيراً من الباحثين الامناء عن الحقيقة فان فكرة التطور الخلقي لا يمكن أن تكون منافية للعقيدة الدينية بل على النقيض من ذلك ، نجد من الحماقاة والتناقض في الرأي أن يسلم الإنسان بفكرة التطور ، ويرفض أن يسلم بحقيقة وجود الخالق الذي أوجد هذا التطور)^(٢).

وقال الدكتور جورج ايرل دافيز^(٣) : إن التطور الذي تكشف عنه العلوم في هذا الكون هو ذاته شاهد على وجود الله -تعالى- فمن جزيئات بسيطة^(٤) ليس لها صورة معينة نشأت ملايين من الكواكب والنجوم ، والعوالم المختلفة لها صور معينة ، واعداد محددة تخضع لقوانين ثابتة يعجز العقل البشري عن الإحاطة بمدى ابداعها ، وقد حملت كل ذرة من ذرات هذا الكون ، بل كل ما دون الذرة مما لا يدركه حس ، ولا يتصور صغيره عقل ، قوانينها وسننها ، وما ينبغي لها أن تقوم به، أو تخضع له.

(١) في بحث فلتظر الحقائق دون تميز (ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم) .

(٢) نفس المصدر السابق ص ٣٨.

(٣) عالم طبيعي رئيس قسم البحوث الفردية في البحرية الأمريكية احصائي في الاشعاع.

(٤) لم يذكر من أين نشأت هذه الجزيئات ولا متى فذلك لم يكن معروفاً قبل نظرية الانفجار الكبير الذي كانت حرارته لا نهائية فلم تنشأ أخف الذرات إلا بعد ١٠٠ ألف سنة من هذا الانفجار.

ويقول: ولكن هنالك ما هو أشد اعجازاً ، وأكثر دلالة ، فمن تلك الجزيئات البسيطة لم تنشأ النجوم والكواكب فقط ، بل نشأت كذلك أنواع متطورة من الاحياء ، بل كائنات تستطيع ان تفكر ، وتبتكر وتخلق اشياء جميلة بل هي تبحث عن اسرار الحياة والوجود ، إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله دون حاجة إلى الاستدلال : بان الاشياء المادية تعجز عن خلق نفسها ^(١).

ومن اعتقد بصحة النظرية مع تصديه لمن اعتقد بالتفسير الصدفوي-كما سيأتي-، العلامة كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك حيث قال في كتاب اسماء (الإنسان لا يقوم وحده):

(ولما ظهر دارون، طرقت فكر الإنسان نظرية جديدة هي (بقاء الأصلح) وتطور الإنسان. وكانت دراسة دارون الشاملة، والحقائق الكثيرة التي استشهد بها لتأييد نظريته تحمل الإقناع في طياتها. وكانت البراهين التي كدسها والحقائق التي جاء بها خلفاؤه، مؤيدة لنظرية التطور حتى اليوم، وقد وصلت بها إلى أبعد من تطبيقاته

وقد وصل بعض أتباع دارون باستدلالاته إلى حد الإلحاد المادي. وحيال ذلك تطرف الآخرون، أولئك الذين ألهموا الإيمان بوجود (الخالق) وأن هناك غاية في جميع المخلوقات، فانكروا نظرية التطور في كفاحهم للإلحاد، والآن لا محل لاتخاذ مثل هذا الموقف العنيف، سواءً لانصار فكرة التطور، أو لذوي العقلية الدينية، لأن العلم قد أوضح

(١) المصدر السابق ص ٤٩ .

٧٧..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
الآن حقائق تصل إلى إزالة تلك الخلافات الظاهرية، وتنور الفريقين^(١).

و ممن لم ير في النظرية نقيضاً للإيمان، في الوسط الإسلامي الشيخ
نديم الجسر مفتي طرابلس سابقاً ، المفكر والعالم الموسوعي المعروف -
كما يظهر من كتابه (قصة الإيمان بين العلم والفلسفة والإيمان)،
والدكتور أحمد زكي الأستاذ في العلوم^(٢) مدير جامعة القاهرة ورئيس
تحرير مجلة العربي الكويتية.

والأستاذ الدكتور علم الدين كمال الأستاذ بكلية العلوم في جامعة
القاهرة ثم في جامعة الكويت، الذي قال في بحثه المؤشر إليه في الهامش :
لا يمكن اعتبار التطور بأنه نظرية ضد الدين أكثر من نظرية الخلق
الخاص، فالإختلاف بين النظريتين يكمن في الطريقة التي خلق الخالق -
سبحانه وتعالى- بواسطتها الأنواع العديدة من الكائنات الحية^(٣).

وقال ثانية في ختام البحث :

أود أن أؤكد للقاريء للمرة ثانية : أن نظرية التطور لا تشكك في
الإيمان بالله عز وجل ، شريطة أن تقتنع : بأن جميع العمليات التطورية لم

(١) كريسي موريسون : العلم يدعو إلى الإيمان (ترجم إلى العربية بهذا الإسم)، ترجمة
الأستاذ محمود صالح الفلكي، القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٥٥م، ص ٤٢-٤٣.

(٢) من العلماء المعروفين كان مديراً لجامعة القاهرة وأصبح عند تقاعده رئيساً لتحرير
مجلة العربي، وقد كان مؤمناً بنظرية التطور في الوقت الذي يؤمن فيه بالله تعالى، ومن كتبه
(مع الله في السماء) و(مع الله في الأرض).

(٣) تطور الكائنات العضوية / عالم الفكر الكويتية: م ٣ العدد ٤ مارس ١٩٧٣م / ص ١٧

تحدث جزافاً ، وإنما بإرادة الله سبحانه وتعالى

وقد يرى البعض - على خلاف الحقيقة تماماً - أن نظرية التطور تحتوي على آراء مادية ومناهضة للدين ، ولكن رأيي الشخصي أن أي عاقل لا يستطيع أن يجد فيها أي إعتراض حقيقي يوجه إليها من وجهة نظر الدين، بل إن التطور يوضح القدرة الشاملة والرائعة للخالق سبحانه^(١).

ومنهم الدكتور يوسف عز الدين عيسى أستاذ ورئيس قسم علم الحيوان في كلية العلوم بجامعة الإسكندرية ، الذي قال في آخر بحثه المؤشر إليه في الهامش : الخطأ الرئيسي الذي وقع فيه جميع هؤلاء العلماء هو أنهم تجاهلوا وجود خالق مبدع جبار هو الذي خلق هذا الكون وأبدعه بقدرة مذهلة تعجز عن إدراك كنهها عقولنا البشرية ، مهما كان مبلغ ذكائنا وقدرتنا على التفكير^(٢).

إن هؤلاء وأولئك لم يروا في نظرية التطور بمفهومه العام أو بالمسار الذي تصوره دارون إلا اكتشافاً للقوانين التي أجرى بها الله عملية الخلق ثم عملية الارتقاء ، والتنوع في النبات والحيوان في هذا العالم ، ولم يروا في شيء من ذلك ما يناقض إيمانهم بالله سبحانه ، وأنكروا وجود صورة منصوصة قاطعة ومفصلة لكيفية الخلق في ما نزل من الوحي الصحيح النسبة.

(١) نفس المصدر / نفس البحث / ص ٤٩

(٢) التطور العضوي للكائنات الحية : المصدر السابق : نفس العدد والعدد / ص ١٠١

إن التوحيد الإلهي - دون شك - يفرض ارجاع العوامل والعلل المادية ، والقوانين الطبيعية المباشرة جميعاً إلى الله سبحانه ، تقديراً وصنعاً ابتداءً ودواماً دون منافاة، ولذلك لم يرفض الفلاسفة والعلماء من نظرية التطور إلا القول بالصدفة الباطلة علمياً.

بطلان التفسير بالصدفة لإستحالتها

إن من لا يرى نظرية التطور نقيضاً للإيمان تصدى فقط إلى من حاول تفسير التطور بكل صورته وآلياته ابتداءً بالصدفة فمما مر علينا : أن بعض المفكرين والعلماء فسروا التطور في نظرية دارون بالصدفة منطلقين من ايدلوجيتهم المادية أصلاً ولا لوم على من لم يعرف الفلسفة العقلية والرياضيات منهم... ولكن ماذا لديك لتقول إزاء الأسماء المنظورة منهم في ذلك إلا أن تعتبرهم ضمن (من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم) لذلك جعلنا اقتطاع الجانب الاحيائي في نظرية دارون عن نشأة الكون وتاريخه أحد الإشكالات على النظرية لفصلهم التفسيرات فيها عنه، إذ لا مجال لافتراض الصدفة مطلقاً قبل وجود العالم ولا في إيجاده من العدم^(١) ولا مجال لها بعد وجوده كذلك إلا في أمثلة محدودة جداً كما ستعرف. ولا مجال لافتراضها في الحركة والحياة

(١) نقصد العدم المطلق كما هو عند الملاحدة لأن العدم عند الالهيين عدم نسبي يتصل بالعالم ككل أو بما يقابل الموجود من وحداته ولا فراغ مطلقاً من الحق وعين الوجود سبحانه الذي بمشيئة يحدث الوجود والعدم النسبيين المخلوقين في العالم.

فذلك مستحيل ولا مجال علمياً للقول بأزلية المادة^(١).

وإنما يمكن افتراض الصدفة في حدوث بعض الأشياء في العالم في أمثال محدودة فإذا أخذنا مظاهر الإبداع المتسق والمترايط وبضبط بالغ يعبر عن القصد من أصغر أجزاء العالم إلى أكبرها ومن أهم ظواهره إلى أدناها، فإن افتراض الصدفة في تطور العالم يصبح مستحيلاً أيضاً .

إن نظريات المصادفة والاحتمال لها الآن من الأسس الرياضية السليمة ما يجعلها تطبق على نطاق واسع وأصبحنا قادرين على التنبؤ بحدوث بعض الظواهر التي نقول : إنها تحدث بالمصادفة والتي لا نستطيع أن نفسر ظهورها بطريقة أخرى وقادرين على التمييز بين ما يمكن أن يحدث بطريق المصادفة وما يستحيل حدوثه بها... وان نحسب كذلك احتمال ظاهرة من الظواهر في مدى معين من الزمان^(٢).

إن حظ المصادفة من الاعتبار يزداد وينقص بنسبة معكوسة مع عدد الإمكانيات المتكافئة المتزاحمة في المادة غير الحية فالقاء حجر النرد ذي الوجوه السداسية قد تلعب الصدفة دورها بتكرار رقم واحد خمس أو ست مرات أو أكثر ولكن احتمال هذا نادر جداً^(٣)، ورغم وضوح

(١) نفت نظرية الانفجار الكبير أزلية العالم والمادة ونفاها بشكل قطعي انحلال البروتون وفنائه كذلك.

(٢) د. فرانك آلن : نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد (الله يتجلى في عصر العلم ص ١٣ - ١٨).

(٣) د. خالص جلبي كنجو : الطب محراب الإيمان : ص ١٤.

٨١..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
المسألة عقلياً وعلمياً فقد قال بالصدفة في تفسير عدد من الظاهر بعض
المشاهير واصحاب الألقاب العلمية ويبدو أنهم من قبيل من أشارت
إليهم الآية الكريمة (وجحدوها واستيقنتها أنفسهم) ومن أشهر
المتصددين لهم العلامة كريسي موريسون^(١) الذي حاول في كتابه
﴿الإنسان لا يقوم وحده﴾ رداً على هكسلي، أن يوضح استحالة
الصدفة فقال :

خذ عشرة بنسات وضع عليها أرقاماً متسلسلة من (١) إلى (١٠)
ثم ضعها في جيبك وهزها هزاً شديداً ، ثم حاول أن تسحب حسب
ترتيبها من (١) - (١٠).

ان فرصة سحب البنس رقم (١) هي بنسبة (١ - ١٠) وفرصة
سحب رقم (١) ورقم (٢) ، متتابعين هي بنسبة (١ - ١٠٠) وفرصة
سحب ١ و ٢ و ٣ متتالية هي (١ - ١٠٠٠) وفرصة سحب البنسات ١
و ٢ و ٣ و ٤ متوالية هي بنسبة (١ - ١٠٠٠٠) وهكذا حتى تصبح
فرصة سحب البنسات بترتيبها من ١ - ١٠ هي نسبة واحد إلى عشرة
بلايين^(٢).

ولا بد أنك لاحظت - في هذا المثل البسيط كيف تتكاثر الأعداد

(١) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي
بالولايات المتحدة.

(٢) العلم يدعو إلى الإيمان (كما سماه مترجمه محمود صالح الفلكي) وهونفسه كتاب
(الإنسان لا يقوم وحده) للعلامة كريسي موريسين، ص: ٤٩.

بصورة هائلة ضد المصادفة ثم استعرض موريسون الترابط الموجود بين وحدات العالم وظواهره وتداعمه وتناسقه ليبين أن الفرصة لتكوينه صدفة أكبر من ذلك بما لا يقاس وإلى درجة الاستحالة المطلقة.

و حين ضرب هكسلي مثلاً حاول أن يقرب فيه إمكان الصدفة فتصور: أن من الممكن أن تأتي لنا إحدى مسرحيات شكسبير من خلال ضرب عدد من القرود على عدد من الآلات الكاتبة ضرباً عشوائياً لملايين السنين.

كان ممن تصدى له ليفحمه ومن أصغى إليه نهائياً، الدكتور وليام بانت من جامعة بالاً مستعيناً بالكمبيوتر.. فحسب امكانية احتمال ظهور عبارة واحدة وردت في إحدى مسرحيات شكسبير على لسان هاملت وما هو مدى احتمال تكونها عن طريق الصدفة وهي قوله : (أن تكون أولاً تكون تلك هي القضية) .

فتوصل إلى أن نسبة احتمال ظهور مثل هذه الجملة بالصدفة يقتضي أن يقوم مليون مليون مليون قرد بالضرب المستمر والعشوائي على أحرف آلات الطباعة الموضوعه أمامهم لمدة تبلغ مليون مليون مليون مرة ضعف عمر الكون^(١).

من الذرة والذرة

ويمكن أن نأخذ أمثله من الكون والعلاقات المتناسقة والمقننة فيه

(١) أميد شمشك : أسرار الذرة ص ١١٧ .

٨٣..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
بدءاً من العالم الذري ، والدوذري ، وإنهاءً بعالم النجوم والمجرات
ومن ذلك ما ذكره الدكتور جون كيفلاند قال: (منذ مئة سنة تقريباً رتب
العالم الروسي مانداليف العناصر الكيماوية تبعاً لتزايد أوزانها الذرية
ترتيباً دورياً ...

وقد وجد : ان العناصر التي تقع في قسم واحد تؤلف فصيلة
واحدة ويكون لها خواص متشابهة ، فهل يمكن إرجاع ذلك إلى مجرد
المصادفة؟ وقد تمكن العلماء بفضل هذا الترتيب أن يتنبأوا بوجود
عناصر لم يكن البشر قد توصلوا إليها بعد ، بل أمكن التنبؤ بخواص هذه
العناصر المجهولة وتحديداتها تحديداً دقيقاً ، ثم صدقت نبؤاتهم في جميع
الحالات فاكتشفت العناصر المجهولة وجاءت صفاتها مطابقة كل المطابقة
للصفات التي توقعوها ، فهل يبقى بعد ذلك مكان للاعتقاد في أن أمور
هذا الكون تجري على أساس المصادفة ؟ ان اكتشاف مانداليف لا يطلق
عليه اسم المصادفة الدورية ولكن يسمى القانون الدوري.

وهل يمكن أن نفسر على أساس المصادفة ما وصفه وتوصل إليه
العلماء السابقون من تفاعل ذرات عنصر (أ) مع ذرات عنصر (ب)
وعدم تفاعلها مع عنصر (ج) ... كلا إنهم قد فسروا ذلك على أساس
ان هنالك نوعاً من الميل أو الجاذبية بين جميع ذرات عنصر (أ) وجميع
ذرات عنصر (ب) ولكن هذا الميل أو الجاذبية منعدم بين ذرات عنصر
(أ) وذرات عنصر (ج).

وقد عرف العلماء كذلك أن سر التفاعل بين ذرات المعادن القلوية
والماء تزداد بازدياد أوزانها الذرية بينما تسلك عناصر الفصيلة

الهالوجينية سلوكاً مناقضاً لهذا السلوك كل المناقضة ، ولا يعرف أحد سبب هذا التناقض ، ومع ذلك فان أحداً لم يرجع ذلك إلى محض المصادفة أو يظن انه ربما يتعدل سلوك هذه العناصر بعد شهر أو شهرين أو تبعاً لاختلاف الزمان أو المكان أو يخطر بباله ان هذه الذرات ربما لا تتفاعل بنفس الطريقة او بطريقة عكسية او عشوائية .

وقد اثبت اكتشاف تركيب الذرة أن التفاعلات الكيمياءوية التي نشاهدها والخواص التي نلاحظها ترجع الى وجود قوانين خاصة وليس محض مصادفة^(١)

والعالم الذري والعالم الدوذري واسع المديات بعيد الأغوار عميق الأسرار لا يمكن لنا الدخول فيه واقل ما يمكنك التعرف به عليه قراءة ما كتبه العالم التركي أميد شمشك في كتابه : أسرار الذرة^(٢) .

جزيئات الخلية

أما حين ننقل الحديث إلى الخلية وعناصر الجزيئة وكيفية تركيبها وكمية ونوعية ما تتركب منه وما تقوم به من وظائف فان الأمر يدق ويتعقد وتعسر معه المكابرة حتى على أعتى الماديين .
يقول د . وليام داي^(٣) وهو من القائلين بالتطور :

(١) جون كيفلاند : النتيجة الحتمية (ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٣٠ - ٣١) .

(٢) ترجمة أورخان محمد علي ، سلسلة أبحاث في ضوء العلم الحديث.

(٣) مؤلف كتاب : نشأة الحياة على كوكب الأرض ، المقرر لدرس مادة التطور في جامعة

٨٥..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

إن جميع المتعضيات على وجه الأرض اعتباراً من أبسط خلية مفردة وصعوداً حتى الإنسان ذاته ما هي إلا مكائن خارقة القدرات تقوم بلا جهد ولا عناء بتحويل جزيئات عضوية معقدة ، وفرز انماط سلوكية في غاية الدقة والإتقان منتجة من المواد الخام الموجودة في البيئة نسخاً بلاعدّ ولا حصر مطابقة لذاتها في كثير أو قليل وتتألف العمليات الحياتية من خطوات متداخلة في تشابك مستغلق ومسيرة بضبط بالغ المهارة تتم في باطن الخلية العجيب البنية والتركيب مع مناطق تخصصية يتم فيها إنجاز تفاعلات كيميائية معينة ... تشير التقديرات إلى أن الخلية البشرية الواحدة تضم مائة ألف (١٠٠,٠٠٠) جزيئية إنزيمية تنجز ما بين ألف (١٠٠٠) وألفي (٢٠٠٠) تفاعل كيميائي أي بمعدل خمسين إلى مائة (٥٠ - ١٠٠) جزيئية لكل عملية ويتضمن الجسم البشري عشرة تريليون (١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) خلية تقوم كل منها بدور خاص في المتعضية الكلية.

كما أن قدرة الإنزيمية على تنفيذ التفاعلات البيوكيميائية لا تقل بهراً وإعجاباً بل قل إعجازاً ... تتراوح وتيرة التحفيز لدى أغلب الإنزيمات ما بين ألف إلى أكثر من خمسمائة ألف (١٠٠٠ - ٥٠٠,٠٠٠) جزيئية بالدقيقة الواحدة ، إنما يبدو : أن الوتيرة الأسرع لوحظت لدى الأنزيمية كاتالاز فبوسع جزيئية واحدة من الكاتالاز تحويل أكثر من خمسة ملايين (٥٠٠٠٠٠٠٠) جزيئية من البروكسايد بالدقيقة الواحدة .

لاغرو إذن أن تنظر الناس إلى الحياة كظاهرة يمكن تفسيرها فقط
بمنطوق الشرائع اللامادية^(١)

ويقول البيولوجي الروسي او بارين وهو من العلماء المرموقين
ومن الماديين المعروفين :

(إن كيفية ظهور الخلية إلى الوجود تشكل أظلم ركن في نظرية
التطور ...)

ويقول : (إن قوانين الكيمياء العضوية لا تستطيع تفسير العمليات
ذات المستوى الرفيع الجارية في الخلايا الحية)^(٢).

(إن شبكة التفاعلات الأيضية ليست منسقة تنسيقاً صارماً فحسب
، وإنما هي موجهة أيضاً نحو الحفظ والتكاثر في إطار الظروف العامة
التي تفرضها البيئة الخارجية ، ولا يمكن أن يكون التكيف البالغ
التعضية الذي يميز الحياة وليد صدفة ...

إن ذلك - كما يقول أو بارين في كتابه : أصل الحياة الصادر سنة
١٩٥٤ م - يشبه تماماً أن يمسك أحدهم بقطع كتب على كل منها حرف
من حروف الهجاء المعروفة فيخلطها معاً ثم يبعثرها على الأرض يحدوه
الأمم في أن تسقط شعراً موزوناً مقفى ومن نافلة القول أن لصناعة
الشعر من الأحرف مساراً آخر فهو لا يتولد من الحروف بغير المعرفة

(١) نشأة الحياة على كوكب الأرض . ص ٢٦٩ .

(٢) بلوت : المصدر السابق ص ٢٩ .

٨٧..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
والتضلع في النظم^(١)

ويقول الدكتور موريس بوكاي :

(يعتمد التطوريون نظرية الصدفة على انها القوة التي تخلق بنيات
أرقى تعضية ولكن ذلك والحقائق الثابتة على طرفي نقيض فان التطور
في كل هيئاته وأشكاله يتم بطريقة منظمة كما انه يتم في سلاسل أصلية،
ويتبع توجهاً بالغ الوضوح والجلء ومن ثم لا يمكننا الاستدلال منطقياً
على ان الأحداث التلقائية يمكن أن تنتج شيئاً ، اللهم إلا الخلط
والتشويش^(٢) .

ولعل أفضل الأمثلة وأشهرها في محاكمة نظرية الصدفة في نشأة
الكون والحياة ، وتطورهما ما قام به العالم الرياضي السويسري (تشارلز
يوجين جاي) بدءاً من الجزيئات التي تتركب منها الخلية ، وقد نقله
باسطاً القول فيه العلامة ليكون دي نوي^(٣) لكننا نفضل نقله ملخصاً
كما ذكره الدكتور فرانك آلن... قال : (ان البروتينات من المركبات
الأساسية في جميع الخلايا الحية وهي تتكون من خمسة عناصر هي :
الكاربون ، والايديروجين والنيروجين والاوكسجين والكبريت...

(١) موريس بوكاي : ما اصل الانسان ص ٦٢ ، نقلاً عن كلود ترمونتان في تعليق على
نظريات حيه مونود الصدفة والضرورة) . (٤) ن . م . ص ٦٣ .

(٢) المصدر السابق : نفس الصفحة .

(٣) مصير البشرية : ترجمة أحمد عزت طه ، وعصام أحمد طه ، ونقله بتصريف الدكتور
خالص كنجو في كتابه الطب محراب الإيمان ص ١٩ و ٢٠ و ٢١ .

ويبلغ عدد الذرات في الجزيئي البروتيني الواحد ، أربعين ألف ذرة (٤٠,٠٠٠) ولما كان عدد العناصر الكيمائية في الطبيعة (٩٢) ^(١) عنصراً موزعه كلها توزيعاً عشوائياً، فان احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئاً من جزيئات البروتين يمكن حسابه بمعرفة كمية المادة التي ينبغي أن تخلط خلطاً مستمراً لكي تؤلف هذا الجزيئي ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيئي الواحد.

وقد قام العالم السويسري تشارلز يوجين جاي بحساب هذه العوامل جميعاً ^(٢) فوجد أن الفرصة لانتهاياً بطريق المصادفة لتكوين جزيء بروتيني واحد إلا بنسبة ١ - إلى ١٠^{١٦٠} أي بنسبة (١) إلى رقم عشرة مضروباً في نفسه ١٦٠ مرة وهو رقم لا يمكن النطق به أو التعبير عنه بكلمات ... وينبغي أن تكون المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة بحيث ينتج جزيء واحد أكثر مما يتسع له هذا الكون بملايين المرات ...

(١) كان هذا عدد العناصر لدى العلماء عند كتابه فرانك آلن لبحته أما الآن فان عددها عندهم (١٠٧) مائة وسبعة عناصر .

(٢) ذكر الدكتور خالص كنجو ان العالم السويسري قام بتبسيط العالم الواقعي فقلل من اعداد العناصر المكونة لجزيء البروتين فجعلها (٢٠٠٠) واعتبر الذرات نوعين ومع ذلك فقد ذكر ان احتمال المصادفة هو بنسبة ٢ × ١٠ مسبوق بـ (٣٢١) صفراً (٢ × ١٠) . (٣٢١)

٨٩..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها عن طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات قدرها العالم السويسري بعشرة مضروبة في نفسها (٢٤٣) مرة من السنين (١٠^{٢٤٣} سنة).

ويقول مضيفاً لذلك : (ان البروتينات تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية ، فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات ؟ إنها إذ تألفت بطريقة أخرى غير التي تتألف بها تصير غير صالحة للحياة بل تصير في بعض الأحيان سموماً وقد حسب العالم الإنجليزي ج . ب . ليبيتز : الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في إحدى الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد : أن عددها يبلغ البلايين (١٠^{٤٨}) مرة ، وعلى ذلك فانه من المحال عقلاً أن تتألف كل هذه المصادفات لكي تكون جزيئاً بروتينياً واحداً ، ويعلق الدكتور فرانك آلن قائلاً :

ولكن البروتينات ليست إلا مواد كيميائية عديمة الحياة ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لاندرى من كنهه شيئاً انه العقل اللانهائي^(١) .

من العالم الفلكي المادي الكبير

ونترك عالم الذرات والجزيئات ونتجه صوب العالم الفلكي المادي بمجرّاته ، ونجومه وكواكبه ووجود أنواع الأحياء فيه فنرى العلماء

(١) نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد : ص ١٧ - ١٨ من كتاب الله يتجلى في عصر العلم .

يقدمون في كل جانب من جوانبه ما ينفي الصدفة ، ويشيرون إلى القوانين والأنظمة التي تسود ارجاءه بصورة عامة يقول العلامة د. بول ديفز:

إن الطبيعة تظهر هيكلًا متسلسلاً فمن أصغر المكونات المعروفة للذرة إلى تنظيمات المجرات ذات المقياس العالي (وهي هائلة حجماً وابعاداً واعداداً) نلاحظ أنظمة متميزة في التنظيم والحجم وان كل مستوى من الهيكل مترابط مع بقية المستويات في طريقة غاية في التوازن والاتساق .

فما الذي يحدد معيار هذه الهياكل ، وعلاقتها مع بعضها البعض (موقعا وسرعات وحجوماً) ولماذا تكون المجرات بهذا الكبر ؟ والذرات بهذا الصغر ؟، ولماذا تكون الحرارة في النجوم عالية لهذا الحد؟^(١).

ويقول : بالرغم من أن المجرات تبدو كجزء من المادة الكونية الساطعة ، محاطة بهالات واسعة من الفضاء ، ولكن الفضاءات بين المجرات ليست خالية تماماً ، فان هناك مواداً دقيقة داكنة وشفافة ، والأكثر أهمية من ذلك أن الفضاء بأكمله مملوء بالإشعاع الحراري وأن هذا الإشعاع يعمّ جميع الكون بوهج ضعيف نوعاً ما... إن درجة الحرارة متساوية. إن هذا التجانس المتساوي في جميع الاتجاهات للإشعاع الحراري ذي الخلفية الكونية كما نتسلمه على الأرض ، يقدم دليلاً قوياً للغاية لانتظام الكون لأنه يقطع مسافات كونية شاسعة بدون إعاقة ،

(١) بول ديفز : عالم الصدفة ص ١٦ .

٩١..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
فلو كانت هناك شواذ كونية لظهرت نتائجها على الإشعاع الحراري^(١)

ومن الحقائق : أن المجرات تتباعد بعضها عن البعض الآخر بسرعة هائلة ، لكن معدل الانتشار خاضع لضابط غاية في الدقة ، بحيث لو اختلف حتى بمقدار ضئيل لتبدل وجه الحياة بالنسبة لنا . فلا تتجاوز نسبة الأوكسجين مثلاً ٢١% ولا تنقص عن ذلك رغم أن كل احتراق لا يتم إلا بها ، ولا تتجاوز نسبة ثاني أوكسيد الكربون الى الحد الذي تكون ضارة، وعلاقة ذلك بالأرض والنبات والحيوان وفعاليات الإنسان سلباً وإيجاباً لا يجهلها أحد مؤكداً على فعالية التمثيل الكلوروفيلي^(٢) .

وفي إبطال أزلية المادة التي كان الماديون يتمسكون بها ، قال العلماء :لقد اختفت المادة في النزول من العالم الدوذري كالبروتون والالكترون الى عالم الكواركات والجسيمات الافتراضية ، وتركت مكانها مفهوماً غامضاً ومجهول الماهية حتى الآن هو الطاقة ، التي لا يشكل عالم المادة منها - كما يقول (ديفيد بوم) - إلا نبضة صغيرة أو شقاً في جدار كبير

(١) إقرأ : كريسي مورسيون : العلم يدعو الى الايمان (مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥
٢٥). جون كلوفر مونسما : الله يتجلى في عصرالعلم ، منشورات دار التربية ، وآميد
شمشك أسرار الذرة ، مطبعة الحوادث بغداد سنة ١٩٨٦ م ط ١ ، ولورس ملني ومارجري
ملني : الحواس في الإنسان والحيوان : المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بيروت ط ١ .
بول ديفز : القوة العظمى

(٢). جون.ب.بريجز: الكون المرآة (ديفيد بوم) .

(١) ، ولا تزال معادلة انشتاين التي تقول: الطاقة - الكتلة - مربع سرعة الضوء ($E=mc^2$) صحيحة حتى الآن (٢) .

ويذهب العلماء الآن إلى أن عالمنا هذا لم يكن موجوداً ، وأنه ولد قبل خمسة عشر مليار سنة ، وأنه ولد في لحظة قدرت بـ (١ / ١٠^{٣٢}) من الثانية (٣) وان الانفجار الكبير - كما يسمى - لا يعني انفجار كتلة مادية ، بل مجيء الكون كله من العدم (٤) ، وان الحرارة كانت لدى الانفجار لا نهائية ، لذلك لم تتولد أخف الذرات إلا بعد زمن من ولادة الكون قدر بـ ١٠٠ ألف سنة (٥) وقد اثبت العلماء أن البروتون وهو الذي كان لا يفنى - في نظرهم - ينحل ويفنى ، وهذا يثبت : إن عالمنا حادث وفان، فكل فان حادث وبالعكس... (٦)

لذلك لا مجال للهذر المادي في أزلية المادة ، والقول بالصدفة من كل جهة .

ورصاصة الرحمة النهائية التي وجهت للمادية ، ما كشفت عنه

(١) جون . ب . - بريجز : الكون المرآة (ديفيد بوم) .

(٢) اسرار الذرة ص ١١-١٠ .

(٣) بول ديفيز : القوة العظمى ص ١٣ و ١٦ و ١٧ . من إعجاز القرآن الآية الشريفة: (و ما

أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) وهو ما لا يمكن تصوير السرعة باللغة بعبارة أخرى.

(٤) ن . م . . ص ٢٣ .

(٥) ن . م . ص ٩٤ .

(٦) ن . م . ص ١٥٩ .

٩٣..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
دراسات البراسايكولوجيا وعلم الروحية الحديثة من وجود عالم الروح
وإمكانية التواصل معه بدرجات مختلفة مما لا مجال للحديث عنه هنا
على أنه أصبح في مستوى الحقيقة القابلة للتجربة من قبل الجميع لو
عرفت كلفيته^(١)

لذلك يقول الأستاذ الدكتور موريس بوكاي : إن نظرية دارون -
بالتصور المادي والتفسير الصدفي- قد عفت آثارها وصارت شيئاً عتيقاً
بالياً ، وان تصوراته ومفاهيمه لا تقوى على الصمود لأنها واهية^(٢) .

(١) أقرأ إن شئت : الانسان روح لا جسد(وثائق وشهادات) في أكثر من (٣٠٠٠) صفحة

للدكتور رؤوف عبيد ، والارواح الماسة: لعدنان البكاء .

(٢) ما أصل الانسان ص ٥٤ .

الخلاصة

إن نظرية التطور نظرية قديمة ، قال بها فلاسفة مؤمنون ، فيهم مسلمون وأهل عرفان .

وهي نظرية لا تنافي الإيمان ولا تدعم المادية الفلسفية في شيء ، ولا تنافي حقيقة خلق الله سبحانه للعالم (موجوداته المختلفة، ظواهره، وجميع قوانينه).

وإنما تنافي القول بالخلق المباشر والمستقل المرفوض فلسفياً إلا في الخلق الأول، لأن موجودات العالم المركبة والمحدودة ضمن الزمان والمكان تقتضي بنفسها الزمان والمكان وتعدد أسباب التكوين بينها وبين الواحد الأحد سبحانه، ولأن كل الأسباب مطلقاً، قائمة به ومعبرة عن مشيئته فلا تكون مقارنة له، ولا شريكة في شيء من الخلق، ولذلك كانت محاولة جعل النظرية من قبل أصحاب الأيديولوجيات الإلحادية معبرة عن أيديولوجيتهم وداعمة لها، توظيف يكشف عن جهل فلسفي وعلمي فاضح مثلما هو أيضاً رفض رجال الدين الكتابيين لها ابتداءً ودون تأمل، بدعوى أن القول بغير الخلق المباشر والمستقل منذ عشرة آلاف سنة، يخالف التوراة فهو يخالف الحقيقة، وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة لكبار العلماء -وقد أشرنا إلى شيء منها-: أن التوراة خالطها كثير مما هو موضوع وباطل، وأن علم تحليل أطياف النجوم، والأحافير، والإسلام وبعض الأديان الأخرى تخالف التوراة في ذلك أيضاً كما بينا.

ورغم أن نظرية التطور بالتفسيرات والمراحل التي ذكرها دارون، لم

٩٥..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

تثبت حتى الآن- وإنما الثابت التطور بصورته العامة- وأن العلماء قدموا عدداً من الإشكالات والمناقضات على النظرية الدارونية فإن القول بها- حتى لو ثبتت- لدى كثير من العلماء الغربيين والعلماء والفلاسفة المسلمين، لا ينافي الإيمان ولا النصوص المنزلة بل في نصوص القرآن والسنة- وقد قدمنا شيئاً منها- ما يعطي صورة عامة تسمح بقبولها ضمن تصور معين.

والمنافي فقط ، طرح البعض للنظرية على أنها تستبطن القول بالصدفة والعشوائية. وهو ما أثبت العلماء بطلانه بصورة مطلقة فلسفياً وعلمياً، وقد قدمنا من ذلك ما رأينا فيه قولاً فصلاً وحاسماً ...

والحمد لله رب العالمين

Extract

The development theory is an old theory that is adopted by many believer philosophers and Gnostics.

It is a theory that is not conflicting with faith and does not support Materialism and never contradicts with the truth of creation of world by God.

Yes it conflicts with the theory of direct creation which is refused by philosophy except in first creature that is because other cosmic creatures are associated with the limits of time and place which are unsuitable to be related directly to God almighty so we can not ascribe them except to the mediatory causes which express God will without any participating in creation.

The attempt of atheist ideologies to support their ideologies by this theory reveals their philosophic ignorance like those Christian religious man who refuse the theory without any scrutiny claiming that any theory conflicts with the theory of direct creation exactly before _____ years is void because Torah (Old Testament) established that.

The scientific research proved that Torah is mixed with many null and false allegations and the science of spectrum analysis digging discoveries Astronomy Islam and other religions all stand against Torah in that dogma.

However the theory of development in the Darwinian interpretation with its stages have not been proved till now rather there were many scientific objections and confutations. But even though adoption of theory by many western and Islamic philosophers does not conflict with faith.

We mentioned several texts in Quran and sunna that let us to accept the theory in some sort of particular interpretation.

We mentioned also some big names form Islamic history that accepts the theory like Isma'ilian Imam Ahmed bin Abed Allah Ibn Arabi and Ibn Maskaweh.

Yes we assert that the theory is never consisting of hypothesis of accident creation which is scientifically invalid hypothesis .

المصادر:

- ١- ابن عربي: عنقاء مغرب، القاهرة: مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م.
- ٢- أحمد بن مسكويه: تهذيب الأخلاق، بيروت: دار مكتبة الحياة.
- ٣- أميد شمشك: أسرار الذرة، ترجمة: أورخان محمد علي، ط ١، مطبعة الحوادث ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
- ٤- الأنوار اللطيفة في حقيقة الفلسفة الفاطمية، ضمن "الحقائق الخفية"، مصر: الهيئة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٧٠م.
- ٥- أورخان محمد علي: دارون ونظرية التطور، سلسلة أبحاث في ضوء العلم الحديث.
- ٦- ب. بريجر: الكون المرآة، ترجمة: نهاد العبيدي، سلسلة كتاب علوم المترجم (٤)، ط ١، بغداد: وزارة الثقافة والإعلام.
- ٧- باروخ اسبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: د. حسن حنفي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧١م.
- ٨- بول ديفز: القوة العظمى، سلسلة كتاب علوم المترجم (٦)، بغداد: وزارة الثقافة والإعلام.
- ٩- بول ديفز: عالم الصدفة، ترجمة: فؤاد الكاظمي بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٧م.

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ١٠٠

١٠ - ت. كيش: هل تعرضت لغسيل الدماغ، تعريب أورخان محمد علي، سلسلة أبحاث في ضوء العلم الحديث.

١١ - تشارلس دارون: أصل الأنواع، ترجمة: إسماعيل مظهر، بيروت-بغداد: مكتبة النهضة.

١٢ - تطور الكائنات العضوية، مجلة عالم الفكر الكويتية، العدد (٤) ١٩٧٣م.

١٣ - جماعة أخوان الصفا (في حدود ٣٥٠ هـ): رسائل إخوان الصفا، بيروت: دار صادر.

١٤ - جورج سارتون: تاريخ العلم، ترجمة لفييف من العلماء، مصر: دار المعارف.

١٥ - الحقائق العالية (ضمن أربعة كتب إسماعيلية)، تحقيق: شرطمان غوتينغن، المجمع العلمي (١٢٨١) بغداد: المثني (أوفست).

١٦ - د. خالص كنجو: الطب محراب الإيمان، ج ١، بيروت: مؤسسة الرسالة.

١٧ - د. فرانك أكن: نشأة العالم هل هو مصادفة (ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم).

١٨ - د. أحمد سوسة: مفصل تاريخ العرب واليهود، منشورات وزارة الثقافة.

١٩ - رؤوف عبيد: الإنسان روح لا جسد، دار الفكر العربي، ١٩٧٥م.

٢٠ - السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، بيروت: مؤسسة الأعلمي ١٩٧٣م.

١٠١..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

٢١- الشيخ الصدوق: التوحيد، بيروت: دار المعرفة.

٢٢- الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه، النجف: ١٣٧٧هـ، ١٩٥٧م.

٢٣- الشيخ المجلسي: بحار الأنوار، طهران: دار الكتب الإسلامية.

٢٤- عبد العال (محمد جابر) الحبني: العقائد والأديان، مصر: الهيئة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٧١م.

٢٥- علم الجيولوجيا، محمد إبراهيم فارس، د. حسين لطفي عباس وعبد العزيز محمود.

٢٦- الفيض الكاشاني: كلمات مكنونة: طهران: انتشارات فارهانكي.

٢٧- القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، مصر: دار المعارف.

٢٨- كاننكهام: الموجز في التشريح، تعريب جامعة الموصل.

٢٩- الكتاب المقدس، سفر التكوين، دار الشروق.

٣٠- كريسي موريسون: العلم يدعو إلى الإيمان، ترجمة: محمود صالح الفلكي.

٣١- الله يتجلى في عصر العلم، مجموعة من العلماء، بغداد: دار التربية.

٣٢- لورس ملني ومارجري ملني: الحواس في الإنسان والحيوان، بيروت ١٩٦٦م.

٣٣- مجلة تراث الإنسانية، م(٩) العدد (١) ١٩٧١م.

٣٤- محمد جمال الفندي: لماذا أنا مؤمن.

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ١٠٢

٣٥- مصطفى محمود، لغز الحياة، مصر: دار المعارف، ١٩٦٧م.

٣٦- مصير البشرية، ترجمة: أحمد عزت طه وعصام أحمد.

٣٧- منوسمري، كتاب الهندوس المقدس، ترجمة: إحسان حقي، ط ١، دار اليقظة العربية.

٣٨- موريس بوكاي: ما أصل الإنسان، ط ١، مكتب التربية العربي لدول الخليج.

٣٩- الموسوعة الفلسفية المختصرة (سلسلة الألف كتاب: ٤٨١)، مؤسسة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣م.

٤٠- نديم الجسر: قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، دار الأندلس.

٤١- وحيد الدين خان: الدين في مواجهة العلم، ط ٢، دار الإعتصام ١٣٩٢هـ، ١٩٧٢م.

٤٢- ول ديورانت: قصة الحضارة ط ٢، القاهرة: الإدارة الثقافية في الجامعة العربية، ١٩٦٤م.

٤٣- وليام داي: نشأة الحياة على الأرض، ط ١، سلسلة المائة كتاب، ١٩٨٩م.

المبحث الثاني

التشريح

وزرع الأعضاء في العملية الطبية

مصادرها وأحكامها في الفقه الإسلامي لدى الامامية

التشريح وزرع الأعضاء في العملية الطبية^(١)

مصادرها وأحكامها في الفقه الإسلامي لدى الامامية

يتصل الموقف القانوني، والأخلاقي في الإسلام - في كل قضية- بالموقف الفلسفي و العقائدي، اتصالاً وثيقاً و كيانياً، فهو دين موحد من حيث القواعد و البنى الفوقية لا تؤخذ الموضوعات المختلفة فيه و الأحكام المتصلة بها مجتزئة ضمن إطارها الشخصي و علاقاتها الخاصة، مفصولة عن العقيدة الإسلامية، و مفاهيمها عن الكون، والحياة والإنسان، بل مؤسسة عليها، وملتزمة بها.....

ومن الأمثلة التي يتجلى بها ذلك، موضوع محاضرتنا هذه، ففي التصرف بجسم الإنسان حياً أو ميتاً، وفي تشريحه، وزرع الأعضاء في داخله، أو اقتطاعها منه يبتنى الموقف سلباً في التحريم، و إيجاباً في

(١) القيت المحاضرة في ندوة خاصة في مؤتمر النجف الثاني في قاعة رئاسة جامعة الكوفة في ٥/٢ سنة ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م وكان الباحثون بالاضافة الى صاحب هذا البحث ، الدكتور صفاء مزهر العبيدي أستاذ الجراحة العامة في كلية الطب والأستاذ فاضل عباس الملا نائب الادعاء العام في رئاسة محكمة النجف ، وقد ادار الندوة الدكتور حسين الطيب الاختصاصي في القلبية والباطنية ، وقد نشر الموجز عن الندوة في العدد الثاني من مجلة النجف الطبية لسنة ٢٠٠١ م .

الجواز، من حيث التفسير، و من حيث الأساس المتصور في خلفيات الحالات المفترضة على عدد من المفاهيم والمبادئ العقائدية والأخلاقية ومنها:

أولاً: أن الكون جميعاً، ومنه الإنسان يرجع إيجاباً وبقاءً لله تعالى، ولا مجال فلسفياً لتصور وجود شيء أي شيء في الموجودات، أو في القوانين الطبيعية التي تنتظمها وتتحكم في مسارها بدءاً وانتهاءً، دون مشيئته سبحانه.

ولذلك كان هو المالك لها لا بإضافة، بل بالذات (فكل شيء قائم به) كما قال الإمام علي عليه السلام، ولا شريك له في شيء مطلقاً.

وإذا كان لا يمكن -بحكم ذلك- أن يخرج شيء عن إرادته في التكوين، فإنه لا ينبغي في ما هو موضع اختيار -عقلاً وشرعاً- تجاوز آداب العبودية بالخروج على ميزانه وهداه اللذين يمثلهما شرعه وأحكامه فيه، حتى فيما يتصل بما يملكه الإنسان ذاتاً فضلاً عما يملكه بالإضافة؛ لأن ما يملكه ذاتاً هو مملوك بالإضافة أيضاً في حقيقته بحكم كونه مخلوقاً، لذلك لا يجوز له مثلاً الانتحار، ولا أن يأذن بالإضرار بنفسه أو أهانتها أو اغتياها.

ثانياً: إن للإنسان -بما هو إنسان- مع غض النظر عن انتمائه، قيمة متميزة بين مخلوقات الله تعالى قال تعالى: (ولقد كرمنا بني آدم)^(١)، وله بما هو مسلم قيمة أخرى مضافة بحكم وعيه للحق وانحيازه له.

(١) سورة الإسراء الآية: (٧٠).

١٠٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

وقد ورد في كتب الحديث الشريف ان الرسول ﷺ نظر إلى الكعبة - بما يعلم لها من حرمة- وقال ﷺ: (إن المؤمن أعظم حرمة عند الله منك)^(١).

ووردت أحاديث أخرى عنه ﷺ منها: (إن المؤمن أكرم على الله تعالى من بعض الملائكة)^(٢).

وأبقى له هذه الحرمة قائمة حتى بعد وفاته كما سيأتي.

ثالثاً: يعطي الإسلام لحياة الإنسان المسلم ومن بحكمه ولحقون الدم كالذمي ومن بحكمه في الدنيا أهمية بالغة ويسبغ عليها حمايته ويتمثل ذلك في ما شرعه ، في الحدود والديات وقد شدد في ذلك حتى جعل التعامل معها سلباً وإيجاباً في الفرد الواحد تعامل مع الناس كلهم قال تعالى: ﴿أنه من قتل نفساً بغير نفس، أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً﴾^(٣). وجعل عقاب قتل المؤمن تعمداً: القصاص أو الخلود في النار قال تعالى: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾^(٤).

رابعاً : أن حياة الإنسان -في نظر الإسلام- منذ إبداع الله له ولم

(١) سنن ابن ماجة: الفتن/ (٢) والترمذي برّ / (٨٥) عن المعجم المفهرس للألفاظ

الحديث النبوي ج: (١) وج: (٦).

(٢) ابن ماجة: الفتن/ ٦ مسند ابن حنبل: (١٥٣/١).

(٣) سورة المائدة: الآية: (٣٢).

(٤) سورة النساء: الآية: (٩٣).

يكن من قبل شيئاً مذكوراً متصله في مراحلها الثلاث أو الأربع اتصالاً
دونما انقطاع وما يحدث في الموت ليس إلا انتقالاً من حالة ومرحلة إلى
حالة ومرحلة أخرى فقط لا فناءً ولا إعداماً قال تعالى: ﴿نحن قدرنا
بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم، وننشئكم فيما لا
تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون﴾^(١).

وهذا يعني أن تعاملنا مع جسم الميت تعامل مع ما يعود إلى من هو
موجود وحي في عالم آخر، ومع أنه لم تعد له به حاجة في حياته الراهنة،
ولا يشعر بما يجري من التصرف فيه كما لو كان لباساً مخلوعاً، إلا أن
التصرف حتى فيما هو لباس مخلوع -دون مبرر شرعي- امتهان
لصاحب اللباس نفسه، وهو عمل لا أخلاقي من جهة الفاعل دون
شك.

ثم إن جسم الإنسان المؤمن هو الهيكل الذي عبد الله فيه وبه في
الحياة الأرضية، وذلك داع آخر للحرمة.

وإذا لم ننسَ فإن هناك عدداً من التشريعات التي تتصل بالميت تقوم
على مفهوم الحياة المستمرة، والحرمة المستمرة، ومنها حرمة الجسد -
وهو الجانب المتصل بالبحث-: كتكفينه وتشيعه ودفنه بالصورة التي
رسمها الشرع وتلقيه العقيدة تذكيراً، ثم استحباب زيارته والسلام عليه
وقراءة الفاتحة له وما جعل لقبره من حرمة وأمثال ذلك.

وبناء على ما تقدم جميعاً وغيره، فإن التشريح واقتطاع الأعضاء

(١) سورة الواقعة: الآية: (٦٠-٦٣).

١٠٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان

وغرسها يجب أن نخضعها للحكم الشرعي في كل حالة، وهو يختلف طبقاً لاختلاف مصدر الأعضاء من حيث كونه حيواناً أو إنساناً، ومسلماً أم كافراً ذمياً ومعاهداً أم حربياً، وطبقاً أيضاً لاختلاف الدافع وما إذا كان العضو ضرورياً للحياة، أو دون ذلك، وهل الضرورة فعلية خاصة؟ أم اجتماعية عامة؟.

على أن تناولنا لأحكام المسائل المختلفة في هذا الموضوع لمجرد العلم، ومعرفة الإطار العام لوجهة نظر الفقه الإسلامي لا للعمل بحكم اختلاف وجهات نظر الفقهاء في بعض هذه المسائل مما يحتم الرجوع لدى العمل إلى من يلتزم بفتواه من الفقهاء.

غرس الأعضاء البشرية

ونعود إلى موضوع بحثنا وهو غرس الأعضاء ويسمى لدى الفقهاء (الترقيع)، فنرى ابتداءً أنه لا يوجد في الفقه الإسلامي ما يمنع منه في نفسه ابتداءً، فمن الجائز أن يغرس للإنسان عضو أو أعضاء بديلة ليدراً عنه خطراً مؤكداً أو محتملاً على حياته أو ليحقق له مصلحة خاصة بسد نقص أو تعويض تلفٍ في جانب ما من جسمه حيويًا وضرورياً كان أو تكميلياً و تجميلياً..... فعدا انتفاء ما يدل على الحرمة فإن الأصول، والقواعد العامة تقتضي جواز ذلك بل وجوبه أحياناً وقد وردت بعض الروايات التي تدل على وقوع صورة من صورته في زمن الأوصياء المعصومين عليهم السلام.

فعن زرارة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (سأله أبي وأنا حاضر عن رجل يسقط سنه فيأخذ سن إنسان ميت فيجعله مكانه؟ قال

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ١١٠
الأمام عليه السلام: لا بأس)...

وهناك ثلاث روايات أخر اثنتان منهما عن الحلبي، والثالثة عن
عبدالله بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام أجازت زرع سن شاة مكان
السن الساقط^(١).

قال الفقيه السيد الروحاني معلقاً على الرواية الأولى: وبضمنة
الفاء فيأخذ، فيجعله يثبت في جميع الأعضاء^(٢).

ولا فرق في الجواز بين إنسان وحيوان، ولا بين مسلم وكافر ولا
فرق بين أعضاء وأخرى حتى مثل زرع البيضتين، والمبيض وأمثالهما
دون أشكال^(٣). لأن العضو بعد إجراء عملية زرعه، ونجاحها،

(١) الحر العاملي: الوسائل ج: (٣) ص: (٣٠٢-٣٠٣).

(٢) الروحاني: المسائل المستحدثة ص: (١٢٣).

(٣) لا يختلف الفقهاء في جواز ذلك ولكنهم يختلفون في الحكم الوضعي في ما يتصل
بنسبة الطفل إلى الأم لدى زرع مبيض المرأة خاصة فيرى الفقيه المرجع السيد الحسيني
السيستاني (دام ظله) أن الطفل يرجع من حيث الأم إلى صاحبة المبيض أصلاً أي المنقول
عنها لا المنقول إليها بناءً على ما هو متفق عليه علمياً من أن المبيض يتكون ابتداءً
والأنثى ما تزال جنيناً وبكامل بويضاته التي ستفرزها المرأة في مدى حياتها كلها فلا يضاف
في المنقول إليها شيء ونسبة الأمومة تابعة للتكون من البويضة خلافاً لنسبة الطفل للأب
الذي نقلت إليه بيضة أجنبي فأن الحوينات التي تنتجها الخصية المنقولة حتى لو كانت من
حيث الصفات الوراثية تابعة للمنقول عنه فان إنتاجها تم لدى المنقول إليه وبذلك ينسب
الطفل إليه أما الفقيه المرجع السيد الحكيم (دام ظله) فان الطفل لديه ينسب لدى نقل
البيضة للزوج والمبيض للزوجة إليهما أي للمنقول إليهما دونما فرق.

١١١ في الدين والعلم والحياة والإنسان
وصيرورته حياً يصبح جزءاً من الإنسان المنقول إليه، ويأخذ حكم بقية
بدنه من كل ناحية... ولا اعتبار للحالة السابقة موضوعاً ونسبة،
وحكماً....

وإذا فالمشكلة في غرس الأعضاء إنما تأتي أولاً من مصدر
تحصيلها، ومن جواز التشريح في بعضها وعدم جوازه في البعض الآخر،
ومن مستوى الحالة من حيث الضرورة وعدمها.

ولذلك فإن علينا أن نستجلي الموقف الفقهي في المصادر المتصورة
وهي:-

١- المصدر الحيواني

ولا حاجة بنا للوقوف عند المصدر الحيواني لانتفاء الأشكال في
تشريحه واقتطاع الأعضاء منه إلا إذا كان ذلك لغرض المثلة المنهي عنها
شروعاً حتى في الحيوان وهي كما سيأتي منتفية موضوعاً في الأغراض
الطبية، وإلا إذا كان زرع العضو الحيواني يعرض حياة الإنسان للضرر
البليغ، أو أن يقصر حياته بحكم الاختلاف النسيجي، وأثر الأجسام
المناعية المضادة فيه بالحسابات العلمية الطبية ابتداءً.

ولا فرق في الحيوانات التي تؤخذ منها الأعضاء بين ما يكون منها
ظاهر العين أو نجسها من حيث الأصل كالكلب والخنزير لما ذكرنا من
أن العضو المقتطع حين يوصل بالبدن، وتحله الحياة يصبح جزءاً من
الإنسان المنقول إليه ويأخذ حكمه شرعاً دونما فرق. فلا إشكال في

ورأى بعض الفقهاء: أن لا يصار إلى نجس العين إلا عند عدم كفاية طاهر العين، ورأى أن تمر مدة بعد زرعها، وجريان الحياة فيه بحيث يعد فيها جزءاً من بدن الإنسان الحي عرفاً^(٢).

٢- المصدر الإنساني الحي:

ذكر الفقهاء بناءً على ما ذكرناه في المبدأ الأول: أنه لا يجوز للإنسان أن يأذن باقتطاع عضو رئيس يوجب له نقصاً ملحوظاً أو يسبب له ضرراً بليغاً فضلاً عما يوجب خطراً محققاً على حياته... وذكروا كأمثلة للأعضاء الرئيسة: العين، واليد، والرجل، وكذلك الكف، والقدم منهما وأمثال ذلك.

ولا يرفع إذنه -بالاقتطاع- لو فعل ذلك- تبرعاً أو لقاء عوض الحرمة عنه وعمن يتولاه بأي وجه. نعم جوزوا له أن يأذن بما هو دون ذلك أهمية من أعضائه مما لا يسبب له نقصاً ظاهراً، أو عوقاً ولا يعرضه بشهادة علماء الطب إلى خطر أو ضرر بليغ. وذكروا كأمثلة على ذلك اقتطاع شيء من اللحم، أو الجلد أو شيء من النخاع، وبالكلية الواحدة إذا شهد الأطباء أنها لا تعود عليه بالضرر ولم يختلفوا في جواز

(١) السيد الموسوي الخوئي: مستحدثات المسائل ص: (٤٢) السيد الحسيني

السيستاني: فقه المغتربين ص: (٢١٢).

(٢) السيد الحكيم: فتاوي طبية ص: (١٠٢).

١١٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
الأذن بسحب كمية لا تضر به من الدم،...

ولا خلاف بين الفقهاء في جواز التبرع بذلك كله لمن يحتاجه من
المسلمين بل لغير الحربي من الكفار (محقون الدم خاصة)^(١).

أخذ العوض المالي

واختلفوا في أخذ العوض المالي مقابل ذلك فحرم بعض الفقهاء
ذلك في ما عدا الدم، وذكروا إن المانع هو ما ورد من تحريم بيع أعضاء
الميتة، والعضو المبان من الحي^(٢).

ولكن الفقيه السيد الحسيني السيستاني (حفظه الله) يرى: أن هذا
الدليل على تقدير تماميته لا يشمل المقام؛ ولذلك رأى: أن لا مانع من
أخذ المال بازاء الأعضاء، وممن أستظهر ذلك الفقهاء السيد الموسوي
الخوئي، والشيخ زين الدين (رحمهما الله) والسيد الحكيم والشيخ محمد
إسحاق الفياض (حفظهما الله)^(٣).

(١) السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي: مستحدثات المسائل ص: (٤١)، الشيخ زين
الدين: المسائل المستحدثة ص: (٢٢)، السيد الحسيني السيستاني: المستحدثات من
المسائل الشرعية ص: (٧٥)، السيد الحكيم: فتاوي طيبة ص: (١٠٢-١٠٣)، الشيخ
محمد إسحاق الفياض: أجوبة أسئلة د. عادل (مصورة).

(٢) السيد الروحاني: المسائل المستحدثة ص: (١٢٦). يتفق حرمة بيع الأعضاء مع

م: (٣) من القانون رقم (٨٥) لسنة ١٩٨٦ ولكن بحيثيات مختلفة عن الحثية الفقهية.

(٣) السيد السيستاني: أجابه خطية خاصة، السيد الخوئي: مستحدثات المسائل

ص: (٤١).

واختلفوا في أن ذلك يكون على سبيل البيع أو على سبيل المصالحة، فرأى بعضهم أنه على سبيل البيع، باعتبارها ملكاً، فمالكية الإنسان - كما ذكروا - لما هو عائد إليه ذاتاً كالأعضاء، أكثر مما هو عائد إليه بالإضافة.

وقالوا: إن الملك يقع على ماله قيمة مالية وللأعضاء قيمة مالية بحكم الحاجة إليها^(١)، ورأى آخرون أنه على سبيل البيع، ولكن باعتبارها حقاً، واشترط بعضهم حاجة الطرف الآخر للعضو حاجة فعلية^(٢). ورأى فريق ثالث: أنه على سبيل المصالحة^(٣). ورابع: أنه كذلك، إذا لم يقطع من الجسم بعد لأن الملكية الاصطلاحية قبل القطع مما لا يتعقل^(٤).

٣- مصدر الميتين دماغياً:

يموت الدماغ أحياناً، وتبقى العمليات الحيوية - بمساعدة الأجهزة الطبية قائمة فالقلب يخفق والدورة الدموية مستمرة...

جاء في التعليمات رقم (٣) لسنة (١٩٨٧ م) الصادرة لتنفيذ قانون زرع الأعضاء البشرية رقم (٨٥) لسنة (١٩٨٦ م) في تعريف موت

(١) السيد الروحاني: المصدر السابق.

(٢) السيد محمد الصدر: فقه الطب: (ص ٦٢).

(٣) الشيخ زين الدين: المسائل المستحدثة ص: (٢).

(٤) السيد الحكيم: في إجابة شفوية.

١١٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان

الدماغ: هو حالة فقدان اللا عائد للوعي، المصحوب بالفقدان اللا عائد لقابلية التنفس التلقائي، والانعدام التام للأفعال الانعكاسية للدماغ. (ان تشخيص موت الدماغ لا يعني ترك المريض ليموت وإنما هو تشخيص لحالة الموت الذي حدث قبل ذلك).

وقد وضعت التعليمات للتحقق من موت الدماغ شروطاً من حيث التشخيص، ومن حيث الفحص، وأنواعه، ووجوب إعادته، وتكراره. وحددت عدداً لأعضاء اللجنة الطبية التي تتولى ذلك وبصورة غير عادية مما يكشف عن احتياط مشدد في موضوعه، والسبب في ذلك -دون شك- انه مظنة للاشتباه، وان الحكم المتسرع بالموت فيه -لو حصل- عرضة لاحتمال الإجهاز على نفس محترمة؛ ولذلك فإن علماء الفقه الإسلامي وبناء على ما أشرنا إليه في ثانياً، وثالثاً لا يجرءون على اعتبار ميت الدماغ -مع بقاء مظاهر الحياة كنبض القلب وجريان الدم- ميتاً حتى لو كان ذلك بمعونة الأجهزة الطبية أما لأن البناء شرعاً، على النظر العرفي للحياة والعرف لا يراه في هذه الحالة ميتاً وأما لعدم العلم باستقلال الأجهزة، بوجود هذه المظاهر، واحتمال أن يكون دورها دور المساعد فقط ولدى الشك يبنى شرعاً على الثانية استصحاباً.

قال الفقيه الكبير المرجع السيد علي الحسيني السيستاني (حفظه الله) (ما دام القلب ينبض، والدورة الدموية مستمرة - وأن كان ذلك بالاستعانة بالأجهزة الطبية- فالشخص لا يعد ميتاً في نظر العرف وأن (مات دماغه) وتجري عليه في هذه الحالة أحكام المغمى عليه شرعاً إلى

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ١١٦
أن يتوقف قلبه عن الحركة)^(١).

وقال (حفظه الله): العبرة في صدق عنوان الميت الموضوع لعدد من الأحكام الشرعية إنما هو بالنظر العرفي بأن يراه أهل العرف ميتاً وهو غير متحقق في مفروض السؤال^(٢).

وقال في إجابة على سحب أجهزة التنفس الصناعي ووسائل إيصال الغذاء وغيرها: (لا يحق للطبيب سحب أجهزة طبية وضعت لمريضه فبعثت الحركة في قلبه، وأن مات المخ، فأصبحت حياة المريض كحياة النبات لا تدوم ألا بعمل الأجهزة وذلك لأهمية النفس المحترمة وعلى الطبيب أن لا يعتني بطلب المريض أو طلب أقربائه بالامتناع عن إسعافه أما إذا سحب الطبيب تلك الأجهزة فمات المريض المسلم لذلك عد الطبيب قاتلاً)^(٣).

وإلى ذلك ذهب الفقيه الشيخ محمد أمين زين الدين (رحمه الله) فقد أجاب على السؤال الذي شرح بالتفصيل واقع الميت دماغياً ومما قال فيه: (فتكون حياة المريض كحياة النبات فلا تبقى هذه الحياة إلا تحت جهاز التنفس الصناعي والأدوية والمغذيات بحيث لو فصل عنها الجسد لحظة واحدة لتوقف قلبه عن النبض ومات. فهل يجوز هنا إيقاف جهاز التنفس عنه؟ فقال (رحمه الله) في الإجابة: في مورد السؤال: لا يجوز

(١) أجابه خطية خاصة بتاريخ ٣ محرم سنة ١٤١٩ هـ.

(٢) عبد الهادي الحكيم : فقه المغتربين (فتاوي السيد دام ظله) ص: (٢١٥).

(٣) نفس المصدر ص: (٢١١-٢١٢).

١١٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان
الإيقاف في حد نفسه^(١) ...

ولما كان في السؤال جزء آخر: (هو ما إذا أضرط لذلك كأن كان
عنده مريض آخر يتوقع شفاؤه وهو محتاج جداً لذلك الجهاز بحيث
يموت بدونه) كان الجزء الثاني من أجابته: (ولكن إذا زاحم الأهم كما
فرضتم قدم الأهم)^(٢).

وقد فصل الفقيه المرجع السيد محمد سعيد الحكيم (حفظه الله) بين
حالتين يبني الحكم في الميتين دماغياً سلباً وإيجاباً عليهما قال: (إذا كانت
الأجهزة والإسعافات هي المبقية لحركة القلب، وجريان الدورة الدموية
جاز قطعها، وإذا كانت مساعدة على بقائها مع وجود بقية للحياة
الذاتية فلا يجوز قطعها، ومع الشك في تشخيص الحالتين يبنى على
الثانية)^(٣).

وبنى جواز فصل الأجهزة الطبية وعدمه على ما بينه في الإجابة
السابقة فقال: (في الحالة الأولى من الحالتين المتقدمتين لا يجب الاستمرار
في العلاج حتى لو لم يكن محققاً بهم وفي الحالة الثانية يجب الاستمرار
بل لو عجزوا وجب على الناس كفاية التعاون على استمرار

(١) محمد جواد رضا الشهابي: بين المكلف والفقيه (فتاوى الشيخ زين الدين
رحمه الله): (ص ١٢٢-١٢٣).

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) السيد الحكيم: فتاوى طبية ص: (٩٥-٩٦).

والحالة الأولى - كما عرفت - هي استقلال الأجهزة بإيجاد المظاهر الحركية في الجسم والحالة الثانية وجود بقية من الحياة ودور الأجهزة المساعدة فقط.

ولكن من لنا أن نعلم بهذه الحالة، أو تلك يبدو أن السيد (حفظه الله) رأى: أن أقوال الأطباء يمكن أن تؤدي إلى العلم فقال في إجابته على سؤال ثالث حول الموضوع وقد ذكر مضمون إجابته السابقة: (ولا بد من البناء على الحالة الأولى من العلم بها ولو من طريق الأطباء)^(٢). وقال (حفظه الله) في إجابته الرابعة: (وقد طرحنا المسألة المذكورة مع بعض أهل الاختصاص فأقر الاحتمال الأول في مفروض السؤال^(٣) أي كون ميت الدماغ ميتاً بالفعل، وأن الحركة في قلبه وورثته ودمه تستند كلياً على الأجهزة الطبية).

ولا تختلف آراء الفقهاء الذين ذكرناهم شفويّاً عن رأي هذين المرجعين الكبيرين.

(١) السيد الحكيم: فتاوى طبية ص: (٩٥-٩٦).

(٢) المصدر السابق: ص: (٩٧).

(٣) نفس المصدر: ص: (٩٦).

رفع الجهاز

لدى مزاحمة الأهم وتعذر البديل

أما فصل الجهاز عن الميت دماغياً الميؤوس من عودته إلى الحياة الواعية أو بدون الأجهزة إذا توقفت على ذلك حياة مسلم مريض آخر في حاجة إلى هذا الجهاز مع عدم وجود جهاز آخر أو بديل فقد أفتوا: بجوازه تطبيقاً لقاعدة تقديم الأهم على المهم التي لها موارد عديدة أخرى، وقد تقدمت إجابة الشيخ زين الدين (رحمه الله)^(١)، وأجاز ذلك السيد الحسيني السيستاني (دام ظله)^(٢)، وقال السيد الحكيم (حفظه الله) في إجابة على سؤال بهذا المضمون (نعم يجوز (أي رفع الجهاز) بل يجب مع كون المريض الثاني محترم الدم)^(٣).

٤ - مصدر الميتين:

وهو المصدر المعتاد والدائم الذي يمد الكليات الطبية والذي تمس الحاجة لمعرفة الحكم الشرعي فيه إذا ما كان بقصد زرع الأعضاء لشخص آخر حي، و إذا ما كان للدراسة فقط، أو لكشف سبب الموت

(١) بين المكلف والفقير: ص: (١٢٣).

(٢) إجابة شفوية.

(٣) السيد الحكيم: فتاوى طبية ص: (٩٦).

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ١٢٠
في الطب العدلي.

فهل هناك فرق بين حالة وأخرى مما يقتضي الجواز أو الحرمة؟
وهل هناك فرق بين شخص وآخر؟ ما هو؟ وكيف؟

سنورد في التالي: ما ساقوه من أدلة على التحريم ونتعرف دلالتها
ومدى صلاحيتها للتعميم ثم نورد ما جاء من أدلة على الجواز وموارده
ليوضح الجواب على ما أثير من الأسئلة المختلفة حول التشريح،
واقطاع الأعضاء في آراء الفقهاء المعاصرين.

أدلة التحريم

ذكروا في الاستدلال على حرمة التشريح واقطاع الأعضاء من
الميت أربعة أدلة^(١):-

الأول: ما ورد عن الرسول ﷺ والأئمة من أهل بيته عليهم السلام من
نصوص في تحريم التمثيل بالميت مطلقاً سواء كان مؤمناً أو كافراً، إنساناً
أو حيواناً بل - كما ورد في بعضها- حتى الكلب العقور، لا حرمة
الكافر ولا حرمة الحيوان بل لما ينبغي أن يكون عليه المسلم من سمو
وخلق بحيث لا يصدر عنه معهما مثل هذا العمل الهابط، ومن ذلك ما
ورد عن جندب عن أبيه: أن علياً عليه السلام قال في خطبة له: (فإذا
هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا

(١) الروحاني: المسائل المستحدثة ص: (١١٧-١١٩).

١٢١ في الدين والعلم والحياة والإنسان
عورة، ولا تمثلوا بقتيل^(١).

وعن الإمام علي عليه السلام أيضاً: أنه قال في وصيته للحسن عليه السلام: ألا لا يقتلن بي ألا قاتلي انظروا إذا أنا مت من هذه الضربة فاضربوه ضربة بضربة، ولا يمثل بالرجل فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور^(٢). وعن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: أن الله يقول في كتابه: (ومن قتل مظلوماً فلا يسرف في القتل)^(٣)، ما هذا الإسراف الذي نهى عنه الله؟ قال عليه السلام: (نهى أن يقتل غير قاتله، أو يمثل في القاتل)^(٤).

ونوقش بأن الاستدلال بهذه الأحاديث وغيرها مما ورد في موضوعها مبني على أن التشريح وقطع الأعضاء للأغراض الطبية من مصاديق المثلة..! والأمر ليس كذلك؛ لأن المثلة مأخوذ في مفهومها صدور الفعل فيها بقصد التنكيل، والعقوبة^(٥) التي دافعها الحقد والتشفي... وذلك منتف موضوعاً في الأغراض الطبية: دراسية أو

(١) الحر العاملي: الوسائل م: (١١) ب: (٣٣) (جهاد العدو وما يناسبه) ص: (٦٩)، دار أحياء التراث العربي/بيروت.

(٢) الحر العاملي: المصدر السابق م: (١٩) أبواب القصاص في النفس ب: (٦٢) ص: (٩٦).

(٣) سورة الإسراء: الآية: (٣٣).

(٤) الحر العاملي: الوسائل م: (١٩) ب: (٦٢) ص: (٩٥).

(٥) ابن منظور: لسان العرب م: (١١) مادة مثل ص: (٦١٤-٦١٥)، نقل ذلك عن ابن الأعرابي والجوهري.

علاجية، أو عدلية. وبانتفاء ذلك ينتفي موضوع النهي في هذه الأحاديث ومؤداه من الحرمة كما هو واضح.

الثاني: ما ورد من أحاديث تنهي عن قطع أعضاء الميت كصحيح ابن أبي عمير عن الإمام الصادق عليه السلام: أنه قال عليه السلام: (قطع رأس الميت أشد من قطع رأس الحي)^(١).

وعن محمد بن سنان عن أخبره عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: رجل قطع رأس الميت؟ قال عليه السلام: (حرمة الميت كحرمة الحي)^(٢)، وذكروا في وجه كونه أشد: أنه مثله كاشفة عن دناءة الفاعل^(٣).

الثالث: ومما يتصل بذلك في الدلالة ما ورد من فرض الدية على من يعتدي على الميت فيشرحه أو يقتطع بعض أعضائه.

ففي الصحيحة عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن عليه السلام: قال سئل أبو عبدالله عليه السلام عن رجل قطع رأس ميت فقال عليه السلام: (إن الله حرم منه ميتاً كما حرم منه حياً من فعل بميت فعلاً يكون في مثله اجتياح نفس الحي فعليه الدية... فسألت أبا الحسن عليه السلام فقال: (صدق أبو عبدالله هكذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله... قلت: فمن قطع رأس ميت، أو شق بطنه، أو فعل به ما يكون فيه اجتياح نفس الحي، فعليه دية كاملة؟ فقال عليه السلام: (لا، ولكن دية الجنين قبل أن تلج

(١) الحر العاملي: الوسائل م: (١٩) ص: (٢٤٩-٢٥١).

(٢) نفس المصدر والموضع.

(٣) الروحاني: المسائل المستحدثة ص: (١١٨).

١٢٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
فيه الروح، وذلك مائة دينار^(١).

وعن إسحاق بن عمار عن الصادق عليه السلام قال: قلت ميت قطع رأسه؟ قال عليه السلام: (عليه الدية...) فقلت: من يأخذ ديته؟ قال عليه السلام: (الأمام عليه السلام (الحاكم الشرعي) هذا لله، وإن قطعت يمينه، أو شيء من جوارحه فعليه الارش للأمام)^(٢).

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن هذه الأحاديث بحكم المناسبة والموضوع واردة في المسلم خاصة وهناك نصوص في نفس الباب بعضها بنفس صيغة هذه الأحاديث ذكر المسلم فيها فيحمل المطلق منها على المقيد، لأن من ثبتت له الحرمة ميتاً كما هو لو كان حياً مطلقاً هو المسلم وأن منع الاعتداء على من حقن الإسلام دمه في الحياة (كالذمي) إنما هو التزام بشروط الذمة وإذا كان الاعتداء عليه بعد الموت بمثل هذا العمل حراماً فليس لهذا العنوان بل لعنوان آخر كالمثلة، وقد ذكرنا أن التشريح لأغراض علمية أو طبية خارج موضوعاً قال السيد السبزواري (رحمه الله): (وأما غير المسلم فيجوز (يعني تشريحه) مطلقاً ولا دية فيه)، قال في الشرح: (لأنه لا حرمة له أما غير الذمي فمعلوم فإنه لا حرمة له حياً فكيف بميته وأما الذمي فحرمة متقومة بحياته، وأن ديته ثمانمائة درهم كما هو المنساق من الأدلة فإذا

(٢) الوسائل: م: (١١) ص: (٢٤٧-٢٤٨)، السيد الموسوي الخوئي: مباني تكملة المنهاج م: (٢) ص: (٤٢١-٤٢٢).

مات يخرج عن الذمة نعم لو شرط في عقد الذمة مراعاة احترام أموالهم كأحيائهم يجب الوفاء^(١).

وممن جوز تشريح الكافر بكل أقسامه والمشكوك الإسلام السيد الموسوي الخوئي^(٢)، والشيخ زين الدين^(٣) (رحمهما الله).

وذهب فقهاء آخرون إلى شمول الأحاديث المطلقة في حرمة الميت لمن حقن الإسلام دمه في حياته وفرض الدية على من اعتدى عليه، ولأن للذمي الملتزم بشروط الذمة - كما ورد - ما لنا وعليه ما علينا.

ومن هؤلاء السيد الروحاني^(٤) وأن أجاز تشريحه كما هو الأمر في المسلم عنده لأغراض طبية وأسقط الدية لأن الجواز يسقطها عنده... ورأى الفقيه المرجع السيد الحسيني السيستاني (مد ظله): (أن الاحوط لزوماً الاجتناب عن تشريح بدن الكافر المحقون الدم في حال الحياة).

وقال بعد ذلك: (نعم إذا كان ذلك جائزاً في شريعته مطلقاً أو مع أذنه في حال الحياة، أو أذن وليه بعد الوفاة فلا يبعد جوازه حينئذ^(٥) وأما المشكوك كونه محقون الدم في حال الحياة فيجوز تشريح بدنه إذا لم

(١) مهذب الأحكام: م: (٢٩) ص: (٢٧٤-٢٧٥).

(٢) مستحدثات المسائل: ص: (٤٠).

(٣) المسائل المستحدثة: ص: (١٩).

(٤) الروحاني: المسائل المستحدثة ص: (١٢٠).

(٥) لا يرى حفظه الله: كفاية أذن المسلم في حياته في رفع الحرمة ولا أذن أوليائه بل لا يجوز لهم ذلك.

١٢٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
تكن أمانة على كونه كذلك^(١). وأما الاستدلال على حرمة التشريح
بما ورد في الثالث من فرض الدية... فيقوم على تصور كونها عقوبة
يستفاد من فرضها على الفاعل حرمة العمل. ويناقش ذلك: بأن الدية
مفروضة في موارد الخطأ وهو ليس حراماً، وصاحبه ليس معاقباً.

الرابع: ما نص على حرمة المؤمن والمسلم خاصة فعن محمد بن
مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث وفاة الحسن عليه السلام ودفنه: (ان الله
حرم من المؤمنين أمواتاً ما حرم منهم أحياء)^(٢).

وعن ابن أبي عمير عن جميل بن صفوان: قال: قال أبو عبد الله:
(أبى الله أن يظن بالمؤمن ألا خيراً، وكسرك عظامه حياً، وميتاً سواء)^(٣).

وبناءً على هذه الأدلة معطوفاً بعضها على بعض، ولأن التشريح
واقطاع الأعضاء يناهى الحرمة - وأن لم يكن للمثلة - أفتى الفقهاء
المراجع بجرمة تشريح المسلم الميت وأجازوه في الكافر كما مر إلا محقون
الدم في نظر بعضهم كما مر قال السيد أبو القاسم الخوئي: (لا يجوز
تشريح الميت المسلم)^(٤)، وقال السيد السبزواري: (يحرم تشريح المسلم

(١) المستحدثات من المسائل الشرعية: ص: (٧٣).

(٢) الحر العاملي: الوسائل م: (١٩) باب: (٢٥) من أبواب ديات الأعضاء ص: (٢٤٩) -
(٢٥٠).

(٣) نفس المصدر والموضع.

(٤) منهاج الصالحين: م: (٢) ص: (٤٠٦)، مستحدثات المسائل ص: (٤٠).

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ١٢٦
لأي غرض كان^(١) ، وقال الشيخ زين الدين: (يحرم تشريح بدن الميت
المسلم وتقطيع أجزائه)^(٢).

وبمثل ذلك أفتى الفقهاء الآخرون ومنهم السيد السيستاني^(٣) ،
والسيد الحكيم^(٤) ، والشيخ محمد إسحاق الفياض^(٥) ، وغيرهم بدون
استثناء، وأن لا أثر لأذن الميت في حال الحياة أو وصيته في الجواز ورفع
الحرمة بل لا يجوز له أن يأذن^(٦) ، إلا لدى السيد أبو القاسم الموسوي
الخوئي (رحمه الله) فقد أستظهر جواز التشريح لو أوصى بذلك^(٧) ،
وأنفق الجميع باستثناء السيد السبزواري كما سيأتي على أن الأذن حال
الحياة أو الوصية تسقط الدية فقط.

ولكن هل تحريم تشريح المسلم واقتطاع أعضائه لما جعل الله له من
حرمة مطلق وفي كل حال؟ أم يوجد من العناوين ما يوجب تعطيله
وتجاوزه؟ لكي نتعرف على ذلك علينا أولاً أن ننظر الأحاديث المروية

(١) مهذب الأحكام: م: (٢٩): ص: (٣٧٤).

(٢) المسائل المستحدثة: ص: (١٨).

(٣) المستحدثات من المسائل الشرعية: ص: (٧٣).

(٤) فتاوى طبية: ص: (٨٩).

(٥) صورة عن أجوبة أسئلة د. عادل.

(٦) السيد السبزواري: مهذب الأحكام م: (٢٩): ص: (٣٧٧)، راجع زين الدين:

المسائل المستحدثة ص: (١٨)، والسيد الحسيني السيستاني: ص: (٧٥)، والسيد

الحكيم: مسائل مستحدثة في الطب ص: (٤٢).

(٧) السيد الخوئي: مستحدثات المسائل ص: (٤١).

١٢٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان
عن أوصياء الرسول ﷺ في جواز التشريح وموارده.

جواز التشريح

عدا ما تقتضيه الضرورة، وتقديم الأهم على المهم أو المصلحة
الأقوى التي تعطل أدلة الحرمة في مواردنا فإن هناك أحاديث شريفة
خاصة عطلت أدلة حرمة التشريح في موارد منها:

١- ما ورد عن وهب بن وهب عن الأمام الصادق عليه السلام قال: قال
أمير المؤمنين علي عليه السلام: (إذا ماتت المرأة وفي بطنها ولد يتحرك يشق
بطنها، ويخرج الولد)^(١).

٢- وقال عليه السلام في المرأة يموت في بطنها الولد فيتخوف عليها؟ لا
بأس أن يدخل الرجل يده فيقطعها، ويخرجه، وفي بعض رواياته: إذا لم
ترفق به النساء^(٢).

٣- وعن ابن أبي عمير عن الصادق عليه السلام في المرأة تموت، ويتحرك
الولد في بطنها؟ أبشق بطنها، ويخرج الولد؟ فقال عليه السلام: (نعم، ويخاط
بطنها)^(٣).

٤- وفي موثق علي ابن يقطين (رحمه الله) قال: سألت العبد
الصالح عليه السلام عن المرأة تموت وولدها في بطنها؟ قال عليه السلام: (يشق بطنها،

(١) الحر العاملي: الوسائل م: (٢) باب: (٤٥) من أبواب الاحتضار ص: (٦٧٣).

(٢) المصدر السابق: م: (٢) ص: (٦٧٣-٦٧٤).

(٣) نفس المصدر والصفحات.

وعلى أساس ما تقدم من الأدلة أجاز فقهاء الإسلام تشريح جسم المسلم الميت، واقتطاع ما تفرضه الضرورة من أعضائه إذا توقفت على ذلك حياة فرد آخر من المسلمين، ولم يكن له بديل من الكفار أو مشكوكي الإسلام، قال السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (رحمه الله): (لو توقف حفظ حياة مسلم على تشريح بدن ميت مسلم ولم يمكن تشريح بدن غير المسلم، ولا مشكوك الإسلام ولم يكن هناك طريق آخر لحفظه جاز ذلك)^(٢)، وبمثله أفتى الشيخ زين الدين (رحمه الله)^(٣)، والسيد الحسيني السيستاني^(٤)، والسيد الحكيم^(٥)، والسيد الصدر^(٦).

ورأى بعض الفقهاء: أن الضرورة التي تجوز تشريح المسلم أو اقتطاع بعض أعضائه هي الضرورة الخاصة التي تتوقف فيها على ذلك حياة فرد مسلم آخر وذلك هو ما وردت فيه النصوص كما تقدم، ولم يميزوا التشريح واقتطاع الأعضاء للضرورة العامة كالدراسة مثلاً بل نص بعضهم على ذلك، قال السيد السبزواري (رحمه الله): (لو توقف

(١) نفس المصدر والموضع.

(٢) مستحذات المسائل: ص: (٤٠)، منهاج الصالحين م: (٢) ص (٤٠٦) ط: (٢٥).

(٣) زين الدين: المسائل المستحدثة ص: (٢٠).

(٤) المستحذات من المسائل الشرعية: ص: (٧٤).

(٥) فتاوى طيبة: ص: (٩٢).

(٦) فقه الطب: ص: (١٢).

١٢٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
إنقاذ حياة مسلم على التشريح ولم يمكن تشريح غير المسلم يجوز ذلك،
وأما لمجرد التعليم أو التعلم فلا يجوز ما لم يكن أهم في البين كإبقاء حياة
مسلم^(١).

وقال السيد الحسيني السيستاني (حفظه الله): (لا يجوز تشريح
جسد الميت المسلم لغرض التعلم وغيره إلا إذا توقفت عليه حياة مسلم
آخر وأن كان في المستقبل)^(٢)، وقال السيد الحكيم: (يحرم تشريح
جسد الميت المسلم حتى لغرض الدراسة، وأما غير المسلم فيجوز ذلك
فيه)^(٣).

وأجاز التشريح لغرض الدراسة فقهاء آخرون مستنديين إلى
الضرورة الاجتماعية الصحية العامة، وأن تعلم الطب وهو واجب
كفائي لا يتم دون ذلك ثم أن الضرورة العامة تنتهي إلى الضرورات
الخاصة.

قال الشيخ زين الدين في المسألة ٢٩: (إذا توقف تعلم علم الطب
على تشريح بدن الميت ولم تكف عنه وسيلة أخرى ولم يوجد بدن ميت
كافر أو مشكوك الإسلام والكفر ولم يمكن التعلم بالحضور عند من
يشرح الميت وهو ينظر إليه جاز حين ذلك تشريح بدن المسلم ويجب أن

(١) مهذب الأحكام: م: (٢٩) ص: (١٧٥).

(٢) عبد الهادي الحكيم: فقه المغتربين ص: (٢١٢).

(٣) فتاوى طيبة: ص: (٨٩).

يقتصر مع ذلك على مقدار الضرورة التي يقتضيها التعلم^(١).

وقال السيد الروحاني: (فيمكن القول بجواز التشريح في هذا الزمان لمتعلمي الطب، وذلك لأن التشريح مما يتوقف عليه تعلم الطب الموجب لحفظ حياة المسلمين وأنجائهم من الأمراض، ولا ريب في أن هذا غرض مطلوب للشارع ومصلحته أقوى من مفسدة التشريح)^(٢).

وقال السيد محمد الصدر: (التشريح جائز للدراسة وبمقدار الحاجة في ما يتوقف عليه تعلم الطب مما هو في مصلحة المجتمع)^(٣).

وقال الشيخ محمد إسحاق فياض: (حيث أن مهنة الطب واجب كفائي، ولا بد من قيام جماعة به لإشباع متطلبات المجتمع صحياً وإنقاذ حياة أفراد من التهلكة، والخرج فلذلك يجوز القيام بالتشريح حتى إذا كانت جثة الميت لإنسان مسلم لغرض الوصول إلى هذا الهدف العام وذكر لذلك شروطاً يمكن أن تراجع في محلها)^(٤).

وفي إجابة حول جواز شراء الجماجم والعظام لغرض الدراسة خارج الكلية أجاب: (نعم يجوز، ولا بأس بشرائها لغرض الدراسة عليها والاستفادة منها، ولا فرق في ذلك بين أن تكون تلك الجماجم

(١) المسائل المستحدثة: ص: (١٩).

(٢) الروحاني: المسائل المستحدثة ص: (١٢٠).

(٣) فقه الطب: ص: (١٢).

(٤) أجوبة لأسئلة د. عادل (مصورة).

١٣١ في الدين والعلم والحياة والإنسان
والعظام لإنسان مسلم أو كافر^(١).

التشريح في الطب العدلي

لا يميز الفقهاء التشريح في الطب العدلي، إلا إذا توقفت عليه حياة فرد أو أفراد من المسلمين أما لغير ذلك فحرام.

قال الفقيه الشيخ محمد أمين زين الدين (رحمه الله) : (يستثنى من حرمة تشريح بدن الميت المسلم ومن بحكمه ما إذا توقفت على تشريحه حياة فرد مسلم، ومثال ذلك ما إذا ادعى بعض أولياء الميت أنه مقتول بالسم ونحوه من الأسباب التي تخفى على عامة الناس، وارتقب أن تحدث من ذلك فتنة توجب إراقة دم وجعلت كلمة الفصل في ذلك إلى الطبيب الموثوق وتوقفت معرفة سبب الموت على تشريح بدن الميت، ولا طريق سوى ذلك فيجوز للطبيب تشريح البدن ليعرف سبب الموت ويقول كلمته في الأمر^(٢). وبقریب من هذا أفتى السيد الروحاني^(٣) والسيد محمد الصدر^(٤).

وهو بهذه الصورة مما لا مجال للخلاف فيه لأنه يستند إلى نفس ما أجازوا به تشريح المسلم أصلاً لدى الجميع وهو الضرورة الفعلية الخاصة وتقديم الأهم على المهم.

(١) أجوبة لأسئلة د. عادل (مصورة).

(٢) المسائل المستحدثة: ص: (١٨).

(٣) مسائل مستحدثة: ص: (١٢٠).

(٤) فقه الطب: ص: (١٢).

رؤية ولمس الأعضاء الجنسية

لدى الدراسة وزرع الأعضاء

مما يتصل بالتشريح والمعالجة وزرع الأعضاء ويلازمها كثيراً في بعض الفروع الجراحية خاصة النظر للأعضاء الجنسية وهو محرم للجنس المماثل والمخالف معاً.. ألا انهم أجازوه لدى الضرورة العامة عند من يراها بفهم تؤول معه إلى الضرورة الخاصة وفي الضرورة الخاصة التي يتوقف فيها دفع الضرر عن مسلم -ولو في المستقبل- على ذلك.

قال الشيخ زين الدين (رحمه الله): (إذا توقف تعلم الطب على النظر إلى العورات المحرمة، أو لمسها كالفروع التي تختص بأمراض الأجهزة البولية أو الأجهزة التناسلية أو التوليد ولم تكف عن النظر واللمس وسيلة أخرى يضعها العلم بأيدي الطلاب لهذه الغاية كالأجهزة الصناعية جاز حين ذلك)^(١).

وقال السيد الحسيني السيستاني (دام ظله): (لا يحق لطالب الطب النظر إلى عورة أحد أثناء التدريب على المهنة إلا إذا توقف عليه دفع ضرر عظيم عن مسلم ولو في المستقبل)^(٢).

(١) المسائل المستحدثة: ص: (١٩).

(٢) فقه المغتربين: ص: (٢١٣).

وقال السيد الحكيم (دام ظله) في إجابة حول ذلك: (يحرم عليهم القيام بذلك إذا أستلزم النظر المحرم ألا أن يتوقف عليه التعلم الواجب كفاية من أجل سد حاجة المؤمنين المتوقعة)^(١).

وقال السيد محمد الصدر في إجابته التي يميز فيها التشريح بالقدر الذي يتوقف عليه تعلم الطب قال: (حتى لو لزم منه النظر إلى العورة ويكون الزائد على ذلك حرام)^(٢).

ثبوت الدية مع جواز التشريح

ذهب بعض الفقهاء خلافاً للأكثر منهم: إلى سقوط الدية لدى القول بجواز التشريح، قال السيد الروحاني: (ان في قطع رأس الميت أو عضو من أعضائه الدية كما أفتى الأصحاب، ودلت على ذلك النصوص، ولكن في مورد جواز التشريح لا يثبت شيء من الدية كما هو الشأن في جميع الأعضاء من السن وغيره وقد دلت عليه النصوص)^(٣).

ولكنه نوقش: بأنه لم يظهر كون ثبوتها بالنظر إلى التحريم ليحكم بعدم ثبوتها بانتفائه لفرضها في موارد الخطأ^(٤).

(١) مسائل مستحدثة في الطب: ص: (٣٥).

(٢) فقه الطب: ص: (١٢).

(٣) مسائل مستحدثة: ص: (٢٠).

(٤) مضمون إجابة خاصة خطية من الفقيه المرجع السيد الحسيني السيستاني (حفظه الله)

بتأريخ ٣ محرم ١٤١٩ هـ.

أما النصوص التي رأها دالة على ذلك فهي ما ورد من سقوط الدية في القصاص و الحدود، ولكن القياس، وتعميم الحكم فيها على أساسه غير وارد، لأنها حكم الشارع الذي يجب تنفيذه حفظاً لحياة الناس وحماية لأمنهم وقد دلت النصوص على سقوط الدية فيها خاصة أمثال ما ورد عن الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (أي رجل قتله الحد أو القصاص فلا دية له)^(١).

ومثله عن محمد بن مسلم عنه عليه السلام وأحاديث أخرى عن وأشار بعض الأحاديث إلى أن فرض الدية في الحدود يؤدي إلى تعطيلها كرواية الكناني^(٣).

ولذلك لا مجال لتعميم الحكم بسقوط الدية في هذه الأحاديث إلى ما وراء مواردنا... وتبقى أدلة فرض الدية مطلقة شاملة لحالتي الحرمة والجواز معاً؛ لأن الجواز التكليفي لا ينافي الضمان الوضعي إلا إذا اسقط الشارع أو الحاكم الشرعي الدية لمصلحة موجبة لذلك بناءً على ولايته لمثل ذلك^(٤).

وبناءً عليه رأى بعض الفقهاء وجوب دفع الدية حتى في الحالات التي يجوز فيها تشريح المسلم، واقتطاع الأعضاء منه وبحسب القدر

(١) الوسائل: م: (١٩) أبواب قصاص النفس باب: (٢٤) ص: (٤٧).

(٢) نفس المصدر: م: (١٩) ص: (٤٦-٤٧).

(٣) نفس المصدر والموضع.

(٤) مهذب الأحكام: م: (٢٩) ص: (٣٧٦).

المذكور لكل عضو في كتاب الديات من الفقه الإسلامي.

ومن هؤلاء السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي^(١)، والسيد السبزواري^(٢)، والشيخ محمد أمين زين الدين^(٣)، والسيد الحسيني السيستاني^(٤)، والسيد الحكيم^(٥).

سقوط الدية بالوصية حال حياته

أفتى أكثر الفقهاء بسقوط الدية - كما أشرنا سابقاً - لو أذن الميت بالتشريح حال حياته، أو أوصى بذلك باعتبارها حقاً له، وأن لم يسقط اذنه أو وصيته حرمة تشريحه، واقتطاع أعضائه ألا لدى السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي (رحمه الله) وقد قدمنا ذلك، ولا أثر لأذن أوليائه بشيء من ذلك^(٦). أما السيد السبزواري فيرى: (أنه لا يجوز لأحد الأذن في قطع أعضاء جسده بعد الموت وكذا لأوليائه ولو أذن لا تسقط الدية لأن الحكم وفرض الدية من سنخ حق الله تعالى لا من قبيل حق الناس محضاً)^(٧).

(١) مستحدثات المسائل: ص: (٤١).

(٢) مهذب الأحكام: م: (٢٩) ص: (٣٧٦).

(٣) المسائل المستحدثة: ص: (١٨).

(٤) المستحدثات من المسائل الشرعية: ص: (٧٤).

(٥) فتاوى طبية: ص: (١٠١).

(٦) المصادر السابقة نفسها.

(٧) مهذب الأحكام نفس الجزء ص: (٣٧٧).

مصرف الدية البر والخيرات

ولكن لا يكون المورث موروثاً، لأن المال المدفوع إزاء تشريحه واقتطاع بعض أعضائه حصل بعد الموت لا قبله ولم يسبب الموت له كما في الدية التي يدفعها القاتل... فإن الورثة لا يستحقون هذا المال المدفوع دية، وإنما يصرف في وجوه البر والخير عن الميت وبذلك وردت الأحاديث عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، ففي صحيحة الحسين بن خالد التي ذكرناها في الدليل الثالث على حرمة التشريح، قال الإمام الصادق عليه السلام: (ديته - يعني الميت الذي قُطع رأسه - دية الجنين في بطن أمه قبل أن تلج فيه الروح، وذلك مائة دينار وهي لورثته - يعني عليه السلام ورثة الجنين - ودية هذا - يعني عليه السلام الميت - له لا للورثة)؛ قال: فقلت: فما الفرق بينهما؟ قال: إن الجنين أمر مستقبل مرجو نفعه، وهذا قد مضى وذهبت منفعته فلما مثل به بعد موته صارت ديته بتلك المثلة له لا لغيره يحج بها عنه، ويُفعل بها أبواب الخير والبر من الصدقة، أو غيرها^(١).

وهناك روايات أخرى بالمضمون نفسه وفي بعضها أن ديته تدفع للأمام (الحاكم الشرعي) وجمعوا بينها بأن دفعها إليه يُفعل له بها الخيرات^(٢). وبذلك أفتى السيد الفقيه المرجع الحسيني السيستاني (حفظه الله) قال: (ليس من حق الورثة الأذن في قطع عضو من ميتهم فضلاً

(١) الحر العاملي: الوسائل م: (١٩) باب: (٢٤) (أبواب ديات الأعضاء ص: (٤٤٧-٤٤٨)).

(٢) الحر العاملي: الوسائل م: (١٩) باب: (٢٤) (أبواب ديات الأعضاء ص: (٤٤٧-٤٤٨)).

عن أخذ المال بازائه، نعم، إذا توقف حفظ حياة المسلم على قطع عضو من ميت مسلم لألحاقه ببدنه جاز القطع عندئذ ولكن تثبت الدية على القاطع على الأحوط وتصرف في وجوه البر عن الميت^(١)، وبه أفتى السيد الحكيم^(٢) وفقهاء آخرون.

ورأى السيد محمد الصدر في إجابته لسؤال: أن ثمن بيع أعضاء الميت - إذا كان جائزاً - يعود لورثته^(٣)، ويبدو أنه يقصد وأن لم يذكر ذلك في السؤال ولا في الإجابة الميت غير المسلم كأهل الكتاب، إذا كان جائزاً في شريعتهم، لأنه لا مجال لافتراض الجواز في الميت المسلم.

ومع ذلك فإن ما يعطى من مال إزاء أعضاء الميت المقتطعة بعد موته لا يدخل في تركته الموروثة لحصوله بعدها، ولذلك فهو يرجع كما ورد في الأخبار للأمام (الحاكم لشرعي) وبه أفتى الفقهاء الآخرون.

بهذا أرجوا أيها الأخوة الأطباء وأيها الأساتذة المدعوون أن أكون قد عرضت أهم المسائل التي هي موضع التساؤل في الموضوع وأهم الآراء الفقهية حولها ومن الله التوفيق.

النجف الأشرف

عدنان البكاء

(١) إجابة خطية خاصة في ٣ محرم ١٤١٩.

(٢) إجابة شفوية .

(٣) فقه الطب : ص: (٦٢).

البحث الثالث

الاستنساخ

الحيواني والبشري والهندسة الوراثية

من الناحيتين الفلسفية والفقهية

الاستنساخ الحيواني والبشري والهندسة الوراثية

من الناحيتين الفلسفية والفقهية^(١)

الفصل الأول: حول عالم الخلية.

فليُنظر الإنسان ممَّ خلق^(١)

(١) المحاضرة التي ألقى الباحث ملخصها في الندوة العلمية التي أقامتها نقابة الأطباء في النجف الأشرف في ١٩٩٧/٩/٢٩ في قاعة رئاسة جامعة الكوفة، بالتعاون مع كلية الطب في الجامعة ورئاسة دائرة صحة النجف وبالإشتراك مع الأستاذ الدكتور عقيل عبد ياسين مساعد رئيس الجامعة ورئيسها بعد ذلك وإدارة الدكتور محمد محيي التلال نقيب الأطباء في النجف الأشرف.

ثم ألقى في المؤتمر الطبي الرابع (الندوة العلمية الأولى) ١٩٩٧/١٢/٢٩ لدائرة صحة بابل بدعوة من اللجنة العلمية وبالإشتراك مع الأستاذ الدكتور عقيل عبد ياسين مساعد رئيس جامعة الكوفة وإدارة الدكتور نبيل عباس رئيس قسم القلبية والباطنية في مستشفى مرجان ثم حاضر الباحث في الموضوع نفسه بدعوة من الدكتور فوزي الزبيدي عميد كلية العلوم رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر العلمي الرابع لجامعة بابل في الشهر الرابع من عام ١٩٩٨ الندوة الأولى بالإشتراك مع الدكتور ناهي ياسين رئيس مركز مكافحة السرطان في العراق وإدارة الدكتور عباس الشريفي أستاذ الأمراض القلبية والباطنية في كلية الطب/جامعة بابل .

يبدو لي: ان من المفيد -ان لم يكن من اللازم- قبل تحديد موضوعي حديثنا المترابطين: الاستنساخ الحيواني، والبشري والهندسة الوراثية وبيان وجهة النظر الإسلامية فيهما من الناحيتين الفلسفية والفقهية ان نطل أولاً على عالم الخلية - كما يراه علماء الحياة - فهو الأساس الطبيعي للتنتائج النظرية والتطبيقية التي تهز العالم العلمي منذ عدة عقود من الزمان بما أشرته من عالم كوني مترامي الأبعاد.....

ثم ان معرفة سعة وعمق وتعقيد عالم الخلية يكون أحد الركائز الهامة لتحديد الموقف حول موضوع البحث فلسفياً والذي نعتمده في مناقشة الأساس لبعض الآراء السلبية في الموضوع وإذا كان من المتعذر ان نعطي في مقدمة مختصرة - ما يبلغ حد الكفاية - عن الخلية في عالمها الرحب العجيب فلا أقل من التأشير لبعض جوانبه التي يحددها الغرض في هذا التمهيد طبقاً لما كتبه عنه المختصون قالوا:

الخلية: أصغر وحدة للمادة الحية، وهي قد تكون بمفردها كائناً حياً فتتعامل مع المحيط مباشرة، وتقوم بكل الوظائف والفاعليات الحياتية المعقدة الخاصة بها كما هو في الكائنات الوحيدة الخلية، وقد تكون إحدى الوحدات ضمن كيان حي واحد يضم عدداً هائلاً منها... فالبويضة الأنثوية البشرية المخصبة تصبح بعد (٥٠) خمسين انقساماً متسلسلاً أكثر من ١٠ ١٥ خلية وفي النظرة الأولى للخلية. تجد أنها تتكون من:

١٤٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان

سائتوبلازم: يحتوي على عدد من التراكيب الهامة، ويحيط به جدار الخلية وهو الذي يشكل الجزء الأكبر منها.

نواة: وهي - مع غض النظر عن مكوناتها- الجزء المركزي في الخلية فالقليل الفاقد لها كأقراص الدم الحمراء يكون محدود الفعالية غير قادر على النمو والانقسام^(١).

ان أهم ما تحتويه النواة، الخيوط الصبغية (الكروموسومات) وعددها ثابت بالنسبة لكل نوع من أنواع الكائنات الحية، لقد أوضحت الدراسات العلمية ان هذه الخيوط عبارة عن جزئ كبير يظهر على شكل شريطين متقابلين ملتويين بصورة لولبية، أو حلزونية، ويتألف من وحدات مترابطة تدعى (نيكابتيدات) وهذه بدورها تتألف من جذر فسفوري ونتوء ناقص (ذرة أو كسجين) ومن قاعدة نيتروجينية... ويمثل تتابع القواعد النيتروجينية المتقابلة المتسلسلة على هذا الشريط المزدوج الذي يدعى شريط DNA المعلومات الوراثية (الجينات) ويحملها عنه للتنفيذ جزئ آخر رسولي يدعى RNA وبفعالية الجينات وسيطرتها يتكون، ويتحدد نوع البروتين الذي يحدد خواص الخلية^(٢).

وكمثل بسيط نذكر أنه لكي يتم بناء خلية دم حمراء فأن على ٢٦٠ مليون جزيئة هيموغلوبين أن تتحد لكي تكونها وتتم السيطرة على هذا

(١) د. محمود حياوي: كتاب (الخلية) ص: (١٤ و١٦ و٤٨ و٥٨).

(٢) نفس المصدر ونفس الصفحات، ود. محمود حياوي: تطور إمكانية التدخل الوراثي في الجنين مجلة العلوم: (٩٢) ص: (١٨) سنة ١٩٩٧.

العدد الهائل من الجزيئات البروتينية المتشابهة التي تكون كل خلايا الدم الحمراء المطلوبة في الجسم دون ان يحدث خلل في تصنيفها بواسطة التعليمات المحمولة - كما شاء الخالق سبحانه - على المورثات، والتي تخضع لها الخلية خضوعاً تاماً... ان هذه التعليمات تتضمن إعطاء الأوامر للأحماض الأمينية لكي تتسلسل في تعاقب معين، وخاص بجزيئة الهيموغلوبين، ان شريط DNA (حامل الشفرات الوراثية) هذا لا يجاوز في بعض أنواع البكتريا - لو مددناه - مليمترأ واحداً لكنه - رغم ذلك - ينتج (٣٠٠٠) ثلاثة آلاف نوع من البروتين وبيعاز منه تستطيع البكتريا ان تفرز نسخة مطابقة لها في كل عشرين دقيقة تحمل الشريط الوراثي نفسه.

أما في الإنسان فانه يبلغ من الطول في الخلية الواحدة - لو أمتد - أكثر من ألف ضعف مما هو في البكتريا، ولا يمثل هذا الرقم إلا جزءاً ضئيلاً من إمكانياته... أما في مجموع خلايا الإنسان فانه يبلغ مدى أكثر مما بين الأرض والشمس^(١).

ونقل بعض الكتاب العلميين عن بعض علماء الخلية، ان شريط DNA في الخلية الواحدة يشفر معلومات تساوي موسوعة عملاقة من ٤٦ مجلداً تضم ما يقارب مليون صفحة في الوقت الذي لا تحتوي الموسوعة العلمية البريطانية التي تعطى خلاصات علمية للعلوم البشرية

(١) د. موريس بوكاي، أصل الإنسان ص: (٢٢٧، ٢٢٦).

١٤٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
بعامة إلا أربعين ألف صفحة فقط^(١).

وأثبت العلماء الذين توصلوا في هذا العام إلى وضع الخريطة الوراثية في الجسم البشري (الجينوم): ان في جسم الإنسان ثلاثة مليارات شفرة وراثية، فكم يكون عدد ما تشفره بمجموعها من معلومات إذاً؟.

ان شريط DNA هو المسؤول واقعياً عن تحديد صفات الكائن والخصوصيات المتصلة به وهو المسؤول عن تحديد موروثه التاريخي المنحدر إليه عن آباءه، وأمهاته عبر الأجيال وهو الذي يرسم مستقبله المرتبط بذلك جملة... بل هو أيضاً الذي يتحكم بأنواع التخصص لخلاياه التي ذكرنا أنها تقدر بـ (١٥ ١٠) دون إستثناء وهو الذي يحدد مواقعها، وأحجامها، وأشكالها، وفعاليتها، وأعمارها.

فإن الخلايا - كما هو معروف - تتمايز خلال الانقسام المتكرر تدريجياً بحيث تصبح على صورة مجموعات تخصص كل مجموعة منها بوظيفة معينة في الجسم، وبصفات تركيبية محددة، وهي كما تختلف أحجاماً فتكون خلايا الجسم مثلاً ذات قطر بين (١٠) إلى (٤٠) مايكرون^(٢). وخلية البويضة (وهي أكبر خلية في الجسم ذات قطر يقرب من ١٠٠ مايكرون).. فأنها أيضاً تختلف أشكالاً فالخلايا العصبية، وخلايا العضلات الهيكلية تأخذ شكلاً خاصاً بها لا يشبه من هذه

(١) بلوت: دارون ونظرية التطور ص: (٢٦، ٢٧).

(٢) المايكرون يعني ١٠ - ٦م أو (١/١٠٠٠٠٠٠) منه.

الناحية بقية الخلايا وتختلف الخلايا أيضاً أعماراً فبعض الخلايا نظراً لما لها من تخصص بالغ الأهمية قد يمتد عمرها مع عمر الشخص نفسه كالخلايا العصبية، ولا تعوض هذه الخلايا عند التلف لذلك أسموها (بالخلايا النبيلة) وألحقوا بها إلى حد ما الخلايا المخططة، وبعض آخر منها ينقسم بصورة بطيئة في الحالة الطبيعية مع إمكانية تحفيزها كخلايا الأنسجة الرابطة، وخلايا الغدد، والخلايا الدهنية.

أما البعض الثالث منها فتقسم بنسب سريعة، وعالية ومنتظمة، وعمر هذا النوع من الخلايا قصير كالخلايا الطلائية في الجلد، وبطانة القناة الهضمية، ومولدات أقراص الدم...

ويبدل الإنسان مليون خلية من هذا النوع في كل ثانية^(١)، أما القائم والمسيطر على ذلك كله، وعلى العمليات الحيوية داخل كل منها وعلى العلاقات التكاملية المتسقة بينها داخل الكيان الكلي فهو -وهذا من آيات الله- شريط DNA هذا الكومبيوتر الألهي المذهل في صنعه وإمكانياته.

البصمات البشرية

ان مما يذكر من الأمثلة الباهرة الأخرى على إمكانيات شريط DNA في السيطرة والتوجيه في النواحي التكوينية المختلفة في الجسم

(١) د. محمود حياوي/ (الخلية) ص: (٤٥). د. خالص جلبي: الطب محراب الإيمان

ج: (٢) ص: (١٢١، ١١٦).

١٤٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان
الإنساني ما يظهر من اختلاف البصمات البشرية... فقد قدر غالتون ان
لتكرار بصمة واحدة أقل من فرصة واحدة في كل أربع وستين ملياراً
من البشر^(١). وليس من المتوقع ان يحدث ذلك زمنياً إلا في كل ٤٠٠٠
عام مليون سنة^(٢).

ويقول مؤلفا علم البصمات: أنه لم يحدث حتى الآن ان طبقت
أنطباعة شخص ما انطباعة شخص آخر^(٣).

ولهذه الدقة التي لا يحيط العقل بها في رسم خطوط الهوية
الشخصية من خلال البصمة وفي هذه المساحة الصغيرة ذكرها الخالق
سبحانه في كتابه قبل ان يعرف الإنسان ذلك دليلاً على قدرته في بعث
الإنسان بعد الموت فقال تعالى (بلى قادرين على ان نسوي بنانه)^(٤)
والإشارة تدخل ضمن الإعجاز القرآني دون شك لأنه سبق العلم في
ذلك.

ان الاختلاف الهندسي لجزيئات DNA في الخلية قدم- مضافاً
لذلك- حسب الإحصائيات: مليون نوع من الحيوانات ونصف مليون
نوع من النباتات وعشرة ملايين نوع مما قدروا أنه لم يصنف بعد لحد

(١) د. خالص جلبي: المصدر السابق ص: (٢٧١)، عن كتاب بصمات الأصابع لغالتون
ص: (٥٤).

(٢) فوزي الشنوي: جسمك وأسرار حياتك ص: (٧٦) العلم للجميع، القاهرة .

(٣) نظير شمس، وفوزي خضر: علم البصمات دراسة تطبيقية شاملة ص: (٨).

(٤) سورة القيامة الآية ٤ .

الآن وما يزيد على ذلك كله من الأنواع المنقرضة^(١)، بكل ما تحت هذه الأنواع من فروق شكلية خارجية أو داخلية ومن اختلاف في الفعاليات والأدوار وأسلوب الحياة في البر والبحر^(٢) (ويخلق ما لا تعلمون)^(٣).

يقول العلامة وليم داي: ان جميع المتعضيات على وجه الأرض اعتباراً من أبسط خلية مفردة، وصعوداً حتى الإنسان ذاته ما هي إلا ماكنات خارقة القدرات تقوم بلا جهد ولا عناء بتحويل جزيئات عضوية معقدة، وفرز أنماط سلوكية في غاية الدقة والأتقان منتجة من المواد الخام الموجودة في البيئة نسخاً بلا عد ولا حصر مطابقة لذاتها في كثير أو قليل... وتتألف العمليات الحياتية من خطوات متداخلة في تشابك مستغلق ومسيرة بضبط بالغ المهارة، ويتم في باطن الخلية العجيب البنية والتركيب في مناطق تخصصية إنجاز تفاعلات كيماوية معينة وتشير التقديرات إلى ان الخلية البشرية الواحدة تضم ١٠٠ ألف جزيئة إنزيمية تنجز ما بين ١٠٠٠ و ٢٠٠٠ تفاعل كيماوي كما ان القدرة الإنزيمية على التنفيق البيوكيماوي لا يقل بهراً وعجباً بل قل إعجازاً إذ تراوح وتيرة التحفيز لدى أغلب الإنزيمات ما بين ألف إلى أكثر من

(١) وليم داي: نشأة الحياة على كوكب الأرض، ترجمة يعقوب أبونا ص: (٢٧١).

(٢) ذكر الدكتور أحمد زكي في كتابه: في سبيل موسوعة علمية: ان في الأرض مائتي مليون نوع من الأحياء نباتية وحيوانية ص: (٥٤)، ويذكر في ص: (١٢٥) ان للخنافس وحدها ٢٥٠ ألف نوع.

(٣) سورة النحل الآية ٨.

١٤٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
خمسة ألف جزيئة في الدقيقة الواحدة^(١).

ولا يسعني - عند هذا - إلا أن أردد الآية الكريمة :

﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾^(٢)

(١) وليام داي: المصدر السابق ص : (٢٦٩).

(٢) سورة لقمان الآية ١١ .

النتائج النظرية والتطبيقية لاكتشاف عالم الخلية

لقد أدى اكتشاف عالم الخلية من الناحية النظرية والتطبيقية إلى نتائج بالغة الأهمية في الجانبين النظري والتطبيقي .

النتائج النظرية

أما من الناحية النظرية الفلسفية فإن من المعروف ان منطق الفلسفة العلمية حتى نهاية النصف الأول من هذا القرن أو قريباً منها كان يختلف مع الدين، والفلسفة العقلية في ان العلم التصديقي لديه إثباتاً ونفيّاً لا يقوم إلا على المشاهدة والتجربة دون الأوليات الفطرية، والبديهيات العقلية رغم انه وقع بذلك إبتداءً من الأسس في مأزق حرج جداً فإن التجربة كأساس للمعرفة التصديقية لم تثبت بالتجربة قطعاً لأن القضية لا تثبت نفسها، ومثل ذلك اتخاذ التعليل والمماثلة لتعميم نتائج المشاهدة والتجربة لعدم إمكان استيعاب التجربة لكل أفراد القضايا المتماثلة وكل الحالات في القضايا المعللة، ولذلك فإن هذا التعميم المادي التجريبي - شاء أم أبى - يرجع إلى مبدأين عقليين ضروريين هما مبدأ العلية وعدم اجتماع النقيضين، ومع تجويز وقوع الصدفة أو القول بإمكان اجتماع النقيضين^(١) لا مجال لإثبات التجربة ولا لصدق هذا التعميم كما هو واضح ...

(١) الصدر: فلسفتنا ص : (٧٩-٨١) البهادلي: محاضرات في العقيدة الإسلامية

ص:(٨٠-٨٧) .

وبغض النظر - عن هذه المناقضة الحادة في كيان المنطق النظري العلمي التجريبي - فإن مساحة رؤياه وعلاقته بالعالم كانت ضيقة جداً لا تكاد تتجاوز العالم المادي الحسي وهو كما يقول العالم الفيزيائي المعروف ديفيد بوم لا يشكل إلا نبضة صغيرة ضمن بحر الطاقة... أو شق في جدار كبير ركز الماديون نظرهم عليه حتى نسوا الجدار نفسه^(١)

وبناءً على ذلك كان بعض العلماء يقع أحياناً من الناحية المنطقية في زوايا حادة فلدى فقدان التفسير ضمن المنطق العلمي في ظاهرة ما حتى مثل نشوء الكون لأول مرة كانوا يحيلون إلى الصدفة وذلك ما ينافي منطق العلم نفسه - كما سترى - فإن الإيجاد من العدم والحركة من السكون لا يقبلان التعليل بالصدفة مطلقاً.

ولذلك دعا الفيلسوف العلمي المادي برتراندرسل: إلى الأخذ بالاستنباط أو الاستنتاج العقلي في بعض الموضوعات التي لا تتوفر فيها التجربة^(٢) وكان ذلك آخر مطافه تلافياً لما أحس به مما أشرنا إليه.

إن لنظريات احتمال المصادفة أسساً رياضية معروفة مكنت العلماء من التمييز بين ما يمكن حدوثه بطريق المصادفة وبين ما يستحيل حدوثه بها، وكان منطق القائلين بالصدفة يزداد تسطحاً وانتفاء كلما كشف العلم عمقاً جديداً في العوامل والعلاقات الدقيقة المتشابكة والمتداخلة بإتساق، وغائية في التكوين... ومن ذلك ما يبدو لنا لدى اكتشاف عالم

(١) جون ب بريجز: الكون المرآة .

(٢) ظفر خان : الدين في مواجهة العلم ص: (٣٥) / نقلاً عن مصادرها السابقة .

الخلية الرهيب المدهش.

فكان ذلك أحد المنطلقات التي أركز إليها العلماء طبقاً -لحساب الاحتمالات- في الحكم بنفي الصدفة كتفسير للخلق والحياة والنظم الرياضية الدقيقة في جوانب الكون على اختلافها بصورة مطلقة^(١) ...

نفي الصدفة

فلنقرأ من ذلك ما قاله البروفيسور أوبارين وهو بيولوجي روسي معاصر ومن الماديين المعروفين لكنه لم يجد مجالاً دون ان يرفض الصدفة في نشأة الحياة، ومما قاله: ان قوانين الكيمياء العضوية لا تستطيع تفسير العمليات ذات المستوى الرفيع الجارية في الخلايا الحية، وقال: ان شبكة التفاعلات الأيضية ليست منسقة تنسيقاً صارماً فحسب، وإنما هي موجهة أيضاً نحو الحفظ والتكاثر في إطار الظروف العامة التي تفرضها البيئة الخارجية، ولا يمكن ان يكون التكيف البالغ التعضية الذي يميز الحياة وليد المصادفة^(٢).

وتحدث أوبارين عما يلزم لتكوين أبسط المواد (يعني البروتين) الذي يحتوي -كما قال- كل نوع منها وبطراز خاص به على الآلاف من ذرات الكربون والهيدروجين والأوكسجين والنروجين .

(١) فرانك الن: نشأة العالم هل هي مصادفة أم قصد في كتاب : (الله يتجلى في عصر العلم) ص: (١٨).

(٢) بلوت: دارون ونظرية التطور ص: (٢٩).

١٥٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان

وقال: إنه يملك تركيباً معقداً غاية التعقيد، وأن الشخص الذي يقوم بتدقيق تركيب البروتينات يرى ان اجتماع هذه المواد، وتكونها من نفسها خارج الاحتمال والأمكان بعيد عنها كبعد تصور تكوين ملحمة الشاعر الروماني المشهور (وركل) والمعروفة بـ Aeneld من مجرد تناثر حروف الكتابة تناثراً عشوائياً^(١).

وفي سياق هذا المثل حسب الدكتور وليم بانت من جامعة بالابا: إمكانية ان تتكون جملة واحدة صدفة وليست قصيدة ولا ملحمة... هذه الجملة التي اختارها هي التي جاءت على لسان هاملت في إحدى روايات شكسبير: أن تكون أو لا تكون تلك هي القضية... فوجد ان نسبة احتمال ظهور هذه الجملة صدفة مرة واحدة تحتاج إلى أن يقوم مليون X مليون X مليون قرد بالضرب العشوائي المستمر لمدة تبلغ مليون X مليون X مليون مرة ضعف عمر العالم^(٢).

وإذا كان اكتشاف عالم الخلية المفرط في العمق، والتعقيد والسعة في الوظائف والمعطيات مع ما يبدو فيه للعلماء من تخطيط غائي وقصدي لا ريب فيهما قد أغلق من الناحية النظرية - طبقاً لما ذكرناه من

(١) د. موريس بوكاي: أصل الإنسان ص: (٦٢).

(٢) أميد شمشك : أسرار الذرة ص ١١٧ .

يرد هؤلاء العلماء وغيرهم على ما قاله جوليان هكسلي في بيان إمكانية الصدفة من إن ستة من القردة لو أعطيت آلات كتابة فضربت عليها ضرباً عشوائياً لملايين السنين لأمكن أن يفرز ما كتبه: مسرحية من مسرحيات شكسبير.

حساب الاحتمالات- القول بالصدفة...

النتائج التطبيقية

وإن التعرف عليه أيضاً ومن خلاله على طبيعة وتركيب الشفرات الوراثية في شريط DNA هو الذي قد فتح أمام العلماء- على الصعيد التطبيقي - آفاقاً واسعة تتمثل بمعطيات وتقنيات الهندسة الوراثية و الاستنساخ الحيواني ومع كونهما -إذا أخذ كل منهما بحد ذاته- موضوعين مختلفين إلا أنهما ترابطا من حيث المرحلة والتقيا من حيث التطبيق في الحيوانات المستنسخة والمهندسة وراثياً في آن واحد... ثم ان تقنيات الهندسة الوراثية تعتمد في تكثيرها للجينات المقطعة من شريط DNA في الحيوانات الراقية. الاستنساخ الذاتي الطبيعي السريع في البكتريا بتركيب هذه الجينات ضمن شريط البكتريا الوراثي لتتكاثر مع انقساماتها كل بضعة دقائق ولذلك كان علينا -لهذا الارتباط- التعرف عليهما معاً بتحديد موضوع كل منهما مع لمحة عن تقنيتهما وما قيل عنهما لهما أو عليهما، يمكننا بيان الموقف منهما دينياً من الناحيتين الفلسفية والفقهية. فما هو الاستنساخ؟ وما هي الهندسة الوراثية؟.

الفصل الثاني

تمهيد

الاستنساخ لغة واصطلاحاً^(١)

الاستنساخ في اللغة يعني: أخذ نسخة الشيء، أو نقله^(٢) وبهذا المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣).

وفي علم الحياة يعني الإستنسال بالخلايا الجسمية التي تحمل (الكروموسومات) كاملة بدلاً من الخلايا الجنسية المتزاوجة التي تحمل نصفها...

وذلك يقتضي الحصول على نسخة مماثلة تماماً للحيوان الذي أخذت منه نواة الخلية المزروعة من حيث التركيب الجيني (المورثات)

(١) نشر هذا البحث ابتداءً من هنا حتى آخر ما يتصل بالاستنساخ من الناحيتين الفلسفية والفقهيّة في مجلة النجف الطبي، العدد الأول سنة ١٩٩٩ التي يصدرها مركز التعليم الطبي المستمر في محافظة النجف الأشرف . ثم نشرته - نقلاً عن مجلة النجف الطبي - جريدة الفرات التي تصدر في النجف كل أسبوع في ثلاث حلقات ابتداءً من العدد: ٣/٣٢ رمضان ١٤٢١ هـ، ثم جريدة الرأي البغدادية ابتداءً من العدد: ١٢٠ / السنة الثالثة ٢٣ جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ .

(٢) الطريحي: مجمع البحرين م ٢ ص ٤٤٤ .

(٣) الآية ٩ من سورة الجاثية .

الذي يعطي للكائن صفاته المختلفة بما فيها شكله الخارجي، ولذلك سمي استنساخاً أو استنسالياً استنساخياً مقابل الاستنسال بالخلايا الجنسية المتزاوجة (من الذكر والأنثى) الذي لا ينتج مثل هذه المماثلة، والتطابق الكامل في الصفات بل يعطي نسخة جديدة مؤلفة من صفات الأبوين، أو من صفات آبائهما إذا كانت الوراثة غير مباشرة...

الاستنساخ طريقة طبيعية

والاستنساخ معروف كطريقة طبيعية في التكاثر في النباتات، وفي بعض الحيوانات اللافقارية كدودة الأرض مثلاً التي لو قطعت لتكاملت كل قطعة منها حتى تصبح كالأصل وفي البكتريا يتم استنساخ صورة منها كل عشرين دقيقة، ولكنه لم يكن وارداً علمياً حتى وقت قريب في الحيوانات الراقية لا لشيء إلا لأن الخلايا في هذه الحيوانات في ما بعد المرحلة الجنينية تخصص وتتمايز -رغم الأصل الواحد ابتداءً- وتختلف أحجاماً وأشكالاً ووظائف، وتصبح الجينات المسؤولة عن تقويم العضو الذي تشكل الخلية إحدى الوحدات المكونة له هي النشطة والفاعلة التي تعبر عن نفسها وتؤدي مهمتها في نقل الصفات الخاصة كما تحددها طبيعة ومهمة العضو الخاص في الجسم عظاماً كان أو عصباً أو عضلات أو شحماً أو جلدًا... وهكذا مما سبق ان تحدثنا عنه.

أما الجينات (المورثات) الأخرى، وذلك ما يجب الانتباه إليه كدليل على القصد والغائية في الخلق فليس لها أي دور كما لو كانت في حالة سبات، أو ما يشبه ذلك، ولم ير العلماء حتى وقت قريب: أن من

١٥٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان
الممكن إيقاظها وإعادة فعاليتها... ولذلك لم تكن توجد من قبل أية
طريقة للإستنسال والتكاثر في الحيوانات الفقرية واللبائن ومنها الإنسان
سوى طريق المزاوجة بين الخلايا الجنسية للذكر والأنثى داخل الرحم في
الجماع أو زرق السائل المنوي فيه أو في خارجه كالذي حصل في تقنيات
أطفال الأنابيب.

البدايات التاريخية لتقنيات الاستنساخ

لقد بدأت التجارب الأولى والمبكرة في تقنيات الاستنساخ التي تعني نقل نواة من خلية جسمية، وزرعها في بويضة أنثوية مسحوبة النواة في الخمسينات من هذا القرن على يد بزوكنك، ثم طورت في سنة ١٩٦٨ على يد كوردن الذي استنسخ من نوى خلايا أمعاء ضفدع نسخاً عديدة متشابهة تماماً... لكن ذلك كان على البرمائيات، وفي المراحل الجنينية ما قبل مرحلة تخصص الخلايا، ثم أجريت التجارب على الفئران، واستمرت تجري بصمت... إلى أن أعلن الدكتور أيان ويلموث والدكتور كنيث كامبل مع فريقهما البحثي في معهد روزالين باسكتلندا قيامهما باستنساخ شاة بزراع نواة خلية جسمية من ضرع شاة في بويضة سحبت نواتها ثم حفزت بنبضات كهربائية محسوبة فنشطت الجينات السابطة -وهذا هو الجديد- وأخذت الخلية طريقها في الانقسام الطبيعي، ثم زرعت في رحم الشاة لتولد بعد تمام الحمل الشاة التي سميت بـ (دولي) والتي حملت جميع الصفات الوراثية للشاة الأولى... ثم أعلن بعدها عن استنساخ شاة أخرى من الشاة الأولى أسموها (مولي) وتتابع الأخبار باستنساخ عدة حيوانات أخرى بهذه الطريقة في أمريكا وغيرها...

وقد زاوجوا بين تقنية الاستنساخ والهندسة الوراثية ليغيروا بعض صفات الحيوان أو أجزاء منه أو بعض إفرازات غدده إلى صفات أخرى

١٥٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
بشرية بما يتطابق والحاجات الطبية، كأنسجة بعض أعضائه الداخلية، و
كهرمون الأنسولين والدم والحليب وما شابه ذلك^(١)...

وقد قالوا: إنه لا يوجد من الناحية النظرية - لدى العلماء - ما يمنع
من تطبيق هذه التقنية على الكائن البشري حتى ان بعضهم رأى: ان
هذا التطبيق سيتم عملياً قبل نهاية هذا القرن... إلا ان هيئات دولية
ودينية مختلفة عارضت ذلك وحرمته^(٢) بعناوين أولية أو ثانوية وقد ناقش
الفقهاء ذلك كما سيأتي.

فوائد هذه التقنيات ومضارها

ذكر العلماء: ان تطبيق هذه التقنيات على الحيوانات سيكون مفيداً
دون شك لأنها ستيسر تكثير الحيوانات الراقية ذات المواصفات المتميزة
والمرغوبة دون كلفة فبدلاً من وسائل التضريب والتهجين الطويلة الأمد
سيمكن خلال عدة شهور الحصول على المئات من نسخ الحيوان المتميز
من الأبقار والأفراس وغيرها... أما في الإنسان فأنها ستفيد في معالجة
بعض أنواع العقم كفقدان الرجل لبيضته بسبب ما، وفقدان المرأة
لمبيضها وأشباه ذلك مما يمنع الإنجاب بالخلايا الجنسية وذكروا لها أضراراً
ومحاذير محتملة ستأتي الإشارة لبعضها في ما ساقه القائلون بحرمتها...

(١) مجلة ألف باء العدد: (١٥١٠) عدد تموز سنة ١٩٩٧ ص: (٢).

(٢) مجلة علوم العدد: (٩٢) سنة ١٩٩٧، الدكتور منير بني: استعادة الأعضاء المفقودة

ص ٢٦. د. عبد الرحمن الزعك: عصر الاستنساخ ص: (٢١)، الدكتور محمود حياوي:

إمكانية التدخل في التكوين الوراثي للجنين ص: (١٨).

منها ان تأثير العمر على التكوين الوراثي ما زال غير معروف وقد يكون عمر الكائن الحاصل من خلال تقنية الاستنساخ أقصر بكثير مما هو اعتيادي.

بعد هذا العرض الموجز للموضوع في حقيقته، وبداياته التاريخية وما يتصل بهما نعود لطرح ما أثير حوله من تساؤلات وأشكالات في الجانبين الفلسفي والعقائدي ثم في الجانب الفقهي من حيث الحكم التكليفي والحكم الوضعي

أولاً: الجانب الفلسفي والعقائدي

طرح البعض من هذا الجانب أمرين:-

الأول: تصور البعض مخطئاً: ان الاستنساخ الحيواني يطرح تحدياً للرؤية الدينية، ومفاهيمها في الخلق فهو خروج على دور الله وإرادته في الخلق بما ينتهي: -في ما زعموا- إلى ان يكون الإنسان خالقاً بطريقة تقابل الطريقة الإلهية مما يدعم النظرية المادية التي ترى: ان الخلق يتم بقوانين مادية محضة وهو تصور أقل ما يوصف به صاحبه إذا لم يكن جاهلاً أو ملحداً أنه في غفلة لأمر منها:-

أولاً: ان الاستنسال بالخلايا الجسمية (الاستنساخ) قائم كطريقة من الطرق التي خلقها الله تعالى للتكاثر في الطبيعة كما أشرنا لذلك - فيما سبق - ولم يتدعها الإنسان ابتداءً.

ثانياً: ان الله -تعالى- خلق العالم ابتداءً (وقد كان عدماً مطلقاً)، وضمنه -لدى خلقه- قوانين طبيعية تحكم- من اللحظة الأولى وحتى

١٦١ في الدين والعلم والحياة والإنسان

نهايته- كل مكوناته وظواهره، وتحكم مساره ومراحله وهذه القوانين هي التي تمثل دور الله وإرادته التكوينية في العالم وليس شيئاً آخر خارجاً عن كيان العالم نفسه كما هو في الإرادة التشريعية. وإذا فالاستنساخ جرى طبقاً لما عبأه الخالق سبحانه في تكوين الخلية من قوانين بيولوجية ووراثية وإمكانات سبق ان تحدثنا بإيجاز عن شيء منها وعن استحالة افتراض المصادفة فيها وهو ما يراه علماء الحياة أنفسهم. وأن كل ما جاء في تقنية الاستنساخ كما أشرنا لذلك هو اكتشاف العلماء: ان الجينات (المورثات) السابطة في شريط DNA في الخلية الجسمية يمكن ان تستيقظ، وأن من الممكن أيضاً لدى زرع نواتها في بويضة مسحوبة النواة ان تحفز على الانقسام والتكاثر مرة أخرى فتأخذ الخلقة مسارها باعتبارها خلية كاملة من حيث عدد الكروموسومات، وكما هو الأمر بالنسبة لخلية الزيجوت المؤلفة من الحويمن الذكري والبويضة الأنثوية أو الخلية الجسمية في المرحلة الجنينية (ما قبل مرحلة التخصص) وإن كان ما سترتب على ذلك ان تكون وراثية الكائن الناشئ عن ذلك من جهة واحدة... وهذا ما كان بالفعل -في غير الإنسان- تطبيقاً وواقعياً.

فالاستنساخ إذاً ليس ابتداءً ولا خلقاً مستقلاً مقابل خلق الله بل هو تقنية قامت على معرفة ما هو المعبأ والواقع في تكوين الخلية والقوانين التي طبعها الله داخلها ابتداءً لتمثل إرادته لها وفيها...

ثالثاً: ان العالم بما فيه الإنسان -كما ثبت البرهنة على الألوهية-

سواء ما كان منظوراً منه من جهة المخلوق بصفته ممكناً حادثاً^(١) أو من جهة الخالق بصفته أزلياً واجب الوجود كاحدى الذات احدى المعنى^(١)

(١) كل موجود ذي ماهية فهو محدود ، ومركب كما هو العالم ، وكما هي كل وحداته منفردة، أو مجتمعة في كيان واحد: لا يمكن ان يكون أزلياً بذاته، أو واجب الوجود... وإذا فهو - بما هو في نفسه - كان معدوماً ووجوده إنما هو بالغير، ولا غير لدى إلغاء الوسائط المماثلة إلا ما هو موجود بذاته سبحانه فوجود كل ذي ماهية عارض ممنوح وحين يكون كذلك فهو لا بد يكون ممكناً حادثاً فإن الحدوث متصل واقعياً بالإمكان فكل متغير منتقل من حالة إلى أخرى لا بد ان يكون ممكناً وتبعاً حادثاً لاستحالة تغير الأزلي وهو ما يراه الدين والفلسفة والعلم اليوم فطبقاً لنظرية الانفجار المدوي أو الهائل وهي النظرية الأكثر أدلة ورجحاناً لدى العلماء، يرى العلماء: ان العالم ليس أزلياً بل بدأ منذ خمسة عشر مليار سنة، والانفجار هذا لا يعني وجود كتلة مادية كانت مركزاً بدء منها بل يعني مجيء العالم دفعة واحدة من العدم بلحظة قدرت بـ ١٠/١ ٣٢ من الثانية بكل مادته وطاقته وقوانينه التي جاءت عندها كائناته وقوانينه. وحين وجد العالم كان الضغط لا متناه والحرارة لا متناهية، ولذلك لم تكن المادة موجودة. أما الذرات فلم توجد إلا بعد ١٠٠ ألف سنة من وجود العالم... وكما أثبت العلم الحديث أيضاً ان العالم سيفنى بدءاً من الذرة ومكوناتها كالبروتون الذي كان يظن انه أبدي وانتهاءً بالمجامع الشمسية والمجرات بما أطلق عليه السحق الهائل والذي ينتهي بالنجوم والمجرات إلى ان تكون ثقوباً سوداء... وبما انه لا مجال للصدفة في الإيجاد من العدم ولا مجال لها حتى بعد وجود العالم والمادة - طبقاً لما ثبت في الرياضيات في حساب الاحتمالات - وأذن فلا بد والعالم بهذا العمق وهذه السعة والدقة والتوازن والضبط والاتساق والترابط والجمال والغاية في كل جهة منه من الإيمان بالله سبحانه وقدرته اللانهائية، وهذا ما آمن به العلماء.

(١) أزلية الله ووجوب وجوده ذاتاً يقتضي بنفسه ان يكون احدياً وينفي ان يكون كما تقدم

١٦٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
كان معدوماً بما هو بذاته أصلاً بكل مكوناته الطاقة، والمادة، والقوانين
التي تحكمها، وتعطي الآثار المختلفة فيهما، وإنما وجد بمشيئة الله
سبحانه، وبالصورة التي أرادها وقدرها في كل ما كان وما يكون سواء
ما وجد منه بالأسباب المختارة أو اللامختارة... فلا استقلال لهذه
الأسباب، والقوانين بشيء عنه سبحانه...

وإذا لا مجال مطلقاً - لدى من وعي هذه البرهنة القاطعة - ان يخرج
عنده عن دور الله، وعن إرادته سبحانه شيء، أي شيء يتصل
بالتكوين، والخلق والقوانين المضمنة فيهما حتى اختيار المختار إنما كان
بمشيئته تعالى لا بمعنى الجبر على اختيار ما يختار بل بمعنى انه سبحانه
شاء له - بنفس صورة خلقه ابتداءً - ان يكون مختاراً فكل مخلوق مُنحه
الله الحياة والقدرة والعلم فهو مختار ما دام كذلك، ولم يسلبها منه .
ولإيضاح معنى الإحاطة، واللامشاركة في تقويم الماهيات والصور

ذا ماهية لما يلزمها كما قدمنا من المنافاة للوجوب والأحدية؛ لذلك فهو سبحانه عين
الوجود الصرف الذي لا يتكرر، ولا ينقسم، ولا يكون معه على سبيل المقارنة وجود، ولا
عدم خارجاً وعقلاً، وفرضاً ووهماً كما هو في الماهيات. فكل ما وراء عين الوجود المحض
ماهيات قائمة به، ومخلوقة له، وما يقوم بشيء من كل جهة لا يكون مقارناً له بداهة وللمثل
دون مماثلة (فليس كمثل شيء وتعالى عما يصفون)، ومن هذه الجهة فقط نذكر ان ضوء
المصابيح الكهربائية ليس مقارناً للكهرباء نفسها أي إنه ليس وجوداً لها مساوياً بحكم
قيومته بها، ورجوعه إليها لمحدوديته .

المختلفة في مثال مخلوق من عالمنا دون مثلية (فليس كمثله شيء)^(١) نذكر ان ما يوجد من الصور المختلفة الحاكية لما في عالمنا في التلفاز بكل ما هي به وما هو لها وما هو بها وما يترابط معها وما تكون فيه إنما يقوم بالث المنزل صفة، ورتبة في الشاشة التلفازية عن البث الذي يملأ الفضاء فلا يمكن مجال ان يخرج شيء منها عنه بحكم قيامها به، وإحاطته بها مع ان ذواتها من حيث الصورة، والخصائص والنوازع والحاجات المتصلة بها ومن حيث وقوعها ضمن الزمان والمكان مختلفة عنه تماماً وبالتأمل في هذا المثال - دون مثلية تعالى الله عما يصفون- يتجلى بوضوح أكثر ان الإشكال الذي أثير من انتفاء دور الله وإرادته في الخلق في أصل نشوء الإنسان، وتطوره، ومساره بأية صورة افترضت وفي الاستنساخ، والهندسة الوراثية وغيرها مما كان أو يكون ضمن العالم بكل مدياته، وآفاقه المنظورة واللامنظورة لا مجال له مطلقاً، وأن إدعاء البعض ان الإنسان يصبح بالاستنساخ والهندسة الوراثية أو أي شيء مشابهه آخر خالقاً مقابلاً - بالمعنى الحقيقي لا الصوري- أمر لا يقوم على فهم صحيح لمعنى الألوهية أو معنى الخالق والخلق، وأن مثل هذا الإشكال لا يأتي إلا في أذهان العامة والسذج، وأهل الفهم المسطح في الفلسفة وأن كانوا كباراً في نواحي أخرى...

الثاني: من التساؤلات، هو التساؤل عما إذا كان المستنسخ يعتبر من حيث تكوينه الذاتي عين المستنسخ منه من الناحية الفلسفية أم لا؟؛

(١) سورة/ الآية: (١١).

والجواب قطعاً: لا...

أولاً: لأن الإنسان ليس جسماً فقط وإنما هو روح وجسم، والخلية الجسمية لا تعطي إلا الطينة كما تسمى في الأحاديث الشريفة وهي تحمل الخصائص الوراثية للأباء والأمهات بما فيها من صفات شكلية، ومزاجية، واستعدادات إيجابية وسلبية معينة تتصل بتكوين الجسم وإمكانياته أما الروح -سواء نشأت من الحركة الجوهرية للمادة، أو خلقت مستقلة- فتعطي الحياة الحيوانية، والعقل والقدرة والإرادة وهي مفصولة في كلا النظريتين عن الجسم جوهراً، وخصائص...

وهي في كثير من الأحاديث، ولدى بعض الفلاسفة مستقلة عن الجسم من حيث الخلق أصلاً وسابقة له في الوجود، حتى ان أفلاطون يعلل المعرفة عند الإنسان باستذكار ما عرفه بروحه في عالم المثل السماوية وقبل نفخ الروح في البدن، وتعلل الأحاديث الاختلاف القائم بين الناس في الأرض إلى الاختلاف في عالم الروح السابق في وجوده لهذا العالم.

ان الجسم في نظر الكثير من الفلاسفة يونانيين ، و إسلاميين ليس إلا مركبة تتعامل الروح باتحادها معها مع عالم المادة لا أكثر وحين ينتهي أمد تعاملها مع العالم المادي تخلعه، وتتعامل مستقلة كما هو في عالم الأحلام بهيكل برزخي بنفس صورتها الأرضية.

وقد أثبت الروحانيون والباراسايكولوجيون وفيهم علماء فيزياء و طب وعلماء نفس وقانون ومن قبل بعض الحكماء والصوفية ان بالإمكان الخروج من الجسد بالإرادة مع الاحتفاظ بكامل الخصوصيات

الشخصية، وأثبتوا أيضاً بقاء الذات بعد مفارقتها - في الحوادث، وفي العمليات الجراحية أثناء التخدير العام، أو بالموت الطبيعي - بنفس صفاتها من الحياة، والعقل والقدرة والفعالية، وغير ذلك مما لا مجال لبسط الحديث فيه هنا.

وإذا كان الأمر كذلك فلا مجال لاعتبار التطابق في الصفات الوراثية التي تعطيه الطينة أو الخلية الجسمية في الأستنسال الاستنساخي كافياً لجعل الشخصية الإنسانية - في المستنسخ والمستنسخ منه - واحدة إذا لم تكن الروح واحدة، ولا مجال لاعتبار الروح واحدة - حتى لدى من يؤمن بالتناسخ الباطل فلسفياً - لأن المستنسخ، والمستنسخ منه يتعايشان في وقت واحد.

ثانياً: ان للبيئة والأسرة، والمجتمع ثم لفرص التربية والتعليم، والمستوى الاقتصادي والصحي بل حتى ما تعطيه البيئة الطبيعية والمناخ: أثرها الحاسم في تكوين الفرد، وصياغة شخصيته من النواحي المختلفة حتى مع تساوي القابليات الموروثة أصلاً.

ان التماثل الوراثي إذا ما أعطي صفات متطابقة فانه لا يعطي فرصاً متماثلة ولا مساراً واحداً لأن ذلك خارج عن إمكانياته، لذلك فان المستنسخ ليس عين المستنسخ منه من حيث ذاته فلسفياً وبالتالي فهو ليس عينه قانونياً بل هو شخصية مستقلة تماماً...

ثانياً : الجانب الفقهي التكليفي، والوضعي

ومن الناحية الفقهية طرحوا التساؤل حول أمرين:

١٦٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

الأول: الموقف من حيث الحكم التكليفي: أي حرمة، أو جواز الاستنساخ بما هو في حد نفسه في الحيوان، والإنسان:

والمطروح في ذلك -حسب إطلاعي- ثلاثة آراء:

الأول: القول: بجرمة الاستنساخ مطلقاً في الحيوان، والإنسان...

الثاني: الجواز، أو التوقف في الحيوان، والتحریم المطلق في

الإنسان...

الثالث: القول: بجواز الاستنساخ بما هو في نفسه في الحيوان

والإنسان...

أدلة القائلين بالرأي الأول

استدلّت فئة من القائلين بالرأي الأول: أي الحرمة المطلقة في

الإنسان والحيوان، وبالعنوان الأولي للموضوع لأنه مصداق التغيير

لخلق الله في قوله تعالى: ﴿ان يدعون من دونه إلا شيطاناً مريداً لعنه الله،

وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم، ولأنسينهم

ولأمرنهم فليبتكن، آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ

الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً^(١) وتغيير خلق الله

-كما رأوا- استناداً إلى الآية حرام مطلقاً سواء كان التغيير في

الأسلوب، والطريقة التي يتم بها الخلق، أو في الشكل، والصورة...

وقد نوقشوا:

(١) سورة النساء/ الآية: (١١٨-١٢٠).

أولاً- بأنه: لا مجال لإفادة التحريم المطلق من الآية بل حرمة ما دعا إليه الشيطان خاصة وإلا لحرم كل تغيير ما كان منه في النبات أو الحيوان أو في الإنسان وما كان غذائياً أو طيباً أو تجميلياً، وما اتصل من ذلك بالأسلوب، أو الشكل ولا قائل بذلك مطلقاً بل ان جواز ما ينافي هذا الإطلاق في حرمة التغيير منفي بالسنة القطعية...

ثانياً- انه قد ذكر المفسرون في تفسير الآية: ان المراد بخلق الله الذي أمرهم الشيطان بتغييره هو الفطرة، أو ما تدعو إليه من الإيمان بالله، وتوحيده، وذلك هو المروي عن جماعة من الصحابة، والتابعين... وهو المروي أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام ويؤيده قوله تعالى: (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) ^(١) ^(٢).

وقيل ان المراد ما كانوا يفعلون من جب الحيوان، وقيل ما كانوا يفعلون من الوشم ^(٣).

الرأي الثاني: وهو الذي يقول بالجواز، أو التوقف في الحيوان والتحريم المطلق في الإنسان ومن القائلين به الدكتور نصر فريد واصل مفتي جمهورية مصر العربية الذي قال في ندوة أقامتها نقابة الأطباء في القاهرة: (أنا نحرم استخدام عمليات الاستنساخ الحيواني حتى في علاج بعض حالات العقم، لأن الله في خلقه شؤوناً خاصة وأن ذلك سيفتح

(١) سورة الروم/ الآية: (٣٠).

(٢) الطبرسي: مجمع البيان م: (٢) ج: (٣) ص: (١١٣).

(٣) نفس المصدر والصفحة.

أمامنا الباب للتمادي في مثل هذه العمليات التي تشككنا في ديننا^(١).

وإننا وإن كنا نرى ان الاستنساخ من خلق الله، وواقع ضمن ما تعطيه قوانينه في الخلق كما أشرنا سابقاً فإننا مع فضيلة الدكتور في وجود الشؤون الخاصة، والحكمة في التناسل بأسلوب التزاوج الجنسي خصوصاً في الإنسان ومنها:

إعطاء صورة جديدة للكائن الوليد من خلال مزج ما تنحدر إليه من مورثات الأبوين... وقد يمكن بذلك تنحية بعض الصفات السيئة الآتية من أحد الأبوين بتغليب صفات الآخر...

وان ينتسب الوليد وراثياً للأبوين معاً فيشعر كل منهما ان له إسهاماً في تكوينه البيولوجي وانه يمتد نسباً إليهما معاً، ويترتب على ذلك - عدا ما يتصل بالعلاقات العاطفية - حقوق وواجبات تمتد إلى عمودي الأبوين وهذا ما لا يمكن حصوله بالأستنسال الاستنساخي الذي لا يعطي الانتساب الوراثي إلا لجهة واحدة وهي الجهة التي تعطي الخلية الجسمية... ولكن ذلك وحده لا يكون دليلاً على التحريم شرعاً إذ لا يوجد ما يدل على تحريم الأستنسال بأية طريقة عدا الزنا، - والحق به بعضهم - على سبيل الاحتياط الوجدوبي تلقيح البويضة بجوين رجل أجنبي خارج الرحم بمخاضة، وأن الاستنساخ ليس طريقاً عاماً بل يُلجأ إليه في حالات استثنائية خاصة.

أما القسم الثاني من حيثيات هذا التحريم، وهو ان ذلك سيفتح

(١) مجلة الشراع اللبنانية، ما وراء العدد (٣٧٣) ص: (٣٩).

أمامنا الباب للتمادي... الخ، ويعني ذلك ان يحرم سداً للذرائع التي تنهي إلى المفسد، فيناقش:

أولاً- ان استعمال تقنيات الاستنساخ لو كانت توجب تشكيكاً فإنه يكفي استعمال الغير لها حتى ولو لمرة واحدة فلا يزيد استعمالنا لها في ذلك شيئاً.

ثانياً- انه لا فرق في استعمال هذه التقنيات -من هذه الناحية- بين الإنسان، وبين الحيوان فلماذا قصر التحريم على الإنسان...

ثالثاً- إنه لا مجال لأثارة هذه التقنيات للتشكيك في ديننا كما قال فضيلته إلا بتصوير كونها خارجة عن دور الله، وإرادة الله سبحانه، ونحن نحاشيه من ان يرى ذلك، وربما صور الحال لدى الآخرين كبعض السذج من الناس أو أصحاب الاتجاهات الإلحادية والمادية الذين يوظفون ذلك وعلى كل حال فقد ناقشنا هذا التصور بتفصيل في الأول من الاشكالات الفلسفية، والعقائدية التي تقدمت في هذا البحث.

ومن القائلين بهذا الرأي الدكتور السعودي فقد صرح: بأن الأستنسال بين النباتات لا محذور فيه من حيث لا أنساب تُطلب في صفوفها، أما الأستنسال بين الحيوانات غير الإنسان فينبغي التوقف عنده، والحذر من إباحته، لأن الحيوانات لا تكليف عليها من الناحية الشرعية، ولا أنساب بينها لكن قد تختلط جينات حيوانات يحل أكلها بأخرى لا يحل أكلها فيختلط الحلال بالحرام^(١)، ونوقش: بان اختلاط

(١) جريدة الاتحاد: تصدر عن اتحاد الصناعات العراقي العدد: (٤/١٩) في

١٧١ في الدين والعلم والحياة والإنسان
الجينات في الاستنساخ غير وارد إلا إذا صحب الاستنساخ إعادة
تركيب الشريط الوراثي -الهندسة الوراثية- وهو موضوع آخر لا
علاقة به من حيث الأصل ولا ينبغي طرحه في الإجابة حين يكون
السؤال عن الأستنسال فقط وربما كان السبب في ذلك ان إعادة هندسة
الشريط الوراثي صحت التجارب الأولى والمبكرة للاستنساخ مما
جمعهما في تصوره، أو انه خلط بينهما خطأً على ان الهندسة الوراثية في
الحيوانات المستنسخة ليست من السعة والشمول وهي لأغراض طبية
فقط... بحيث تصل إلى ان تصبح مشكلة يختلط فيها الحلال والحرام لو
صحت حيثيات القول بالتحريم في مثلها.

فان الفقهاء يرون: ان مدار الحلال والحرام والطهارة والنجاسة في
الحيوان يترتب على مصداقه ونوعه العرفي لا على نوعية دمه وإفرازات
غده ومن الواضح ان الهندسة الوراثية لا تخرجه عن نوعه فيبقى داخلاً
في اطلاقات الأدلة فما دل على حلية لحم ولبن الغنم مثلاً يدل على
حلية لحم ولبن الغنم الذي تصرفوا فيه بالهندسة الوراثية، ومثل ذلك
الأمر ما لو تصرفوا بالهندسة الوراثية في أي حيوان دلت الأدلة على
حرمته وظل على المصداق العرفي... فانه يبقى مشمولاً بهذه الأدلة...

أما في السؤال عن الاستنساخ البشري فأن الدكتور السعودي حكم
بالتحريم على سبيل القطع فقال: (أما الأستنسال في صفوف الإنسان
فانه محرم قطعاً، لأن الإنسان كائن حي عاقل مكلف له ضوابط وضعها

الدين... والأستنسال يعني إلغاء الكثير من القيم التي يكتمل بها الإنسان... ويعني تفكك العائلة، والأسرة، والمجتمع، فكيف يعرف الإنسان أباه، وأمه، وأرحامه^(١)، وشاركه رأيه استناداً إلى نفس الحثيات آخرون^(٢).

ونوقش: بأن وجود الفرد المستنسخ لا يتنافى والقسم الأول من الحثيات التي ذكرها: (فهو كائن حي، عاقل، مكلفاً له ضوابط وضعها الدين)، ولا يخرج كونه مستنسخاً -دون إشكال عن شيء من ذلك.

أما القسم الثاني من الحثيات فيناقش: بأن تفكك العائلة والأسرة، والمجتمع... الخ، غير وارد.

أولاً- لأن الاستنساخ ليس أسلوباً شاملاً، وعماماً في الأستنسال، ولن يكون أبداً، لأن للتزاوج بين الذكور والإناث -كما نعلم- دوافع نفسية، وجسدية أخرى عدا الرغبة في التناسل كما هو معروف...؛ ولذلك فسيبقى التناسل بالأسلوب الجنسي هو الأسلوب الطبيعي القائم في المجتمع وإن الاستنساخ ليس إلا استثناءً يلجأ إليه اضطراراً في بعض حالات العقم أو حالات فردية نادرة أخرى.

ثانياً- ان انتساب الوليد لأبويه أو لأحدهما -في رأي بعض الفقهاء- سيبقى قائماً كما سيأتي رغم انخيازه من حيث الوراثة

(١) نفس المرجع.

(٢) مجلة إسلامية/ المعرفة الأردنية: الطبعة الثالثة عشر، السنة الثالثة ص: (١٣٩).

١٧٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
لصاحب الخلية الجسمية لأنه ابن وبمنزلة الابن^(١)، ولأن الأمومة - عند
بعض الفقهاء- تتحقق بتكون الجنين في رحم المرأة، وولادتها له، حتى
لو لم تسهم بويضتها في تكوينه أخذاً بظاهر الآية: (ان أمهاتهم إلا اللاتي
ولدنهم)^(٢)، ومن هؤلاء السيد الموسوي الخوئي والسيد محمد الصدر.
ثالثاً- ان انتفاء العلاقات النسبية الشرعية بالنسبة للمستنسل
بالاستنساخ حتى لو كان- كما هو لدى بعض الفقهاء- لا يوجب
حرمته.

قال الفقيه المرجع السيد الحكيم (حفظه الله)، وهو ممن يذهب إلى
جواز الاستنساخ مع نفيه لأية علاقة نسبية شرعية للمستنسخ...
(لا دليل على حصر إنتاج الإنسان في ضمن نطاق الأسرة ولا
سيما بعد خلق الإنسان الأول من طين، ثم خلق عيسى من غير أب،
وخلق ناقة صالح، وفصيلها على نحو ذلك كما تضمنته الروايات)^(٣).
وذكر بعضهم حيثيات أخرى توجب -كما رأى- تحريم الاستنساخ

(١) ممن يرى ذلك المراجع: السيد الحسيني السيستاني، والشيخ محمد إسحاق فياض،
والسيد محمد الصدر، والشيخ بشير النجفي / ويرى السيد الصدر ان يكون أبناً حين يجري
بين زوجين كما في الصورة الأولى من الصور التي سنذكرها.

(٢) المجادلة/ الآية: (٢).

(٣) في إجابته على أسئلتني للفقهاء والمراجع في النجف الأشرف وكان سماحة السيد (مد
ظله) وقد طبعت أخيراً في كراس بعنوان (مسائل مستحدثة في الطب) وقد أجاب سماحته
بتفصيل مع الاستدلال .

البشري ناقشها بالعنوان الثانوي فناقشها السيد الحكيم (حفظه الله) منها
بالإضافة إلى الحيثية السابقة:-

الأولى- ان هذه العملية ستسبب مشاكل أخلاقية كبيرة، إذ من
الممكن ان يستخدمها المجرمون للهروب من العدالة...

قال (حفظه الله): (وهذا كسابقه لا يقتضي التحريم فأن الأجرام
وإن كان محرماً، إلا ان فعل ما قد يستغله المجرم ليس محرماً وما أكثر ما
يقوم العالم اليوم بإنتاج وسائل يستخدمها المجرمون، وتنفعهم أكثر مما
تنفعهم هذه العملية ولم يخطر ببال أحد تحريمها، وربما كان انتفاع المجرمين
بمثل عملية التجميل أكثر من انتفاعهم بهذه العملية فهل تحرم عملية
التجميل لذلك؟

الثانية- ان نجاح هذه العملية قد تسببه تجارب فاشلة فقال (حفظه
الله): (ان كان المراد ان إنتاج الكائن الحي لما كان معرضاً للفشل كان
محرماً لأنه يستتبع قتل البويضة المهياة لها وهو محرم كإسقاط الجنين،
فالجواب: ان المحرم عملية قتل الكائن الحي المحترم الدم، أو قتل البويضة
الملقحة التي هي في الطريق إلى الحياة، وذلك بمثل الإسقاط، وليس المحرم
على المكلف عملية إنتاج كائن حي يموت قبل ان يستكمل شروط الحياة
من دون ان يكون له يد في موته فيجوز للإنسان ان يتصل بزوجه
جنسياً إذا كانت مهياة للحمل، وإن كان الحمل معرضاً للسقوط نتيجة
عدم استكمال شروط الحياة له بسبب قصور الحيمن، أو البويضة، أو

عدم تهيؤ الظرف المناسب لاستكمال الجنين نموه، وكسبه للحياة^(١).

وعلى كل حال: ان علينا ان نفرق بين النظر لقضية أو موضوع بما هو نفسه، أو بما هو نافع للبشرية في بعض جوانبه وبين النظر إليه لدى استخدامه في ما يضر البشرية ضرراً ماحقاً، وكما هو الشأن في تفجير الذرة مثلاً، فان تفجيرها بما هو في نفسه أو لاستخدامها في المعالجة الطبية أو لتوليد الطاقة الكهربائية أو غيرها من المنافع المشروعة جائز دون شك، ولكن استخدامها لتدمير المدن كالذي حصل في هيروشيما أو نجازاكي، حرام قطعاً.

وبناء على ما تقدم من مناقشة الأدلة التي ساقها القائلون بتحريم الاستئصال الاستنساخي يتضح لنا: انه لا يوجد دليل شرعي يجرمه بما هو في نفسه ولا بالعناوين الثانوية التي ذكروها، عدا مقارنته للنظر واللمس المحرمين شرعاً حين يتولى عملية انتزاع البويضة ثم زرعها في الرحم بعد تلقيحها بنواة الخلية الجسمية، غير الزوج أي ان التحريم لما يقارنها وليس لها؛ ولذلك أفتى الفقهاء المراجع في النجف الأشرف دون استثناء بجواز الاستئصال الاستنساخي بما هو في نفسه^(٢)، وبانتفاء أي

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) استفتيت خطياً وناقشنا الموضوع شفويّاً مع البعض الآخر قبل موعد إقائي هذه المحاضرة سنة ١٩٩٧، وكان من أولئك وهؤلاء أصحاب السماحة الفقهاء والمراجع السيد السيستاني، والسيد الحكيم، والشيخ مرتضى البروجردي، والسيد محمد الصدر، والشيخ الغروي، والشيخ محمد إسحاق فياض، والشيخ بشير النجفي، وكان القصد من

إشكال شرعي فيه حين يكون المجري للعملية الزوج دون غيره...

ولكن، ماذا لو ان بعضهم تجاوز الحكم الشرعي، فقام بهذه العملية طبيب أجنبي، وجاء نتيجة لذلك طفل... وماذا لو كانت بين أجنبيين، أعني ما الذي يترتب على ذلك من علاقة بين الطفل، وبين الطرفين اللذين أنجباه، أو الطرف الواحد أحياناً؟ وما الذي يترتب من حقوق، وواجبات؟

الحكم الوضعي

والصور -المفترضة- في الاستئصال الاستساخي في هذه الحالة من حيث الأطراف فيه أربع :

الصورة الأولى: ما إذا كان بين زوجين شرعيين فزرعت نواة خلية جسمية من الزوج في بويضة الزوجة المسحوبة النواة ثم زرعت في رحمها.

الصورة الثانية: ما إذا وقع بين أجنبيين، فكانت نواة الخلية الجسمية لرجل قد لقحت بها بويضة منزوعة النواة من امرأة ثم زرعت في رحمها، أو رحم امرأة أخرى.

الصورة الثالثة: ما إذا كانت نواة الخلية الجسمية من امرأة ووضعت في بويضة مسحوبة النواة منها، أو من غيرها، ثم زرعت في رحمها.

ذلك والموضوع يطرح لأول مرة ان أعرف ما إذا كانت هناك وجهات نظر فقهية مختلفة فيه من جهة أو أخرى، أم لا؟.

الصورة الرابعة: ما إذا كانت نواة الخلية الجسمية من امرأة ووضعت في بويضة نزعت نواتها منها أو من غيرها، ثم زرعت في رحم امرأة أخرى.

أما الصورة الأولى:

فرغم ما قارنها من الحرمة الشرعية، متمثلة بنظر الطبيب الأجنبي، ولمسه فان الوليد في رأي أكثر الفقهاء يكون ابناً، أو بمنزلة الابن للأب صاحب نواة الخلية المزروعة^(١)، لا للصلة التكوينية والوراثية فقط، بل للقناعة العرفية بذلك، فإن تولد الشيء من الشيء في اللغة: يعني انه نشأ منه^(٢)، أو حصل بسبب من الأسباب^(٣)، ولم ينف الشارع عن النسب إلا من تكون عن الزنا والاستنساخ ليس كذلك وذكر أن الآية الثامنة من سورة السجدة، جعلت النسل في الصورة الطبيعية من الماء المهين (المني) ولا ينبغي ان يكون ما يجيء بالصور الأخرى غيرها إذا نشأت عنه فقد نسب الله المسيح لإبراهيم رغم انه لم يأتي بالصورة الطبيعية من حيمن رجل ينتسب إليه.

وكذلك يكون ابناً للأم لدى من يرى من الفقهاء ان المقصود

(١) ومن يحتمل كونه ابناً السيد الحسيني السيستاني (دام ظله) في ما كتبه من آراء سماحته ولده العلامة الحجة السيد محمد رضا (حفظه الله)، وممن يراه ابناً الشيخ محمد إسحاق فياض، والسيد محمد الصدر، والشيخ بشير (حفظهم الله).

(٢) هذا الاستدلال للسيد محمد الصدر .

(٣) الطريحي/ مجمع البحرين، م: (٣)، ص: (٦٥).

بالولادة الخروج من المرأة لا النشأة منها، وكلاهما وارد في اللغة، فيكون بهذا التفسير أخذاً بقوله تعالى: (ان أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم)^(١)، وهو ما يذهب إليه السيد الموسوي الخوئي (رحمه الله) والسيد الصدر.

لكن الفقهاء المعاصرين الآخرين يرون ان الولادة - كما هو المعلوم في التكوين - بمعنى نشأ منها أو حصل منها، ولأن الولادة بهذا المعنى وبمعنى خرج منها كانا سابقاً متحدين في النظر الظاهر في الحيوان، ولم يعرف فصمهما إلا في علم الأجنة وتقنية أطفال الأنابيب والاستنساخ فإنها لم تتطلب تحقيقاً وفصل بين ما الحالتين كما هو بالنسبة لنا اليوم من حيث اللفظ الموضوع لكل منها... ان المرأة المضيفة للطفل في رحمها، إذا لم يكن من خليتها (البويضة) لا تملك أية علاقة بتكوينه ونشأته أصلاً وراء حمله وتغذيته، فعلاقتها أشبه بعلاقة المرضعة - في ما تصوره البعض - بمعنى إنها تقوم بتغذية كائن لم ينشأ عنها.

لكن لا قيمة لهذه التغذية بنفسها من حيث الحكم الشرعي، فالرضاع المنشأ للعلاقة التي تترتب عليها الأحكام الشرعية شروط لا يتحقق بدونها لدى الفقهاء، ومنها ان يباشر الامتصاص من الثدي، فلو تغذى الطفل من لبنها فترة الرضاعة كلها دون هذا الشرط كان هذا الرضاع لا قيمة له.

ومثل ذلك الأمر في المرأة التي تسهم بالبويضة المنزوعة النواة أعني

(١) سورة المجادلة/ الآية: (٢).

لا تكون أما لعدم إسهامها بتكوينه لنزع النواة كما هو مسلم عملياً.

أما لبعض الآخر من الفقهاء فيرى: ان الوليد الذي يأتي نتيجة الاستنساخ أجنبي عن أبيه البيولوجي (صاحب الخلية الجسمية) وهو أجنبي كذلك عن المرأة التي حملته وولده له لدى من يرى الأمومة تابعة - كما قدمنا- لمشاركة الأم ببويضتها الكاملة في تكوينه...

يقول الفقيه المرجع السيد محمد سعيد الحكيم (حفظه الله) في إجابته على السؤال عن أب المستنسل بالاستنساخ، وأمه: (ليس له أب قطعاً، لأن النسبة للأب تابعة عرفاً لتكون الكائن الحي من حيمنه بعد اتحاده مع البويضة كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ثم جعلنا نسله من سلالة من ماء مهين﴾^(١)، ولا دخل للحيمن هنا بل للخلية المأخوذة من الجسد وخصوصاً إذا كانت الخلية مأخوذة من جسد المرأة حيث لا معنى لكونها أباً للإنسان المذكور... وقد ورد في نصوص كثيرة ان الله تعالى خلق حواء من ضلع آدم، وبغض النظر عن صحة النصوص المذكورة، والبناء على مضمونها فانه لم يتوهم أحد ان مقتضى هذه النصوص كون حواء بنتاً لآدم، وذلك يكشف عن ان معيار بنوة شخص لآخر ليس هو خلقه من جزء منه بل خلقه من منيّه كما ذكرنا...

قال (حفظه الله): (وأما بالنسبة للأم فهي تابعة لتكون الكائن الحي من بويضتها وهو هنا لم يتكون من تمام بويضتها بل من بعضها بعد تفريغها من نواتها).

(١) سورة السجدة/ الآية: (٨).

الحقوق، والواجبات

الحقوق والواجبات تترتب إيجاباً وسلباً بحسب الرأي الفقهي في نسب المستنسل بالاستنساخ إثباتاً ونفياً.

فمن يرى: ان الوليد المستنسخ ابن أو بمنزلة الابن برتب بينه، وبين أبويه، وبين أرحامه بوساطتهما كل الحقوق والواجبات وكل الأحكام الخاصة في العلاقات التي تقوم بين الوليد بالتزاوج الجنسي المشروع وبين أبويه، وأرحامه دون فرق.

أما من يراه أجنبياً فلا يرتب شيئاً من ذلك إلا ما يتصل بمسألة التزاوج بينه، وبين المحرمات من أرحامه البيولوجيين فان بعضهم يجرمه على سبيل الاحتياط الوجوبي.

قال السيد الحكيم (حفظه الله) في إجابته للسؤال: (لا حقوق بينهما لعدم النسبة بينهما...).

وقال في إجابته للسؤال: (ومقتضى ما تقدم عدم المحرمية بين الإنسان المذكور وصاحب الخلية فضلاً عما يتصل به كأبيه، وأخيه، وأبنه... نعم قد يظهر من بعض النصوص الواردة في بدء التكوين استنكار نكاح الإنسان لما يتكون من بعضه... والنص المذكور، وأن كان ضعيفاً سنداً إلا ان المرتكزات الشرعية قد تؤيده من دون ان تنهض حجة قاطعة تسوغ الفتوى بالتحريم ومن ثم قد يلزم الاحتياط بتجنب النكاح بينه وبين صاحب الخلية بل حتى بينه، وبين أبيه وأخيه وأبنه كما

ان احتمال بنوته لصاحبه بالاكتياط بعدم التناكح بينه، وبينها وبين من يجرم بسببها على بنيتها^(١).

الصورة الثانية: لا يختلف من يرى الحرمة عمن يرى الجواز في ان الحكم الوضعي: حين يجري الاستنساخ بين أجنبيين كما هو حين يجري بين زوجين فمن يرى ثبوت الأبوة والأمومة أو الأبوة فقط للوليد في تلك الصورة يراها في هذه الصورة كذلك ويرتب كل الحقوق والواجبات بين الوليد المستنسل بالاستنساخ وأبويه لان الزنا وحده هو ما ينتفي فيه النسب شرعاً طبقاً لقول الرسول ﷺ: (الولد للفراش وللعاهر الحجر)، والاستنساخ ليس من الزنا عرفاً، أما من ينفي علاقة الأبوة، والأمومة كالسيد الحكيم (حفظه الله) فانه لا يرب شيئاً من الحقوق، والواجبات عدا حرمة التزاوج الذي يحتاط فيه احتياطاً وجوبياً كما قدمنا.

الصورة الثالثة: لا يختلف الأمر أيضاً من حيث ترتيب الحكم الوضعي واعتبار الوليد - عند من يرى الاستنسال بالاستنساخ ينشي نسباً - ابناً للمرأة ولا أب له في هذه الحالة وهي أم عند من يرى ان الأمومة تابعة للولادة ويرى بعضهم أنها بمنزلة الأب والأم معاً وترتب بينها وبينه كل الحقوق والواجبات التي تكون بين الأبناء، والأمهات.

أما من لا يرى أنه ينشئ نسباً كالسيد الحكيم فلا يرى بينه وبين المرأة التي مثلت الطرفين في تكوينه أية علاقة نسبية وتبعاً لذلك ليس

(١) السيد الحكيم: مسائل مستحدثة في الطب ، كراس طبع مستقبلاً .

هناك أية حقوق وأية واجبات بينه وبينهما.

الصورة الرابعة: ولا يختلف الأمر في الحكم الوضعي فيها عن الصورة الثالثة من حيث نسب الوليد سلباً وإيجاباً عدا ان نواة الخلية الجسمية المنتزعة من المرأة والتي لقحت بها البويضة المسحوبة النواة منها أو من غيرها زرعت في رحم امرأة أخرى... ومن الواضح مما سبق أنه يكون -لدى الفقهاء الذي يرون الأمومة تابعة للولادة- أبناً لها أما من يراها تابعة للتكون من الخلية فلا يراه كذلك بل هو أجنبي وهو ابن أو بمنزلة الابن للمرأة صاحبة الخلية الجسمية لدى من يرى من الفقهاء: ان الاستنسال الاستنساخي ينشئ نسباً على أنها أمه ولا أب له، وقال أحدهم إنها في هذه الحالة بمنزلة الأب وإن لم تسم كذلك^(١).

انتهى البحث وارانني بذلك قد استوفيت المسائل المتفرعة من موضوع الاستنساخ ، الذي حاضرت فيه على أطباء النجف ، وكلية الطب في جامعة الكوفة لأول مرة سنة ١٩٩٧ والحمد لله اولاً و آخراً والصلاة والسلام على محمد واله الطيبين الطاهرين .

(١) راجع ما تقدم تحت عنوان: الحكم الوضعي.

البحث الرابع

الأحلام

أهميتها

اصلها

رمزيتها

نسبة الصدق فيها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأحلام أهميتها ، اصلها ، رمزيتها نسبة الصدق فيها^(١)

الحلم في اللغة

الحلم: بتسكين اللام، والحلم بضمها، والرؤيا عبارة عما يراه
النائم^(٢) فتخرج عن مجثنا أحلام اليقظة التي يخلقها الخيال المستغرق^(٣).

(١) ألقى ملخص هذا البحث في الندوة العلمية التي أقامتها نقابة الاطباء في النجف
الاشرف في قاعة مستشفى صدام التعليمي العام في ١٩/٣/١٩٩٨ وقد شارك فيها باحث
آخر هو الدكتور عبد الرسول الياسري الاختصاصي في الامراض النفسية وادارها وقدم لها
الدكتور محمد التلال نقيب الاطباء .

(٢) ابن منظور: لسان العرب:م:١٢:م:حلم ص:١٤٥ .

(٣) تحدث العالم والفيلسوف الفارابي عن احلام اليقظة. فقال:(وقد يحدث المنام (يعني
الحلم) في حال اليقظة ولكن ذلك نادر فاذا كانت مخيلة انسان قوية تستطيع نقل
المحسوسات من اعضاء الحس إلى الدماغ وتتلاعب بذكرياتها وخيالاتها في وقت واحد
فان الانسان يتوهم رؤية الاشياء التي يتخيلها على درجات مختلفة .من الوضوح وعلى
درجات مختلفة من الكمال والنقص ومن الجمال والقبح وقد يرى أشياء غريبة عجيبة لا
يمكن وجود شيء منها في سائر الموجودات اصلا . (ترجمة الفارابي:د:عمر فروخ:تاريخ
الفكر العربي ص :٣٦٤)

وغلب الحلم على ما يراه النائم من الشر والقبيح والباطل والرؤيا على ما يراه من الخير، والشيء الحسن، وما يؤول إلى الواقع.

قال بشر بن ابي حازم: (أحق ما رأيت أم احتلام)^(١)

ولعل كلمتي حلم و رؤيا نفسيهما تلمحان في المرتكز من معناهما في الأصل إلى هذا الفرق فالأولى متعلقها خيال والثانية متعلقها واقع ومع ذلك فقد استعمل الحلم والرؤيا بمعنى واحد - في غير القرآن - تسامحا وبلحاظ حدوث كليهما في النوم.

ومن ذلك ما ذكره ابن عربي في الفتوحات م: ٢ ص ٣٢٥.. قال: (ولقد بلغ بي قوة الخيال ان كان حبي يجسد لي محبوبي من خارج لعيني كما كان يتجسد جبرئيل لرسول الله ﷺ فلا أقدر انظر إليه ويخاطبني اصغي إليه وافهم عنه ولقد تركني أياماً لا اسبغ طعاماً كلما قدمت لي مائدة يقف على حرفها وينظر إلي ويقول بلسان اسمعه بأذني: تأكل وأنت تشاهدني؟ فامتنع عن الطعام ولا أجد جوعاً وامتلئ منه حتى سممت وعبلت من نظري إليه).. ولا ادري كيف يهتم ابن عربي وينفعل هذا الانفعال ويترك الطعام والصورة من خلق خياله أصلاً وكلامها كذلك؟.

إن أحلام اليقظة كما يرى علماء النفس المعاصرون تخيلات ينصرف اليها الانسان فتسحبه عن الواقع لكنها لا تبلغ هذه الدرجة التي تحدث عنها الفارابي وابن عربي فاذا بلغت فهي الهلوسة دون شك ومن خصوصياتها ان صاحبها يكون شديد التصديق بها رغم لا منطقيتها.. راجع: عدنان البكاء: الارواح الماسة ص ٦١ ثم ص ٨٣-٨٥ الهامش تجد أمثلة أخرى.

(١) ابن منظور: المصدر السابق. نفس الموضوع

اهميتهما:

والحلم، والرؤيا: ظاهرتان صحبتا الإنسان تاريخيا منذ وجد فهما يتصلان من حيث أصلهما ومنشئهما - كما ستعرف- بتكوينه جسما ونفسا وعقلا حتى قالوا: إن الإنسان حيوان حامل وتبدأ الأحلام منذ أول مراحل الطفولة بل ذكر البعض: أن الأجنة -لدى تكاملها- تحلم أيضا^(١).

ومع انهم قسموا فترات النوم إلى حاملة، وغير حاملة فإنهم تبينوا - بالبحث العلمي والمختبري بعدئذ- أن ما ما كان يعتقد أنها فترات نوم غير حاملة كانت حاملة أيضا لكن ما يرى فيها من الاحلام يغيب عن الذاكرة وينسى ربما لأن النوم أكثر عمقا؛ ولذلك تكون الأحلام أقل وضوحا وأثرا في الوعي^(٢) وإن كانت تظل كامنة ومحفوظة في ما تحت الوعي كأي شيء يمر بالإنسان دون أن يعبر إلى وعيه، ولكن يمكن أن يظهر ويستعاد بالتنويم المغناطيسي أو بالتداعي في التحليل النفسي^(٣).

وتبدأ الفترة الحاملة الأولى بعد ٩٠ دقيقة من النوم تقريبا، وتمتد فترة الحلم من ١٥-٢٠ دقيقة ثم تنتهي لتعقبها فترة من النوم غير الحالم

(١) رأى العلماء بملاحظة مظاهر بايولوجية وحركية -لدى الحيوان- انه يحلم أيضا ولم يستبطن أحد طبعاً أو يتعرف على صورة أحلامها لكنها لا تخرج عن كونها انعكاسا لحياتها وعلاقتها الغريزية.. صراعاتها وأشباه ذلك.

(٢) د. علي كمال: أبواب العقل الموصدة: باب النوم باب الاحلام ص ٢٣٦.

(٣) د. كارل غوستاف يونغ: الإنسان ورموزه ص ٣٩-٤١.

وتستغرق من ٩٠-١٠٠ دقيقة ثم تأتي فترة حاملة..وهكذا..إلى نهاية النوم وذلك بمعدل ٤ إلى ٦ فترات^(١).

وقدرها -من وقف في حسابها- عند الفترات الحاملة بما يساوي ربع ساعات النوم، وعشر عمر الإنسان فإذا كان المرء ممن عاش سبعين عاما مثلا فإن أحلامه تشكل منها ست إلى سبع سنين^(٢).

وإذا كانت الأحلام بهذا المدى والالتحام في حياة الإنسان فان من المتوقع أن يفكر العلماء في دلالتها ووظيفتها وانها لم تكن بهذه الصفة صدفة وهي ليست حالة عبثية طارئة فماهي دلالة الأحلام ووظيفتها؟

أراء العلماء في ذلك

رأى بعضهم: أن الحلم لا يحمل أية دلالة عدا كونه انعكاسا خياليا مرتجعا لواقع الحياة المادية الخارجية المحسوسة وعلاقات الإنسان داخلها ورأى آخرون: أن لها دلالة، ووظيفة هامتين: وإن اختلفوا في تحديدها باختلاف ما ارتكزوا إليه أصلا في منشئها، وما اذا كان بايولوجيا أو نفسيلوجيا أو نفسيا أو روحيا...

فرأى بعض الأطباء اليونانيين: أن لها دلالة على الأمراض الجسمية ورأى بعض علماء النفس المعاصرين: ان لها دلالة على الحاجات والأمراض النفسية وهذا ما سيأتي الحديث عنه.

(١) د. علي كمال المصدر السابق: نفس الموضوع.

(٢) د. علي كمال: المصدر السابق ص ٢٠٧.

أما لدى الروحيين من الديانات الوضعية والسماوية ولدى بعض الفلاسفة وبعض العلماء فهي دليل قائم في تكوين الإنسان نفسه على ثنائته وانه ليس كيانا ماديا فقط بل ان الكيان المادي ليس أصيلا في وجوده ، ثم فيه دلالة أيضا تقرب لنا صورة العالم الآخر في البرزخ (ما قبل البعث).

جاء في كتابات الفيذا الهندية القديمة: صيغة للاستدلال بالحلم على استقلال الهوية الانسانية الحقيقية عن الجسم بصورة واضحة. في النص التالي:

(عندما نحلم يكون جسدنا ممددا على السرير ولكننا نرحل إلى مكان آخر وهكذا نشعر بان هويتنا الحقيقية مستقلة عن هذا الجسد، عندما نحلم ننسى الجسد الممدد على السرير ونعمل بواسطة أجساد أخرى وفي أماكن أخرى كذلك في النهار ننسى أجسادنا التي ارتحلنا بواسطتها في الحلم، وربما طرنا بها في السماء ولكن وعينا الذاتي موجود دائما في كلا الجسدين، ولذلك يجب علينا ان نستنتج باننا لسنا أيا من هذين الجسدين^(١).

وفي الأخبار الواردة عن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام ذكر: أن الاحلام تتضمن الدلالة على عالم ما بعد الموت (البرزخ) وتقرب للإنسان تصور عالمي النعيم، والعذاب فيه، فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من حديث طويل أنه قال: (عجبا ممن ينكر البعث والنشور وهو في كل

(١) د.أ.ش : بهكتي : فيدانت سوامي، برهبوباد : كتاب رجوع التجسد ص ٢٨.

يوم وليلة يموت ويحيا [يعني النوم واليقظة] ^(١) لأن الموت كما يقول الامام محمد الباقر عليه السلام - هو النوم الذي يأتيكم كل ليلة ^(٢) إلا أنه طويل مدته لا ينتبه منه إلى يوم القيامة فمنهم من رأى في نومه من أصناف الفرح ما لا يقدر قدره ،ومنهم من رأى في نومه من أصناف الأهوال ما لا يقدر قدره ^(٣) . وذكروا : أن أحد الانبياء حين لم يبال قومه بما وعدهم من النعيم إن أجابوه وأطاعوا وبما توعدهم من العقوبة والعذاب إن أعرضوا وعصوا، لأن بدن الميت - كما قالوا له - يغدو رميما وترابا وعندئذ فأى معنى يبقى لتحقيق الوعد والوعد... .

قالوا: فأحتج عليهم بما يرونه في الاحلام من رؤى مبهجة ولذيذة احيانا ومرعبة ومؤلمة أحيانا أخرى الا أن هذه منقطعة وتلك مستديمة ^(٤) .

والدلالة والوظيفة هنا متصلتان ببعضهما، ومرتبطتان بثنائية التكوين الانساني، وما يتصل به من النوم والاحلام اما لدى البيولوجيين ، وعلماء النفس فمختلفتان وقد اشرنا آنفاً إلى الدلالة

(١) تفسير الفخر الرازي م ١ ج ٢ ص ٣٣ .

(٢) جاء في الكتاب العزيز : الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها . وكما ينعلم الإحساس بالزمن في النوم ينعلم في الموت قال تعالى: (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة .

(٣) المجلسي البحار م: ٥٨ ص ١٩٠ .

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين : ج ٢ ص ٩١ .

عندهم اما وظيفة الاحلام فاختلّفوا فيها بين التفسير البيولوجي والنفسي فذهب بعضهم : إلى ان الاحلام وجدت لتقطع حالة السكون والركود التي تسود اثناء فترة النوم غير الحالم فان هذه اذا ما طالت تصبح - كما قالوا - خطراً على الجهاز العصبي، ويمكن ان تهدد نشاط الكائن الحي وحياته ففي فترات النوم الحالم تحدث عمليات بايولوجية وفيزيولوجية وكيميائية هدفها اعادة التوازن إلى الجهاز العصبي بتنشيطه عن طريق هذه الاحاسيس داخل الدماغ خارجية كانت - من حيث مصدرها أصلاً - ام داخلية، مع اعادة تنظيم الاتصال بين أجزائه .

وفي نظرية تعرف بنظرية التنبه: ذكروا: أن^(١) النوم لعدة ساعات متواصلة من شأنه ان يعرض النائم - لو حصل عليه اعتداء مفاجيء - إلى الخطر ولذلك كان النوم الحالم المتكرر يقوم بعملية التنبه لا بمعنى ايقاظ النائم من نومه وإنما القيام بأعداده، وتهيئته اثناء نومه من خلال استمرار النشاطات الفيزيولوجية اللازمة لمواجهة المواقف الطارئة^(٢) .

ويرى العالم النمساوي الشهير سيمغند فرويد: ان للحلم وظيفتين احدهما المحافظة على النوم من ان ينقطع بحوافز اخرى من شأنها ان تؤدي إلى ذلك.

وثانيهما: التنفيس عن الرغبات وبخاصة الرغبات الجنسية الطفولية

(١) د : علي كمال : أبواب العقل الموصدة (باب النوم باب الاحلام) ص : ٤٦٠ .

(٢) د : علي كمال: أبواب العقل الموصدة (باب النوم باب الاحلام) ص : ٤٩٥ .

ويؤكد الدكتور صمويل لوي: (ما بعد فرويد): (ان الاحلام عمليات احداث، وتقليب للعواطف واعادة للتوازن النفسي داخل الانسان .

وقال: كما ان عمليات الاستقلاب الجسمية تقوم بمهمة ضمان استقرار الحوادث الفيزيولوجية في الجسم كذلك فان الحوادث متعددة الاشكال والتي تحدث تحت الوعي، وفي مجال الوعي بما في ذلك عملية الحلم تضمن احداث الاتزان النفسي والعاطفي فالحلم وظيفة تنظيمية لدواخل الذات، ولا يرى: ان من الضروري للحالم - لتحقيق الاحلام هذه الوظيفة - ان يتذكر الحلم أو يفهم محتواه^(٢).

ويرى آخرون: ان للاحلام وظيفة تعليمية بالنسبة للاطفال خاصة فان الطفل ينام في المرحلة الاولى من حياته (١٨) ساعة يومياً ثم تتناقص تدريجياً، وتشكل الاحلام عند الطفل نصف ساعات نومه تقريباً، وبذلك تساهم في انضاج عقل الطفل، وتعريفه من خلال رؤآه واحلامه وبها يتهيأ لمواجهة العالم الخارجي، وكيفية التعامل معه، والانس به^(٣).
وجاوز بعضهم هذا القدر فذكر: ان الاحلام تلعب دوراً هاماً في عملية الخلق الابداعي او الفني، وأستشهدوا بأمثلة كثيرة حدثت

(١) سيمغند فرويد: حياتي والتحليل (باب النوم باب الأحلام): ص ٤٥٩.

(٢) د: علي كمال: المصدر السابق ص: ٣٠٦.

(٣) نفس المصدر ص: ٦٢٢.

١٩٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
للـبعض... منها :

أن العالم الرياضي الفرنسي بوانكاريه أعتـرف بأنه يدين بمكتشفاته العلمية الهامة إلى تجليات مـباغـتة مـصـورة من اللاوعي .

و ان العالم الكيماوي الالماني فريدريك كيكولي ذكر : ان اكتشافه لحلقة البانزين كان اثناء حلم عرض له ، وكان لهذا الاكتشاف اثره البالغ على تطور علوم الكيمياء..^(١)

ومنها ما ذكروا عن العالم الفارماكولوجي أتولوي الحائز على جائزة نوبل في الفيزيولوجي والطب (عام ١٩٦٣م) فقد عجز حين كان يجري اختبارات على الضفادع لمعرفة طبيعة النقل العصبي عن الوصول إلى نقطة الحل، وذات ليلة أفاق من حلمه ، وقد انجلت له نظرية النقل والتجربة المختبرية اللازمة لاختبارها في آن واحد...

وقام فسجلها بعبارات موجزة لم يستطع فهمها في الصباح ، ولا تذكرها، ولم يستطع ان يستذكر الحلم، وفي الليلة التالية عاد له الحلم ثانية وفي هذه المرة لم يعد للنوم وقصد مختبره وقام بالتجارب التي تعرف عليها في الحلم فانجز الحل بصورة ناجحة مختبرياً.

وذكروا امثلة كثيرة لشعراء وفنانين رأوا تجارب مماثلة منهم الشاعر الانجليزي كولريـدج الذي نظم قصيدة من (٢٠٠-٣٠٠) بيت في النوم

(١) كارل يونغ وجماعة من العلماء : ص ٤٦ . ٤٧ .

والشاعر الالماني رلكه في قصائده المشهورة بعنوان : مرثيات دينو^(١) .

وفي تاريخنا الاسلامي امثلة وافرة لذلك يحضرنى منها ما رواه الشيخ النوري عن جدنا العلامة الشاعر السيد علي خان المشعشي (ت ١٠٨٠هـ) أنه كان يرى في النوم ما يحدث في اليوم التالي من بعض الأمور وبصورة دقيقة وذكر من ذلك مثلين^(٢) .

وما ذكره العالم الحكيم الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي من أنه بالأنقطاع إلى الله وطلب مرضاته دون غيره انفتح عليه باب المنام بأنواع العجائب فلا تجري مسألة في اليقظة إلا ورأيت - كما قال - بيانها في المنام^(٣) .

ومثله ما نقله الشيخ النوري عن الفقيه السيد مهدي القزويني أن عمه العلامة الجليل السيد محمد باقر بن السيد أحمد الحسيني القزويني^[٢] تعلم في منامه - في موضوع خاص - ما قال عنه : إنه لو كان عمري عمر نوح وأنا أطلب العلم لما أحطت بعشر معشار ذلك^(٤) .

ومما يتحدث به الناس أن السيد حيدر الحلبي صاحب القصائد الحولية المعروفة في رثاء الحسين عليه السلام تأخر في الشروع بنظم أحداها

(١) د. علي كمال : المصدر السابق ص ٢١٧-٢٢٧ .

(٢) خاتمة المستدرک ج ٢ ص ١٧٠-١٧١ .

(٣) عبد الرسول زين الدين : معجم مصطلحات الحكمة عند الشيخ أحمد الاحسائي ص: ٧ .

(٤) الشيخ النوري : جنة المأوى : ص: ٢٨٠-٢٨١ . مطبوعة مع الجزء ٥٣ من البحار .

فراى فاطمة الزهراء عليها السلام في منامه وهي تخاطبه بهذين البيتين:

أناعي قتلى الطف لازلت ناعيا تهيج على طول الليالي البواكيا
أعد ذكرهم في كربلا إن ذكرهم طوى جزعاً طي السجل فؤاديا
فجلس من منامه ونظم إحدى روائعه في رثاء الحسين عليه السلام على
هذا الوزن والقافية. ^(١)

ومن الرؤى الطريفة الصادقة التي تتصل بالرؤى التعليمية اتصالاً
ما لأنها كانت إجابة لسؤال، ما حدث به نصر الله بن مجلى - قال
الطاهري وكان من ثقة أهل السنة - قال: (رأيت في المنام علي بن أبي
طالب عليه السلام فقلت: بأمر المؤمنين تفتحون مكة فتقولون: من دخل دار
أبي سفيان فهو آمن، ثم تم على يد بني أمية على ولدك الحسين ما تم
٠٠ فقال عليه السلام: أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا؟ قلت: لا. فقال:
إسمعها منه، فلما استيقظت بادرت إلى دار الحيص بيص (ابن الصيفي)،
فخرج إلي فذكرت له الرؤيا ٠٠ فأجهش بالبكاء، وحلف بالله أنه ما
سمعها منه أحد، وأنه نظمها في ليلته هذه، ثم أنشدني:

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما غدونا عن الأسرى نغف ونصفح

(١) عدنان البكاء : صور واقعة الطف في شعر السيد حيدر (مخطوط).

فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح^(١)

وما يدخل في نفس الإطار ما ذكره أبو الفرج، قال: كان إبراهيم بن المهدي العباسي أخو الرشيد قد ذكر أنه رأى الإمام علياً عليه السلام وقال له - كما هي دعوى العباسيين إعلامياً - : إنك تدعي هذا الأمر في امرأة ونحن أحق بها منك، قال للمأمون فما رأيت له في الجواب بلاغة كما يوصف عنه، فقال: وأي شيء قال لك، فقال ما زادني على أن قال: سلاماً سلاماً، فقال له المأمون: قد والله أجابك أبلغ جواب، قال: وكيف؟ قال: عرفك أنك جاهل لا يجابك مثلك، إشارة لقوله -تعالى- : ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾^(٢)، فخجل إبراهيم وقال ليثني لم أحدثك^(٣).

والشواهد في ذلك كثيرة ربما أدخلتنا في الإستطراد.

وبما ان افكار الحلم قد تكون استشرافاً ذاتياً ورؤية روحية خاصة، وقد تكون بوحي من ذات موضوعية أخرى أو تلبسها فان الكتابة التلقائية وغيوبة الوساطة وما يملى على الوسيط اثناءها مما لا علاقة له به من حيث المضمون ومن حيث اللغة احياناً يصبح مثلاً

(١) ياقوت: معجم الأدباء، م ١١-١٢، ج ١١ ص ٢٠٦-٢٠٧، الطاهري: الإشارات في علم العبادات ص ٣٥١-٣٥٢ في هامش ج ٢ من كتاب تعطير الأنام للناقلي، ابن خلكان: وفيلت الأعيان ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) الفرقان: ٦٣.

(٣) الأغاني ١٠/١٥٦

١٩٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

قريب الشبه من هذه الناحية... وقائمة اصحاب الكتابة الآلية كما يسمونها والوسطاء اثناء الغيبوبة او نصف الغيبوبة في الغرب والشرق طويلة منهم موريس باربانيل الذي املى عليه الروح المعروف في الاوساط الروحية سلفر برش سفيراً فلسفياً في اكثر من عشرة كتب^(١).

ومنهم محي الدين ابن عربي الطائي الاندلسي المتوفي ٦٣٨ هـ الذي املت عليه بعض الارواح كما ذكر كتاب الفتوحات^(٢) وهو في غيبوبة بحيث لو سئل - كما قال - في ذلك الوقت ما سمع لفقده احساسه:

يقول: ابن عربي: ان ترتيب ابواب الفتوحات لم يكن من اختيار منه ولا عن نظر فكري وذكر: انه يكتب كلاماً له بين كلامين لاعلاقة له بما قبله وما بعده.... وجازف ابن عربي وتجاوز فقال: انه - أي الفتوحات - (بما فيه من تناقضات وخرافات وهلوسات واضحة) جاء من عالم الروح كما جاء الكتاب لمحمد^(٣) وذلك غير مقبول قطعاً بل لا يجد مصداقاً لدى المقارنة الا اذا قصد انه كان كذلك من حيث كونه مملئ عليه لا يد له فيه فقط لا من حيث القيمة والشمول والهدى ، والعصمة العلمية لما اشرنا اليه من وجود ما لا يقبل عقلاً ونقلاً وعلماً من محتوى الفتوحات^(٤).

(١) هانن سوافر : قصتي العظمى ص : ٨ .

(٢) ابن عربي : الفتوحات : م : ١ ص : ١٥٣ و م ٣ ص : ٤٥٦ .

(٣) د : علي عبد الجليل راضي : الروحية عند ابن عربي ص : ٢٢ .

(٤) راجع عدنان البكاء : الأرواح الماسة ص : ٦١ و ص : ٨٣ . ٨٥ .

ان النسبة الكبيرة من الاحلام غير الصادقة مما هي رؤية ذاتية أي ما تراه الروح - لدى تخففها النسبي - من العلاقة بالجسد اثناء نومها والتفتاتها إلى العالم السماوي كما قالوا من جهة أو مما هي مملاة من مصدر روحي موضوعي غير معروف الهوية : يجعل الاطمئنان اليها والبناء عليها فيما استقلت به من موضوع او حكم غير جائز اذا لم يكن المملى عليه معصوماً واذا لم يثبت بدليل خارجي: علمي او عقلي او نقلي قاطع كما سيأتي .

اقسام الاحلام :

يعتقد بعض الناس في الحضارات القديمة ، وبعض المجتمعات البدائية: ان الحلم يعبر دائماً عن الواقع ؛ ولذلك فان الحالم كان يحاسب نفسه ، ويحاسب غيره على ما يرد في محتوى احلامه اذا كان الحلم واضحاً، وكأنه شيء قد حدث بالفعل^(١) .

اما الاحلام غير الواضحة فانهم يرجعون في تفسيرها إلى معبري الاحلام ، وعليهم - اذا ما عبرت لهم - ان يعتبروها حقيقة ايضاً ، وان يعملوا - اذا ما تضمنت أمراً او نهياً - بموجبها مهما كان الامر فضيلاً ، او صعباً .

وقد اهتم البابليون والاعريق والرومان والمصريون بامر الاحلام اهتماماً بالغاً وأنشأ المصريون في عهد الفراعنة في عام (٣٠٠٠ ق.م)

(١) د : علي كمال المصدر السابق ص : ٢٥٤ و ص : ٣١٥ . ٣١٦ .

١٩٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
معابد خاصة سميت (سيرايوم) نسبة إلى سرايس اله الاحلام عندهم ،
يقصدها الحالمون لتعبير ما لم يكن واضحاً من احلامهم ومن اشهرها
سيرايوم ممفيس وكان يقيم في كل معبد عدد من المفسرين عرفوا باسم
رجال المعرفة^(١) .

ويبدو : ان مجتمعنا الاسلامي لم يخلو من الناس الذين يرون : ان
للحلم دلالة دائماً او انه يعبر كذلك عن واقع ، فقد روي عن سماعة
انه قال: ان رجلاً رفع رجلاً إلى الامام علي عليه السلام قال : أن هذا أفترى
على أمي ... فقال له : وما قال لك؟ قال : زعم انه أحتمل بأمي فقال
له الامام إن شئت أقمته لك في الشمس فتجلد ظله فإن الحلم مثل
الظل (أي أنه صورة منعكسة في ذهن الحالم) ثم قال عليه السلام ولكن
سنضربه حتى لا يعود يؤذي المسلمين^(٢) يعني في التحدث باحلام كهذه.
وقد نسبوا إلى متكلم اسلامي يدعى صالح قبه من القرن الرابع: انه
كان يذهب: إلى ان كل ما يراه النائم في منامه فهو على حقيقته^(٣) .

ويذكر الباحثون : بعض المتصوفة كمثال على المبالغة في الاعتداد
بالاحلام ، والبناء عليها سواء كان محتواها من حيث دلالاته ، يتصل
بعقيدة ، او مقام ، او حكم ...

ومن الامثلة المشهورة التي تكثر الشواهد في كتب ابن عربي (المتوفي

(١) د : علي كمال المصدر السابق ص : ٢٢١ .

(٢) الكليني : الكافي ج ٧ ص ٢٦٠ والصدوق : علل الشرائع ج ٢ ص ٥٤٤

(٣) مسائل المرتضى : ص : ٢٩٠ .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٢٠٠
سنة ٦٣٨هـ) عليها حتى انه بنى دعواه : في انه خاتم الولاية -الذي
ادعاه كثيرون - على حلم اخذ صورته ودلالته مما قرأ ونظر
وفكر^(١) ومثل ذلك بعض ارائه حتى في الفقه^(٢) بما يخالف ما روي في
الصحاح .

ومن أغربها وأدلها على عقليته ألا علمية ما ذكره من أن تقي بن
مخلد رأى النبي ﷺ في منامه فسقاه لبناً فصّدق رؤياه فلما أستيقظ
أستقاء فقاء لبناً!!! وعلق ابن عربي على ذلك قائلاً : ولو عبر رؤياه
لكان ذلك اللبن علماً!!! فحرمه الله علماً كثيراً على قدر ما شرب^(٣) .

ومقابل هذه النظرة المغالية في اعتبار الحلم ، والاعتقاد بصدقه
والاستشهاد به في الاصول ، والفروع ، والمراتب ، والحوادث . هناك
طرف على النقيض لا يرى للاحلام اية قيمة واية دلالة ، وأي تأشير
للحاضر أو المستقبل عدا كونه انعكاساً لمؤثرات خارجية أو داخلية أو
استرجاع للحياة الواقعية اثناء الليل او اثناء النهار.

والصحيح الذي سجلته المدونات التاريخية للحضارات القديمة
وتحدثت عنه اسفار العهدين (التوراة والانجيل) وتحدثت عنه القرآن
الكريم ، والسنة المطهرة، وبعض الفلاسفة المسلمين وبعض العلماء

(١) الفتوحات م ١ ص : ٣١٨ . ٣١٩ ، الفصوص ج ١ ص : ٦٣ .

(٢) الفتوحات م : ٤ : ص ٢٥٥ وأقرأ د.علي عبد الجليل راضي : الروحية عند ابن
عربي ص ٣٤٨ : ٣٥٩ .

(٣) ابن عربي : فصوص الحكم : ص ٨٦ .

٢٠١ في الدين والعلم والحياة والإنسان
المنظورين من الغرب ، والباراسايكولوجيون المعاصرون :

ان الاحلام قسمان:

الاول منهما - احلام لا دلالة لها وغير قابلة للتعبير ولا تعني شيئاً ،
وتسمى : اضغاث الاحلام.

والضغث في اللغة قبضة الحشيش المختلط رطبها ويابسها استعملت
في الاحلام لشبهها بها^(١) من حيث اختلاط الصور ، والرموز بشكل لا
يحمل اية دلالة على شيء.

وقد ذكر القرآن المجيد هذا النوع من الاحلام فقال تعالى : ﴿ بل
قالوا أضغاث أحلام بل أفتراه بل هو شاعر ﴾^(٢) وقال سبحانه ﴿ قالوا
أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الاحلام بعالمين ﴾^(٣) .

وفي حديث عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ يذكر فيها أقسام ما
يراه الانسان في النوم يقول ﷺ : (الرؤيا من الله والحلم من الشيطان)^(٤) .
وفي نص آخر للحديث نفسه: الرؤيا الصالحة من الله والرؤيا السوء من
الشيطان فمن رأى رؤيا فكره منها شيئاً فلينفث عن يساره، وليتعوذ بالله

(١) ابن منظور : لسان العرب م ١٢ م : حلم ص : ١٤٥ .

(٢) سورة الانبياء : الاية : (٥) .

(٣) سورة يوسف : الاية : (٤٤) .

(٤) صحيح مسلم م ٤ كتاب الرؤيا: رقم الحديث (٢٢٦١) رقم الصفحة ١٧٧١ .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٢٠٢
من الشيطان فأنها لاتضره^(١).

وفي نص آخر للرواية نفسها أضاف ولا يحدث بها أحداً وفي ثالثة
وليتحول عن جنبه الذي كان عليه^(٢).

وعن الرسول ﷺ ايضاً من حديث : الرؤيا ثلاثة: الرؤيا الصالحة
بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث المرء نفسه فان
رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل، ولا يحدث بها الناس^(٣).

وعن الامام جعفر الصادق عليه السلام :

الرؤيا على ثلاثة وجوه بشرى من الله للمؤمن وتحذير من
الشيطان، وأضغاث أحلام^(٤).

وسياتي الحديث عن هذا النوع من الاحلام لدى الفلاسفة وعلماء
النفس عند ذكرنا ما رأوه في تفسيرها... والثاني منها ما يراه النائم
فيصدق، ويؤول إلى واقع سواء كان ذلك صريحاً، أو رمزياً يحتاج إلى
التعبير وإلى بيان محتواه وتفسير دلالة صورته ورموزه... وسواء كان زمن
تحققه مباشراً أو قريباً أو بعيداً فان رؤيا يوسف عليه السلام لم يأت أوان
تحققها - كما روي - ألا بعد أربعين عاماً فقال عندما سجدوا له : كما

(١) نفس المصدر م٤ ص ١٧٧٢ .

(٢) نفس المصدر والصفحة والباب .

(٣) نفس المصدر : ص ١٧٧٣ . وورد الحديث في المجلسي البحار م ٦١ ص ١٩١ ...

الرؤيا ثلاثة بشرى من الله وتحزين من الشيطان والذي يحدث الانسان به نفسه فيراه .

(٤) الكليني : روضة الكافي ص ٩٠ .

٢٠٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
ذكر القرآن ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي
حقاً ﴾^(١).

ولا فرق أيضاً بين أن يكون محتوى الرؤيا يتعلق بأمر أو نهى، أو يتعلق بشأن ما ، أو يحدث يخص صاحب الرؤيا ، أو غيره من الناس أو يكون مجرد حدث كوني، أو أمر عابر لا يتصل بأحد والأمثلة على ذلك وافرة في تاريخنا الاسلامي: زمن الرسول ﷺ وصحابته، وزمن الائمة من أهل بيته الطاهرين عليهم السلام وصحابتهم وفي التاريخ المعاصر الاسلامي وغيره كذلك .

ويطلق على هذا النوع في اللغة غالباً وفي القرآن في كل الآيات الواردة عنه : الرؤيا.

قال تعالى : لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمين الآية^(٢).

وقال سبحانه : ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا ﴾^(٣).

(١) سورة يوسف : الآية : (١٠٠) .

(٢) سورة الفتح : الآية : (٢٧) .

(٣) سورة الاسراء : الآية : (٦٠) . و أقرأ ما رواه جلال الدين السيوطي في المجلد الخامس من الدر المنثور ص ٢٠٩ ط ١ . دار الفكر عن عدد من الصحابة منهم سهل بن سعد وابن عمر ويعلى بن مرة والحسين بن علي وعائشة وسعيد بن المسيب : أنه رأى بني أمية يتعاورون منبره فساءه ذلك .

وقال جل اسمه ﴿ لا تقصص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيدا ﴾^(١).

وقد قدمنا في القسم الاول : (الاحلام) أما ما ورد بخصوص الرؤيا من أحاديث شريفة ذكرت: (أنها من الله ، أو بشرى من الله) فارجع اليها إن شئت: وورد عنه عليه السلام ذهب النبوة وبقيت المبشرات الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له^(٢).

ومن المعروف فلسفيا ودينياً : ان كونها من الله سبحانه أو بشرى منه لا يعني أنها خارجة عن الاسباب ، والقوانين الكونية التي تمثل مشيئة الله تعالى في ما يجري في العالم والتي يصدر عنها أفعاله ولكن يعني أنها لم يخالطها ما يبعدها عن الصدق، والحق من داخل النفس البشرية، أو من خارجها من المؤثرات الموضوعية بما فيها الإيحاءات الشيطانية..

لا شك : أن الرؤيا بهذه الصفة- لدى غير الرسل والمعصومين عليهم السلام -استثناء ، لذلك كانت قليلة نسبة للاولى حتى لو صدقت جزئياً.

وليس شرطاً : ان يكون صاحب الرؤيا الصادقة ، او التي تحمل أنباء مستقبلية مؤمناً ، او صالحاً فقد ذكر القرآن المجيد صدق رؤيا فرعون وتحققها بالصورة التي عبرها له يوسف عليه السلام^(٣).

ومثلها رؤيا صاحبي يوسف في السجن كما فسرهما لهما ، وهما

(١) سورة يوسف : الاية : (٥) .

(٢) المجلسي : البحار م : ٦١ ص ١٧٨ .

(٣) سورة يوسف الآيات : من (٤٦ . ٤٩) .

٢٠٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان

كافران فرعونيان^(١) ولكن الايمان ، والصلاح والصدق وصفاء النفس يجعل الانسان اكثر استعداداً للرؤيا الصادقة.

قالوا: ولا قيمة لرؤيا الكذاب، لأن دأبه على الكذب في عالم اليقظة؛ واختلاقه ما لا أصل له يتسرب من الوعي إلى اللاوعي فيظهر في الاحلام والحقوا به الشاعر المكثّر الذي يعايش التجربة الشعرية و يتخيل باستمرار من الصور ما لا وجود له في الواقع ذلك لانه ينعكس عليه لا شعورياً وتستمر عملية ابداع هذه الصور لديه في الاحلام اثناء النوم وقد مر شيء من الحديث عن ذلك لدى تناول وظيفة الاحلام.

كذلك ليس شرطاً: ان يكون من يرى اضغاث الاحلام كافراً ، او طالخاً فان المؤمن - كغيره - عرضة لذلك ايضاً بحكم: ان الاحلام تتصل بطبيعة التكوين البشري ، وحالة الانسان جسماً ، ونفساً وعقلاً ، وروحاً وهموماً ، وترتبط بحاجاته ، ورغباته ، ومخاوفه ، ومعاناته وانعكاسات محيطه عليه، وتطلعاته المادية والمعنوية ، وآثار عقائده ، وافكاره ، واعماله وضعياً، وما تؤدي اليه من علاقات واشتباكات كونية ظاهرة، وخفية..

ومن الشواهد على ذلك خاصة : ان اصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرون احلاماً تصل بعضها في فضاة صورتها وهولها إلى حد ان يقول صحابي كأبي سلمة: اني لأرى الرؤيا تمرضني^(٢) وحدث بذلك ابا

(١) سورة يوسف : الآيات : (٣٦) و(٣٩) و(٤١).

(٢) صحيح مسلم ج:٤ كتاب الرؤيا باب ١ الحديث رقم ٤٠٢.

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٢٠٦
قتادة فقال له وانا كنت لأرى الرؤيا تمرضني^(١) وفي نص آخر أثقل علي
من جبل^(٢) .

حتى تحدث رسول الله ﷺ اليهم بالحديث الذي رواه لنا ابو
قتادة، و ابو هريرة والذي سبق ذكره في الاحلام قال: فما هو الا ان
سمعت بهذا الحديث فما اباليها^(٣) .

لقد أفهم ﷺ صحابته : أن في ما يراه النائم بل الاكثر الاغلب من
ذلك ما لايعني شيئاً بل هو انعكاس لإفكار الانسان، وما هو وحي
شيطاني ، وأوصاهم ليطمئنوا لدى حصول الحلم السيء بالأضافة إلى
الاستعاذة بالله التي هي كل شيء بالنسبة للمؤمن دائماً وفي كل مكروه:
بتغيير الحالم وضعيته في النوم وتحويله إلى الجانب الآخر فقد يكون الحلم
من أثر ضغط المعدة على الحجاب الحاجز وأوصاهم كذلك بأن
لا يحدثوا أحداً فأن فعلوا فإلى محب... وهي وصية هامة جداً لأمور
منها: أولاً: قطع الأهتمام النفسي بالرؤى السيئة التي تتعمق، وتمتد
بالتكرار وبإيحاء الآخرين الذين يستمعونها أيضاً.

ثانياً: لئلا يصادفوا من يفسر لهم الحلم -بحسب فهمه لرموزه
تفسيراً سيئاً يفرعهم، ويؤذيهم ...

ثالثاً: قد يتعرضون بسبب صور أحلامهم للسخرية وكلا هذين

(١) نفس المصدر و الموضع .

(٢) نفس المصدر م ٤ والموضع .

(٣) نفس المصدر والموضع .

الأميرين قد حصل بالفعل .

فقد ورد كمثل على الأول : أن امرأة رأت في منامها أكثر من مرة كأن عمود بيتها قد أنكسر ... فقصته على أحد الصحابة فقال لها : إن زوجها سيموت بفهم : أن عمود البيت بالنسبة للمرأة يرمز إلى الزوج ... لكن المرأة قد قصت حلمها المتكرر سابقاً على رسول الله ﷺ فقال لها : إن زوجها - وكان على سفر - سيعود صالحاً^(١) .. بتأويل العمود - في حلمها - كرمز لحالة استقلالها في إدارة البيت والذي سينكسر بعودة الزوج.

وورد كمثل على الثاني: أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : رأيت في المنام كأن رأسي قد ضرب فتدحرج فاشتدت على أثره ... فضحكوا منه ...

فقال الرسول ﷺ : لا تحدث الناس بتلاعب الشيطان بك في منامك^(٢) .

إن الاحلام ، والرؤيا- كما أشرنا سابقاً- ترتبط في ما هو كاذب منها وما هو صادق ، وما هو صريح وواضح من الثانية، وما هو رمزي بطبيعة التكوين والحالة البشرية وعلاقات الحالم وعقائده، وتوجهاته وأعماله ، ولذلك فهي- من حيث وجودها وغايتها- في نوعيتها تجري طبقاً لقانون قدره العليم الحكيم ينتهي أصلاً إلى ذلك...

(١) المجلسي : البحار م٦١ ص١٦٤ .

(٢) صحيح مسلم م٤ ص١٧٧٢ باب ٢ رقم ٤٠٢ .

وإلى هذا لفت الامام الصادق عليه السلام المفضل بن عمرو فقال :

فكر يا مفضل في الاحلام كيف دبر سبحانه الأمر فيها فمزج صادقها بكاذبها فإنها لو كانت تصدق لكان الناس كلهم أنبياء، ولو كانت كلها تكذب لم تكن فيها منفعة بل كانت فضلاً لامعنى له فصارت تصدق أحياناً فينتفع بها الناس في مصلحة يهتدي لها، أو مضرة يتجنب عنها ، وتكذب كثيراً (تأمل قوله كثيراً) لئلا يعتمد عليها^(١)...

(١) المجلسي ، البحار م: ٦١ ص ١٨٣ .

مناشيء الحلم والرؤيا

من حيث الأصل والصورة

اختلف الفلاسفة ، وعلماء الحياة ، وعلماء النفس ، والروحيون قديماً ، وحديثاً: في منشأ الاحلام، وسبب حدوثها بأنواعها وصورها المختلفة... فذهب بعضهم : إلى كونها ظاهرة بايولوجية، وآخرون : إلى كونها نفسولوجية وبعض ثالث: إلى انها نفسية ، وذهبت جماعة رابعة: إلى انها ظاهرة عقلية وخامسة إلى انها : روحية: وليس في وسعنا في هذا البحث استعراض هذه الآراء ولا أن نؤرخ لها وبجسبنا : أن نقدم باختصار نماذج منها مبتدئين بعرض ما ذكروا من تفسيرات للاحلام (بمفهومها الخاص) أي التي لا تحمل دلالة استباقية ، أو إنباءً غيبياً صادقاً... ومنتهم بعرض تفسيراتهم للرؤيا التي تحمل مثل هذه الدلالة وما تصوروه في تلك وهذه من أسباب من حيث الأصل ، ومن حيث الصورة... على أن ذلك لا يعني : أن من نذكر له تفسيراً لاولى لا يؤمن بالثانية: (الرؤيا) ، أو لا يرى لها تفسيراً فأن فيهم من تحدث عن الأثنين وامن بوجودهما - كما هو ثابت في واقع الحياة - وقدم تفسيراً لكل منهما :

أولاً - الاحلام

مر علينا في أقسام الاحلام، ما ورد في الاحاديث عن الرسول ﷺ

والائمة من أهل بيته عليه السلام، وقد قدمنا نماذج منها : أن الاحلام انعكاس لما يحدث الانسان به نفسه أو من وحي روح شيطاني .

وما يحدث الانسان به نفسه يشمل ما كان سببه صوراً محسوسة أو حالات سارة أو محزنة أو يكون سببه حاجات ، أو رغبات جسمية، أو نفسية، أو مخاوف أو أي مصدر آخر؛ لذلك فهو أشمل مما هي بعض التفسيرات التي تقف على بعض ذلك ...وقد ذكرنا : أن الوحي الموضوعي الخارجي من قبل روح شيطاني أو غيره أصبح قريب التصور بل ثابتاً بما قدمته الكتابة التلقائية ووساطات الغيبوبة من شواهد على وقوع ما هو مماثل من حيث الصورة والنتيجة بشكل عام .

أما من العلماء والفلاسفة المسلمين فقد رأى أبو نصر الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩هـ: أن الاحلام تتصل باسترجاع صور الأحداث المحسوسة التي تعاقبت على الانسان أثناء يقظته بتصرف ومحاكاة يقول: (القوة المتخيلة متوسطة بين الحاسة والناطقة وعند ما تكون الحواس مشغولة بالفعل تكون المتخيلة منفعة عنها مشغولة بما تورده عليها وترسمه فيها وتكون مشغولة بخدمة القوة الناطقة وبأرفاد القوة النزوعية.. فإذا انفردت القوة المتخيلة بنفسها فارغة عما يردها من الحواس كما هو في حال النوم وتخلت عن خدمتها للقوة الناطقة والنزوعية عادت إلى ما تحتفظ به من رسوم المحسوسات فتركب بعضها إلى بعض ، وتفصل بعضها عن بعض وحاكت الاشياء المحسوسة المحفوظة وأحياناً تحاكي المعقولات وأحياناً تحاكي القوة الغاذبية، وأحياناً تحاكي القوة النزوعية وتحاكي أيضاً ما يصادف عليه البدن من المزاج...)

٢١١ في الدين والعلم والحياة والإنسان
فإذا صادفت البدن رطباً ركبت المحسوسات التي تحاكي الرطوبة وإذا كان
المزاج يابساً ركبت المحسوسات التي تحاكي بها اليبوسة كذلك تحاكي
حرارة البدن وبرودته إذا اتفق في وقت من الأوقات أنه كان حاراً أو
بارداً^(١) والمحاكاة لاتعني التطابق وإنما تعني صورة ترجع بعلاقة ما
بالتأويل إلى ذلك .

ولا يبعد رأي ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ من حيث الأساس عن
رأي الفارابي فهو يرى: ان انفعال الحواس الخمس بالمحسوسات
الخارجية الحاضرة يذهب عن طريق الاعصاب الحسية إلى الدماغ في
جانب منه يسمى بالحس المشترك الذي من شأنه قبول الصور التي تأتي
عن طريق الحواس الخمس ، او غيرها...ومن الحس المشترك تذهب
هذه الصور إلى القوة الخيالية او المصورة فتحفظ وتبقى فيها بعد ذهاب
وغيبة المحسوس الخارجي ،وتصبح بذلك مصدراً لانفعالات المتخيلة ،
والوهمية^(٢) التي تنشأ عنها الأحلام.

أراء العلماء الغربيين :

ومن علمائنا وفلاسفتنا ننتقل إلى الفلاسفة والعلماء الغربيين(ما
قبل فرويد).

(١) الفارابي : اراء أهل المدينة الفاضلة ص ١٠٣-١٠٤ . د. عمر فروخ : ترجمة الفارابي:
تاريخ الفكر العربي ص ٣٦٤ .

(٢) ابن سينا : الإشارات مع شرحي الرازي ، والطوسي ج ٢ ص : ١٢٨ .

فنى ان هلد برانت يرى ان الاحلام : تعبير عن تجاربنا وانفعالاتنا في حياتنا الواقعية مع تحوير وتصرف في النوم قال : (ان ما من تجربة في الحلم يمكن تصورهما الا وقد كان لها اصولها الاولية وبأنها عبرت إلى عقولنا بصورة ما اثناء اليقظة ، وعلى شكل رغبة ، او امنية ، او دافع ، وفي ما يخص هذا الدافع الاصيل فان الحلم لم يكتشفه ، وانما قام فقط بتقليده ، وتوسيعه ، وتفصيله بشكل دراماتيكي)

ويقول: ان الحلم يسمح لنا بنظرة عرضية لا عمق ما في دخائل وجودنا وهو ما اقبل امام عيوننا في حالة اليقظة^(١)

وبخصوص هذا الجانب يرى فشر (ان المشاعر والرغبات الذاتية، وعاطفة الفرد، ووجدته وكذلك الخصائص الاخلاقية للفرد فأنها تنعكس في مرآة احلامه)^(٢)

اما سيمغند فرويد الطبيب وعالم النفس النمساوي المعروف المتوفى سنة ١٩٣٩م فقد كان كتابه الاحلام الذي صدرت طبعته الاولى سنة ١٩٠١ منعطفاً، وبداية تاريخية للاهتمام بالاحلام على المستوى العلمي، ومحاولة الافادة منها في التحليل والعلاج النفسي...

ويفترض فرويد سبباً قليلاً - يدعى انه انتهى اليه في تحليلاته - وعلى ذلك فهو لا يهتم بصورة الحلم وما يمكن ان يكتشف منها في هذا

(١) د . مصطفى غالب : في سبيل موسوعة فلسفية ص ١٣٦ . ١٣٩ .

(٢) د . علي كمال : ابواب العقل الموصدة : باب النوم ، باب الاحلام ص : ٣٣٨ .

٢١٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان

الجانب او ذاك، لإنها في الغالب لا تعني لديه ابتداءً الا رموزاً صورية بعيدة للتعبير عن رغبات مكبوتة... ان محتوى الحلم عند فرويد لا يتضمن وراء مخلفات اليقظة، او النهار السابق للحلم في الاغلب الا تنفيساً جزئياً عن رغبات جنسية طفولية مكبوتة بحكم كونها محرمة دينياً، واخلاقياً بحيث: ان الفرد الحالم نفسه يستقذرها، وينكرها - بصدق - في حال يقظته وفي مجال شعوره... وذلك ما أدى إلى كبتها... ولكنها ظلت كامنة بعيداً في الجانب اللاواعي من ذاته...

ولما كان عقل الانسان او وعيه الذي يمثل الرقيب يضعف، ويقل، من هذه الناحية اثناء النوم فإن ما تحت الوعي يستغل هذه الفرصة لتأخذ هذه الرغبات سبيلها إلى الوعي عن طريق الحلم، ولكن رقابة الوعي لا تتلاشى في النوم وانما تقل، وتضعف فقط، لذلك فان ما بقي منها يمنع هذه الرغبات الجنسية المحرمة عن التعبير عن نفسها في الحلم بصورة صريحة مما يضطر الجانب اللاواعي من الذات - ليجعلها تمر - إلى ممارسة خادعة يخضع فيها الصور المعبرة عن هذا الدافع للتحوير، واستخدام الرموز البعيدة التي يخطئها الانتباه... وتلك هي التي يتشكل منها المحتوى الظاهري للاحلام وبذلك يحصل التنفيس الجزئي عن هذه الرغبة التي سيكون كبتها - لولا ذلك - سبباً للقلق، والعصاب والعقد، وللهستيريا احياناً.

وبناءً على ذلك قال فرويد: (يحق لنا اذن ان نقول: ان كل حلم انما

ويرى فرويد في ما نقله يونغ عنه: ان التداعي الحر هو ما سيجعلنا نكشف عن الدافع المكبوت في نفس الحالم قال: 'اذا ما شجع الحالم على الماضي في كلامه عن صور احلامه، وما تحته من افكار في عقله فانه سيسلم نفسه، ويكشف عن الخلفية اللاواعية لعله في ما يقول، وفي ما يهمل من قوله معاً... قد تبدو افكاره لا منطقية وغير ذات صلة، لكن بعد قليل من الوقت يصبح من السهل نسبياً معرفة ما يحاول ان يتجنبه: أي فكرة بغیضة، او خبرة يكبت؟ لا يهم كيف يحاول ان يمورها؟ فإن كل ما يقوله يشير إلى صميم مأزقه^(٢)

ان فرويد لا يعطي اهتماماً لمضمون الحلم، وانما لدافعه الكامن فالصور والرموز - كما مرت الاشارة - مهما كانت بعيدة يجب ان تأخذ تفسيرها او معناها - لدى الذكر والانثى - بشكل ينتهي إلى التعبير عن هذا الدافع... ولذلك وضع - كما ذكر ادلر - كشافاً للصور والرموز التي تعبر عن الدافع الجنسي بالنسبة للذكر والانثى وعلى سبيل التعميم فالحديقة، والشرفة، والزورق، والبيت، والاناء، وما شاكل ذلك رموز في احلام الذكر للانثى، والمفتاح، والقلم، والعصا، والسيف، والغصن، والمعطف، والوحش المفترس رموز في احلام الانثى للرجل وهكذا...
ورغم ذلك فان فرويد ينكر في كتابه حياتي والتحليل النفسي ان

(١) فرويد : حياتي، والتحليل النفسي: ص: ٥١ . ٥٣ .

(٢) يونغ : الإنسان ورموزه ص: ٢٨ .

تكون الدوافع عنده محصورة بالرغبة الجنسية، وان كانت في نظره تشكل معظم الحالات، قال (لم اقرر قط ما نسب الي من ان تفسير الاحلام بين: ان لجميعها مضموناً جنسياً او انها جميعاً صادرة عن قوى دافعة جنسية فمن اليسير ان نتبين: ان الجوع، او العطش، او الحاجة إلى الافراز قد تنتج احلام اشباع شأن أي دافع مكبوت جنسي او اناني)^(١).

وجاء علماء النفس (ما بعد فرويد) ليس من الناحية التاريخية الزمنية فان بعضهم معاصرون له ، وإنما من ناحية الريادة في الاهتمام بالاحلام علمياً، واعطائها بعداً نفسياً ودلالة نفسية من حيث السبب ، أو من حيث الصور والرموز التي تشكل مضمونه بالصورة التي استخدمت بها في التحليل والعلاج النفسي ... ولكنهم لم يتفقوا مع فرويد في إعطاء الدافع الجنسي دوراً يتجاوز بصورة غير مقبولة: الدوافع الأساسية الأخرى في حياة الانسان ، وافترضه غالباً سبباً قليلاً يحدد محتوى الاحلام ، ويفسرها بحيث أفرط فأعطى كشفاً عاماً لرموز الاحلام لدى الذكر والانثى كما أشرنا وهو ما لا يمكن كما سيأتي. إن الرموز هي لغة الحلم أصلاً في كل موضوع وليس للتستر على الغرض الجنسي كما زعم على أن الرموز التي ذكرها في كشفه نفسها كثيراً ما تعني غرضاً آخر...

وخالفوه أيضاً وعلى مستوى المناقضة في عدم اهتمامه بمحتوى الاحلام ورموزها ابتداء للتعرف على ما تحمل من دلالة دون افتراض

(١) فرويد : المصدر السابق نفس الصفحات .

أي سبب قبلي يحدد دلالتها وتفسيرها... ثم أخذوا عليه تجاهله للاحلام ذات الدلالة الروحية ، والأنباءات المجهولة ، والتعليمية والمضامين الاستباقية والغيبية صريحة كانت أو رمزية... وهي تجارب شائعة الحدوث لا يمكن لعلم النفس أنكارها ...

يقول العالم النفساني المعروف الدكتور كارل غوستاف يونغ المتوفى عام ١٩٦٣م .

(لقد علق فرويد اهمية خاصة على الاحلام كمنطلق لعملية من التداعي الحر لكنني بعد مدة بدأت اشعر بأن ذلك كان استخداماً مضللاً وغير ملائم للصور الثرية التي ينتجها اللاوعي في النوم ويقول : بدأت شكوكي في الواقع عندما اخبرني زميل لي عن تجربة مر بها خلال رحلة طويلة بالقطار في روسيا فعلى الرغم من انه لم يكن يعرف اللغة وحتى ليس قادراً على حل شفرة الكتابة السيريلية (الابدائية السلافية) وجد نفسه مستغرقاً في تأمل الحروف الغريبة التي كتبت فيها بيانات السكك الحديد .

وسقط في حلم يقظة تخيل فيها كل أنواع المعاني لها ... ووجد أنه قد ثارت لديه العديد من الذكريات القديمة من بينها بعض المواضيع الكريهة المدفونة من وقت بعيد ... وتلك هي ما يدعوه علماء النفس بـ (مركباته) (المواضيع الانفعالية المكبوتة التي تسبب اضطرابات نفسية مستديمة، أو حتى حالات عصاب^(١)).

(١) كارل غوستاف يونغ : الانسان ورموزه ص: ٢٩ .

٢١٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

وإذا فليس الحلم دائماً تعبيراً عن رغبة مكبوتة بدليل ما يؤدي اليه استخدامه في التداعي اذ ليس من الضروري كما يقول يونغ استخدام الحلم كما فعل فرويد منطلقاً لعملية من التداعي الحرفي إن باستطاعتنا الوصول إلى المركز من أية نقطة: بأن نبدأ التداعي مثلاً من الحروف السيريلية كما مر أو من تأملات في كرة زجاجية أو من قراءة الصلاة أو من التأمل في لوحة حديثة وهكذا^(١)...

ورأى يونغ: أيضاً أن لرموز الحلم معنى أشمل مما حصرها فيه فرويد حتى تلك التي ذكرها كرمز للجنس .

قال يونغ : قد يحلم شخص بأنه يدخل مفتاحاً في قفل، أو يستخدم عصا غليظة ، أو يحطم باباً بكبش (آلة حربية) إن كل واحدة من هذه الصور يمكن أن تعتبر رمزاً جنسياً لكن حقيقة كون لاوعيه قد أختار - لاغراضه الخاصة - واحدة من هذه هي الاخرى ذات أهمية رئيسية ، إن المهمة تكون في فهم سبب تفضيل المفتاح على العصا، والعصا على الكبش ... وفي بعض الاحيان قد يقود هذا حتى إلى اكتشاف أن ما مثلته (هذه الرموز) ليس هو الفعل الجنسي على الاطلاق بل قصداً سايكولوجياً مختلفاً تماماً...

من مجرى التفكير هذا انتهيت إلى أن المادة التي تكون جزءاً من الحلم بوضوح وجلاء هي وحدها التي ينبغي استخدامها لتفسيره... ويقول : إن للحلم تحديده الخاص به ، وشكله المعين ذاته يخبرنا

(١) نفس المصدر السابق والموضع .

عما ينتمي اليه وعما يقود بعيداً عنه في حين يغرينا (التداعي الحر) بعيداً عن تلك المادة بنوع من الخط المتعرج.

أن المنهج الذي طورته كثير الشبه بطواف مركزه صورة الحلم كنت أطوف حول صورة الحلم وأهمل كل محاولة يقوم بها الحالم للهرب منها ومرة بعد أخرى في عملي المهني كان علي أن أكرر هذه الكلمات دعنا نعود إلى حلمك... ما الذي يقوله الحلم^(١).

ونبه يونغ: إلى الاهتمام بالحلم المتكرر فهو ظاهرة جديرة بالملاحظة فثمة حالات يكون فيها الناس قد حلموا بنفس الحلم من طفولتهم إلى السنوات المتأخرة من بلوغهم ويرى أن حلماً من هذا النوع عادةً ما يكون محاولة لتعويض عن خلل معين في موقف الحالم من الحياة أو أنه يرمي إلى لحظة رض خلفت بعدها ضرراً نوعياً^(٢).

إن اللاوعي أو العقل الباطن وهو الجانب المقابل للوعي في الذات الانسانية يرصد ويسجل، ويحفظ ويسبر كل ما يفوت الوعي مما لم

(١) يونغ : الانسان ورموزه ص ٣٣.

(٢) نفس المصدر : ص ٦٢-٧٤ (ذكر يونغ حلماً تكرر عنده طوال سنين عديده ثم أنقطع حين تحقق محتواه الرمزي وذكر سلامة موسى في أسرار النفس ص(٢٤-٢٦) حلماً تكرر لديه عدداً من السنين. بصورة كابوس مرعب واستطاع بالتحليل ان يعرف انه يعود فيها لواقعة حدثت له في الطفولة. وهي سقوطه على جثة ميت مخنوق ازرق منتفخ مما اربعة وقتها رعباً قاتلاً وذهبت مع السنين ذكراها من وعيه ودفنت في اللاوعي وظلت تظهر بصورة كوابيس حلميه مستمرة وباكتشافه ذلك انقطع الحلم.

٢١٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
يلاحظه ابتداءً، أو مما لاحظته ونسيه أو مما لاحظته ولم يدرك أهميته سواء
ما أتصل من ذلك بنفسه أو بالغير ومما له علاقة بالماضي ، أو الحاضر
وما يعطيه ذلك كله - بالحسابات الدقيقة - من نتائج في المستقبل وسواء
كان أحساساً ، أو رغبة أو توجهاً، أو حالة أو جانباً خلقياً، أو مسلكاً
معيناً في الفكر أو العمل...

إن اللاوعي عند يونغ قادر على الاستنباط بما يحدد - ضمن
الاختيارات والعلاقات المختلفة - صورة الاتجاه ليس بالصورة التي
يؤديها واعظ أي من حيث الوظيفة بل بالصورة التي يقررها بصورة
حتمية الاستيعاب للقضايا على مستوى شمولي ودقيق . لا يتيسر للوعي
في الذات انه يقوم بذلك كما لو كان حاسوباً.

ولكن كما يقول يونغ (مثلما تستطيع المحتويات الواعية أن تختفي
في اللاوعي فإن محتويات جديدة لم تكن من قبل واعية قط يمكن أن
تنبت منه .

ربما أمتلك المرء تلميحاً مثلاً عن شيء عند حافة الانبثاق إلى
الوعي.

لقد قادني اكتشاف- أن اللاوعي ليس مجرد مستودع للماضي بل
ومليئاً أيضاً ببذور المواقف أو الفكر النفسية المستقبلية إلى مقتربي
الجديد من علم النفس ثمة قدر عظيم من النقاش الجدلي حول هذه
النقطة... لكنها حقيقة... إنه بالإضافة إلى الذكريات من الماضي
الواعي البعيد الأمد هناك أفكار جديدة كل الجدة وفكرٌ خلاقة يمكن

أيضاً أن تظهر من اللاوعي - أفكار لم تكن من قبل البتة^(١).

ولذلك فإن من المنتظر ان لا يدرك صاحب الحلم مداه ولا أي أحد آخر الا اذا كان عالماً موسوعياً متأنياً ولا يدرك الحالم أيضاً الرموز الموظفة التي يستخدمها في التعبير عن ذلك فهو يستمد أحياناً لغة جماعية تاريخية ولغة صورية قد ترجع إلى أي شيء ذي علاقة بمحتوى الحلم أو بالحالم قريبة أو بعيدة على أن يكون مثالياً لتحقيق أغراض الحلم.

وهذا يعني أن تفسير الاحلام ليس يسيراً ولا يمكن أن توضع لرموزه كشوفاً كما فعل فرويد مثلاً.

يقول يونغ^(٢) إن قصة يرويها العقل الواعي تكون ذات بداية وذروة ونهاية لكن الشيء ذاته لا يصح بالنسبة للحلم. إن أبعاده في الزمان والمكان مختلفة جداً ولفهمه ينبغي أن نتفحصه من كل مظهر مثلما قد نأخذ شيئاً في أيدينا ونقلبه مراراً وتكراراً إلى أن نكون على معرفة بكل تفاصيل شكله^(٢).

ويقول : يكون من الحمق الجلي الاعتقاد بأدلة مصنفة وجاهزة لتفسير الحلم كما لو كان باستطاعة المرء أن يقتني مرجعاً ويبحث فيه عن رمز معين لأنه لا يمكن فصل أي رمز في الحلم عن الشخص الذي حلم به ، وليس من تفسير مجرد أو مباشر لأي حلم لأن كل شخص يختلف كثيراً عن غيره في الطريقة التي يعمل فيها لاوعيه على اتمام أو

(١) يونغ المصدر السابق : ص ٤٥ .

(٢) يونغ المصدر السابق : ص ٣١ .

٢٢١ في الدين والعلم والحياة والإنسان

تعويض قصور عقله الواعي بحيث يكون من المستحيل التأكد من مدى
امكانية تصنيف الاحلام ورموزها بأية حال من الاحوال^(١)...*

وساق يونغ أمثلة عديدة من الاحلام تشهد لما قاله من مضمون
الاحلام في ما أتصل بالماضي والحاضر والمستقبل ورموزها العسيرة
الأستحضار^(٢) وسيأتي في الحديث عن الرؤيا الصادقة والاستباقية ايمان
يونغ بها وتفسيرها عنده.

أما الطبيب والعالم النفسي الالماني الشهير الفريد أدلر فإنه - كما
هو فرويد بالنسبة لدافع الجنس - يعطي في دراساته النفسية : للشعور
بالنقص بسبب ما ، ومحاولة التعويض المكان الاول كدافع في أفكار
الفرد وسلوكه، وفي احلامه أيضاً حتى عندما يكون موضوع الحلم
جنسياً فإنه عند أدلر يمثل تعويضاً في الواقع بسيطرة فرد على آخر.

إن مركب النقص - كما هو معروف - قد يكون دافعاً للعمل
الدائب الحثيث للتفوق بقصد التعويض وصرف النظر عن موضوع
النقص الذي يشعر به الانسان (وقد ذكر أدلر : انه استقرأ مئات من
العبارة فالفاهم كلهم قد نشأوا على نقص ما)^(٣).

(١) يونغ المصدر السابق :ص ٦٢ .

(* هذا يشهد لحكمة النهي الوارد : في الحديث النبوي عن التحديث بالحلم .

(٢) يونغ المصدر السابق :ص ٣٦-٧٠ .

(٣) سلامة موسى : اسرار النفس ص ١٢٦ .

ولكن الأمر ليس هكذا دائماً وإلا لتفوق الزوج في أمريكا^(١) إنه قد يصبح أحياناً دافعاً للأنطواء، والفشل، والتخلف، والحسد والحقد ...

ومما يلجأ إليه أصحاب مركب الضعة : الاستعلاء والتكبر الفارغ دونما أساس ذاتي، أو موضوعي ليكون ذلك معادلاً نفسياً يخفي في تصور صاحبه ما يشعر به من النقص^(٢) ...

وفي الاحلام يصبح محتواها لدى هؤلاء غالباً معادلاً موضوعياً من هذه الناحية فمن المعروف أن لاوعي الحالم منهم يحقق له رغباته، وما يطمح اليه بصورة تقابل في صورتها حالة النقص التي يعاني منها في هذه الجهة أو تلك... وبصورة عامة قد يرى مثلاً نفسه عظيماً أو صديقاً للعظماء أو مزاملاً للمشهورين، أو ممدوحاً للشعراء، أو غالباً في ميادين المسابقة والصراع وما شابه ذلك... إن الاحلام تساهم في حل مشاكل الحالم المصاب بعقدة النقص لكن ليس بمنطق الحكمة والعقل ولغتهما، وإنما بوسيلة العواطف والأمانى وما تنتجه من أخيلة.

يقول أدلر : (إن هناك عنصراً من خداع النفس في الحلم لكن ذلك

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) سبقت إلى بيان هذا المعنى أحاديث شريفة عن اهل البيت عليهم السلام منها ما روي عن

الامام الصادق عليه السلام قال : ما من رجل تكبر او تجبر الا لذلة يجدها في نفسه وقال عليه السلام

: ما من احداً يتيه الا من ذلة يجدها في نفسه. راجع الكليني : اصول الكافي ج ٢ :

٢٢٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان

لا يخلو من فوائد ايجابية إذا ما كان له أن يساعد الفرد في مواجهة موقف ما بدلاً من أن يتجنبه، أو يخلق له منظوراً كاذباً يمكن أن يوصله في النهاية إلى منظور آخر صحيح) ولهذا فإن أدلر يجد : أن خداع النفس أثناء الحلم هو جزء من قصد الحلم ذلك ، لأن الأهداف الخاصة للفرد الحالم غير متوافقة مع الواقع الآتى والحالم يسعى لأيجاد حلول لمشاكل مستعصية وهي المشاكل التي تمثل أمنياته ... ويقدم د. أدلر الحلم التالي لأحدى مستشيراته لنرى تفسيره طبقاً لما ذكر :-

وهو حلم سيدة كانت تشغل مركزاً ثانوياً في إحدى الشركات لكنها كانت عالية الطموح وتتمنى أن ترقى إلى منصب أعلى ، وحدث أن أعلن : أن رئيس القسم الذي تعمل فيه سيخلي منصبه غير أن تحقيق طموحها للترقية يصطدم بوجود ثلاثة موظفين من الرجال مؤهلين للترقية ، واحتلال المنصب ... وحلمت السيدة : بأنها موجودة في غرفة واسعة جداً وفي وسطها كرسي كبير لا يجلس فيه أحد غير أن هنالك أناساً كثيرين وكلهم من الرجال يدورون حوله بينما يكون النساء حلقة خارجية تحيط بهم .

قالت السيدة : (أما أنا فقد آخفت خلف الستارة وقمت بإزالة ، ومحو زيني ، وارتديت بدلة رجالية وسرت نحو الجمهور الذي لا يعرفني فيه أحد وقمت بأختراق طوق الرجال وجلست على الكرسي ، وسمعت الحاضرين يصفقون لي^(١) . ومحتوى الحلم واضح ...

(١) د. علي كمال : ابواب العقل الموصدة : باب النوم ، باب الاحلام ص ٣٠٠ .

ويرى أدلر في تفسير الاحلام فناً يتطلب المهارة والحساسية والخيال الخلاق ، ويدعو في هذه الناحية إلى تفسير عام لمحتوى الحلم أولاً ثم التطور من ذلك إلى اللغة الخاصة للحالم في حلمه، وبالصورة التي تتوافق مع الحالم، وحياته، ويدعو أدلر إلى ضرورة أن يجري تفسير الحلم طبقاً للحياة الآنية للفرد والكيفية التي يتعامل بها مع الغير وهو بذلك يعارض فرويد الذي يفسر الحلم في مجال بعيد عن آنية واقع الفرد بالرجوع إلى حياته الطفولية ، ورغباته الجنسية المكبوتة فيها وهو يخالف فرويد ايضاً ، في أنه لا يجد في رموز الاحلام ثوابت يمكن ترجمتها بصورة عامة ودائمة فإن الحلم يعكس المنطق الخاص للفرد ، وأن من المستحيل وضع رموز عامة في تفسير الاحلام فلكل حالم في نظره لغته الخاصة في حلمه وهي لغة تتوافق مع قرارة نمط حياته ولغة الحلم ليست أشياء كامنة في الفرد كما رأى كل من فرويد ويونغ ، وإنما هي مستمدة من المحتوى الاجتماعي والحضاري للفرد الحالم ...

وأدلر لا يجد لأي رمز معنى ثابتاً ولا يعتقد بأن هناك رموزاً عامة وكونية يتشاطرهما كل الحالمين في كل زمن، وكل حضارة فلكل حالم رموزه الخاصة به... غير أن هذا لا يمنع من مشاطرة الحالم الآخرين في مجتمعه وحضارته لبعض الرموز ومعانيها لأن لغة الحلم يمكن أن تشتق من أية ناحية من نواحي التجارب الحياتية التي يتعرض لها الفرد وهي تجارب متشاطرة في الحضارة المشتركة^(١).

(١) د. علي كمال : المصدر السابق ص ٣٠١-٣٠ ، د. رؤوف عبيد : مطول روح لا

ثانياً . الرؤيا :

من المعروف لدى الدارسين، واهل العلم: ان الدين كالفلسفة الالهية الحققة وكالروحانية، والباراسايكولوجية المعاصرة يرى: ان الانسان كائن ثنائي يتالف من هيكل او جسد مادي ، ومن جسم مثالي او برزخي سماوي من حيث جوهره وطبيعته يتفاوت في رتبته، او شفافيته هو ذاته، او نفسه المتوفاة اصلاً، وسماه المحدثون الروح تجوزاً او خطأ لأن الروح قوة او جوهر مجرد هو المبدأ المخلوق الذي يعطى للانسان: الحياة، والقدرة والعلم والاول، والثاني هو كيان المخلوق الذي يتعامل بهما مع العالم... الاول مع العالم المادي والثاني مع العالم السماوي والنوم فصم جزئي موقت بين الروح والجسد لا يختلف عن الموت الا بذلك.

قال تعالى ﴿الله يتوفى الانفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الاخرى إلى اجل مسمى﴾^(١)
وقد سجلت تجارب علمية ثابتة للفصم الجزئي المؤقت في ظواهر الخروج الواعي وغير الواعي عن الجسد وبناءً على ذلك جاء تفسير الرؤى الصادقة في الاحاديث الشريفة.

ففي حديث عن الرسول ﷺ يخاطب علياً عليه السلام قال فيه (يا علي

جسد ص ١٠٧٨ .

(١) سورة الزمر الآية : ٤٢ .

ما من عبد ينام الا عرج بروحه إلى رب العالمين فما رأى عند رب العالمين فهو حق ثم إذا أمر الله العزيز الجبار برد روحه إلى جسده فصارت الروح بين السماء، والارض فما رآته فهو اضغاث احلام^(١)

والعروج إلى رب العالمين يعني : تصاعد النفس إلى العوالم الملكوتية التي لا تسبقه سبحانه بالقول فلا تخالطها ظلمة، ولا باطل، ولذلك نسبت اليه تعالى والا فهو سبحانه بائن لا تراخي مسافة^(٢) حاضر غير محدود، وغائب غير مفقود^(٣).

ويجعل الامام الصادق عليه السلام في حديث عنه: للوقت وللطهارة وذكر الله مدخلاً في صدق الرؤيا : فعن أبي بصير قال : قلت له جعلت فداك: الرؤيا الصادقة، والكاذبة مخرجها واحد؟.

قال عليه السلام : أما الكاذبة المختلفة فإن الرجل يراها في أول الليل في سلطان المردة الفسقة (وربما فهم ذلك بأن نومه ليس عميقاً فيكون ضمن منطقة الارواح السفلية الشيطانية بمعنى أن أحياءاتها يمكن أن تتداخل مع حلمه)...

قال عليه السلام : وإنما هي (يعني الكاذبة) شئٌ يخيل إلى الرجل وهي كاذبة مخالفة لا خير فيها .

وأما الصادقة فهي إذا رآها بعد الثلثين من الليل مع حلول الملائكة

(١) المجلسي : البحار ج ٦١ ص : ١٥٨ . ١٥٩ .

(٢) نهج البلاغة: خطبة ١٣ ج ٢ ص ٥٣ .

(٣) المجلسي البحار : م ٤ : ص ٢٦٤ . من حديث مروي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

٢٢٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان
قبل السحر وهي صادقة لا تختلف إن شاء الله إلا أن يكون جنباً على
غير ظهور ، أو لم يذكر الله حقيقة ذكره فإنها تختلف وتبطل على
صاحبها^(١) .

أما الفلاسفة المسلمون ، ونذكر منهم هنا ابن سينا المتوفى ٤٢٨
وشارحيه نصير الدين الطوسي المتوفى ٦٧٢هـ، والرازي المتوفى
٦٠٦هـ فقد قالوا : إن الصور الجزئية لعالمنا منقوشة في العالم العقلي
نقشاً على وجه كلي وفي النفوس السماوية الفلكية منقوشة على وجه
جزئي... .

قالوا : وإن ما يمنع النفس (وهي ذات طبيعة سماوية) عن ادراك
ما في العالم السماوي هو أحتجابها بالبدن الانساني واشتغالها به
وانصرافها اليه وإلى ما حولها من العوالم المادية المحسوسة، وتعتل ذلك
جزئياً في النوم يتاح للنفس الاتصال بعالمها السماوي وبالتالي العلم
بالصور القادمة لعالمنا منه وينقش فيها ما كانت أكثر ألتفاتاً إليه مما
يتصل بها أو بهومها العامة أو الخاصة، أو غير ذلك^(٢) .

ويتفق معهم أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٢٠هـ فيقول : فإن
النوم إنما أثر في أمثال هذه المشاهدات لقهره سلطان الحواس عن النور
الباطن الألهي فإن الحواس شاغلة ، وجاذبة الى عالم الحس، وصارفة

(١) المجلسي : نفس المصدر والموضع .

(٢) ابن سينا : الاشارات مع شرحي الطوسي والرازي ج ٢ ص ١٢٨ .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٢٢٨
وجهه عن عالم الغيب و الملكوت^(١) .

اما بعض العلماء الطبيعيين وبعض الاطباء وعلماء النفس وبعض
البراسايكولوجيين ورواد الروحية الحديثة، فقد سجلوا وقائع من الرؤى
المنبئة باحداث مستقبلية، او بما هو غيب بطبيعته، من الماضي والحاضر
وكان بعضهم هو صاحب التجربة في ذلك شخصياً أو هو من شهودها
او من الذين تحققوا من صحتها كما وقعت .

وقد صدر مؤلف سنة ١٨٨٦م ذكر ١٤٩ واقعة من الرؤى بعضها
لاعلام وعلماء مشهورين فسرت جميعاً على اساس التلبئة (او التخاطر)
ومن ذلك ما رواه الدكتور هادفيلد والدكتور جلايسون.^(٢)

لكن بعض الرؤى لا مجال لتفسيرها بذلك قطعاً ؛ لأن التلبئة التي
اثبتتها الاختبارات حتى في اليقظة والتي قالوا: انها لغة البدائيين
الصامته التي لا تزال تمارس لدى سكان بالي واهل استراليا الاصيلين^(٣)
لا يمكن تحققها دون ان يوجد في نفس وقت الحدث شخصان أحدهما
المرسل وهو الحاضر الحدث، وثانيهما المستقبل، واشترطوا ايضاً ان
تكون بينهما علاقة تجعل الاول يتوجه إلى الثاني والثاني يتذكر الاول،
او ينتبه له لدى خطوره له لأن اشارات التخاطر تتجاوز المسافات

(١) الغزالي :مشكاة الأنوار (ضمن الجواهر الغوالي من رسائل الغزالي ص ١٣٨ .

(٢) د . علي كمال : أبواب العقل الموحدة ص ٦٢٩ . ٦٣١ .

(٣) أنايد هوفمان : تطوير المهارات النفسية ص : ٢٠٨ . ٢١١ .

٢٢٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
المكانية فقط لا الزمانية.^(١)

ولا شك في: ان هناك رؤى تقبل هذا التفسير لتوفر ما اشرنا اليه
من شروط التزامن بين المرسل والحدث من جهة وبين المستقبل من جهة
اخرى.

ولكن ماذا يكون التفسير حين تكون الرؤيا سابقة للحدث وحين
لا تكون هناك علاقة بين الحدث ومن يحضر فيه من اشخاص وبين
صاحب الرؤيا..

وقد افترض الباراسايكولوجي الامريكي هارولد شيرمان ليحل
هذا الاشكال : ان التلبئة في الرؤيا تحدث بين النائم وبين ذاتيات غير
متجسدة هي التي تدلي له بالمعلومات القادمة.

قال: (سيؤدي بنا ما نعلمه اليوم عن الادراك الحسي الزائد: إلى
الاعتقاد في: انه اثناء حالة النوم يحدث الكثير مما لا يعلم عنه الانسان
حتى الآن الا الشيء الضئيل... وليس مستبعداً ان يتصل الشخص
النائم على مستويات لا شعورية مع ذكاءات أرقى...)

ويقول: قد تكون حالة النوم هي حلقة الاتصال بين الذاتية
والاحداثي التالي من الوجود الذي سندخله عندما نغادر هذه الحياة،
وربما لا تكون رقدة الجسد في النوم كل ليلة بعيدة الشبه برقدته عند
الموت... إلا انه عند حلول هذا الحدث فلن تكون الذاتية موزعة بين

(١) د . ميلان ريزل : تدريب الادراك الحسي الفائق ص : ٢٦ .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٢٣٠
مظاهرها الشعورية واللاشعورية، وانما وهي مدركة عالمها الثاني^(١)
ويقول^(١) ومن الممكن ايضاً ان تستطيع الذاتية غير المتجسدة وهي عادة
حبيب، او صديق الاتصال، والتراسل بنفس الطريقة، ويبدو: ان اعمق
حالات النوم تفتح ابواب الاتصال الارقى للعقل مع الذكاءات الاعلى
التي لها رغبة في الادلاء بمعلومات لها^(١).

لكن الدكتور ميلان ريزل يرى ان التخاطر شكل من اشكال
الادراك الحسي الفائق: ASW الذي هو اوسع دائرة ومدى من التلبثة -
قال : (يشير الادراك الحسي الفائق) إلى بعض الملامح الغريبة اذ تدل
الحالات التي رصد فيها ظهور هذا الادراك انه مستقل عن الظرف
الفيزياوي المتغير، وبوسعه التأثير عبر مسافات بعيدة جداً أن ينفذ من
خلال حواجز، وجدران لا مرئية ، ويمتد - وهذا ما يثير الدهشة الكبرى
- ليتجاوز الزمن ايضاً... وعلى ما يبدو: ان اشارات الادراك الحسي
الفائق ASW قادرة على تجاوز الحواجز الزمنية والسفر زمنياً في غياهب
الماضي، وفي المستقبل ايضاً ؛ ولذا يساعدنا هذا الادراك بشكل مباشر
على معرفة احداث ستقع في المستقبل واحداث وقعت في الماضي او
هذا ما لا تستطيع القيام به أي من الحواس النشيطة المعروفة لدينا..

وتقوم هذه الاشارات على طاقات غير معروفة حتى الآن على
سبيل المثال طاقه البسي PSI التي تستطيع السفر في المكان والزمان ايضاً

(١) هارولد شيرمان : حواسك الزائدة في خدمتك ص : ١٦٢ .

٢٣١ في الدين والعلم والحياة والإنسان
وهذا ما لا تقدر عليه الطاقات الأخرى^(١) ومن الاسماء المعروفة من
الذين جربوا وشهدوا احلاماً تحمل استباقاً معرفياً او غيبياً او استعادة
معرفية العالم و الطبيب النفسي السويسري الدكتور كارل غوستاف يونغ
المتوفي سنة ١٩٦٣

قال يونغ (قد تعلن الاحلام احياناً عن احوال معينة قبل وقت بعيد
من حدوثها إن هذا ليس بالضرورة معجزة ، او ضرباً من الاستبصار
ثمة العديد من الازمات في حياتنا لها تاريخ واع طويل اننا نتقدم منها
خطوة فخطوة غير مدركين المخاطر التي تركمها لكن ما نفشل في رؤيته
عن وعي يدركه لا وعينا تكراراً وهو الذي ينقل المعلومات عبر
الاحلام)^(٢).

ولكي يتضح لك ما يقصده يونغ عليك ان تعرف اولاً ما يعنيه
باللاوعي فهو عنده الجانب الآخر من الذات الانسانية انه النفس الذي
لا نستحضر، ولا نتحسس عالمه، وفعاليته كما هو الامر في العقل او
الوعي.. وادراك اللاوعي عنده اوسع دائرة وهو ادق ملاحظة وحساباً
ومن ثم استنباطاً للنتائج، واذاً. فما يصل إلى وعينا منه في الاحلام من
استباق معرفي او استعادة معرفية ليس تكهنات ولا استبصاراً بل امكانية
ذاتية..

ويستشهد يونغ لما يراه من قدرة اللاوعي في الحساب والاستنتاج

(١) د : ميلان ريزل : تدريب الإدراك الحسي الفائق ص : ٢٥ .

(٢) يونغ : الانسان ورموزه ص : ٥٩ .

بجلمين :

احدهما كان من قبل رجل مولع برياضة تسلق الجبال الخطرة فرأى
حلماً: هوى فيه من اعلى الجبل... ولما لم يعر لرؤياه هذه بالأ...
تحققت بعد ستة اشهر فقد سقط من اعلى الجبل بالفعل وتحطم
ومات...

وثانيهما من قبل امرأة كانت تقوم بنزهات منفردة في الغابة...
ورأت احلاماً منذرة متوعدة تتصل بنزهاتها هذه... ولم تصغ لذلك
وواصلت عاداتها في النزهات المنفردة في الغابة... وبعد فترة قصيرة
هاجمها هناك أحد المنحرفين جنسياً ولولا صراخها الذي سمعه البعض
فخفوا لنجدتها لكانت قد قتلت ومع ذلك فقد خرجت بعدة عظام
مكسورة^(١).

إن الانباء والتحذير المسبق في هذين الرؤيين لم يأت - في نظر يونغ -
الا من الحسابات الشاملة والدقيقة لاحتمالات الخطر من قبل اللاوعي.
ولكن هذين الحلمين يتصلان بشخصي الحالمين وافكارهما
وممارساتهما ومن المعقول ان نرى ان التحذير المسبق كما بدا في محتوى
الحلمين كان من رصد اللاوعي وحسابه واستنتاجه.
ولكن ماذا حين يكون محتوى الحلم بعيداً ولا علاقة له بشخص
الحالم بمكانه وبجوادهته واشخاصه؟ ان شواهد ذلك كثيرة وثابتة

(١) يونغ : الإنسان ورموزه ص : ٥٨ . ٥٩ .

٢٣٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان

لقد ذكر العالم الطبيعي الفرنسي المعروف كامبل فلامريون : فصلاً بعنوان رؤية الحوادث المستقبلية او المستقبل الحاضر اورد فيه عدداً من الرؤى التي تحمل انباءً مستقبلية ثابتة بالتحقيق وقد اورد العالم النفسي الايطالي ارنستوبوزانو احدى هذه الوقائع وقال: ان صحتها لا يتطرق اليها الشك بوجه من الوجوه^(١) .

وقال فلامريون (ان الحوادث المستقبلية يمكن رؤيتها قبل وقوعها بضبط عظيم بدون نزاع ولسنا نعالج هذه المسألة هنا باعتبارات ميتافيزيقية ولكن بالاسلوب العلمي التجريبي والطريقة العلمية)^(٢) .

ان يونغ نفسه لم يغفل الاشارة إلى هذه الرؤى ولكنه لم يطرح تفسيراً جديداً عدا ما ذكره سابقاً من دور اللاوعي وان اشار إلى وجود عنصر تكهني او استبصاري .

قال:(في لحظة الحلم قد تكون هذه الواقعة ما تزال في المستقبل لكن مثلما تشتغل افكارنا الواعية نفسها غالباً بالمستقبل وممكناته هكذا يفعل اللاوعي واحلامه)

وقال: (منذ زمن طويل يوجد اعتقاد عام يقول: بأن الوظيفة الرئيسية للاحلام هي التكهّن بالمستقبل وفي القديم قدم العصور الوسطى لعبت الاحلام دورها في التكهّن الطبي) .

وقال: (يمكنني ان اؤكد بحلم حديث عنصر التكهّن او الاستبصار

(١) محمد فريد وجدي : على إطلال المذهب المادي ج ٣ ص ١٠٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٩٦ . ٩٧ .

الذي وجد في حلم قديم... وساق الحلم القديم: الذي رأى رجل فيه أن أباه يموت في نيران بيت يحترق بعدها بوقت قصير مات هو نفسه بفيلمغون (نار او حمى عالية)

ثم ذكر يونغ الحلم الحديث فقال: (لقد حدث وان كان أحد زملائي يعاني مرة من حمى غنغرينية مهلكة في الحقيقة هي فيلمغون)...
أحد مرضاه السابقين ، ولم يكن على معرفة بطبيعة مرض طبيبه حلم: بأن الطبيب مات في نار هائلة... وفي ذلك الوقت كان الطبيب قد دخل إحدى المستشفيات.. ولم يكن المرض الا في بدايته ولم يكن المريض يعلم سوى الحقيقة المجردة: بأن طبيبه مريض.. وفي مستشفى... وبعد ثلاثة اسابيع مات الطبيب^(١)

قال: (وكما يبين هذا المثال قد يكون للاحلام مظهر استباقي، او تكهني، وكل من يحاول تفسيرها يتوجب عليه ان يضع هذا في الاعتبار خصوصاً حينما لا يؤمن حلم جلي المعنى سياقاً كافياً لتفسيره... مثل هذا الحلم غالباً ما يأتي على نحو غير متوقع، ويتساءل المرء على ما يكون قد حثه .

ويقول: يبدو ان اللاوعي قد اعلم بالفعل، ووصل إلى النتيجة التي عبر عنها الحلم، وانه قادر على تفحص واستخلاص النتائج من الحقائق بقدر ما يفعل الوعي بل بإمكانه: ان يستخدم حقائق معينة ويستبق

(١) المصدر السابق ص : ٩٦ . ٩٧ .

٢٣٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
نتائجها^(١).

وقد وجه عدد من الاطباء والعلماء النفسيين انتقاداً بصورة عامه لاستعمال مصطلح اللاوعي، والعقل الباطن في تفسيرهم لبعض جوانب الحياة الانسانية بخاصة تلك التي تبدو بعيدة عن قبوله بحكم كونها تتجاوز الحدود العادية واقتروا مصطلحاً آخر اكثر دقة في التعبير عن هذه الجوانب... ومن هؤلاء المنتقدين الدكتور وليام مكدوكل وإرنستو بوزانو و د. ا. هـ. ليسنغال وغيرهم..

يقول الاخير: (منذ ١٩٢٩ م ولمدى العشرين عاماً الماضية كرس علماء النفس وقتهم متأثرين بفرويد في البحث عن العقل الباطن... وإذا صح ان نظرية العقل الباطن تميظ اللثام عن كثير من الاحاجي التي تفسر اعمال البشر فانها لا تكشفها كلها فهي تفسر الشاذ منها لا تلك الخارقة...)

قال: (وعلم النفس الحديث هذا وقف على منطقة جديدة في الانسان اطلق عليها وصف العقل فوق الواعي... وعلى نقيض العقل الباطن او غير الواعي الذي يمثل التيارات المغمورة لطبيعتنا فان العقل فوق الواعي يكشف ضروب السموات التي يمكن لطبيعتنا بلوغها والانسان يتمثل في شخصية ثلاثية لا ثنائية فحسب فكياننا الواعي وتحت الواعي يتوجهما وعي سام)^(٢).

(١) المصدر نفسه ص : ٩٧ .

(٢) د : رؤوف عبيد : مطول الإنسان روح لاجسد ج ٢ ص ١١٢ . ١١٣ .

وتقول الطبيبة والعالمة النفسية الدكتورة شفيقة قره الامريكية التركية الاصل: ١٩٨٦م (لقد ألفنا في علم النفس الحديث عن مصطلحات: مثل العقل اللاوعي او العقل الباطن او العقل الواعي، وانا ميالون لأن ننسب عدة اشياء لا نستطيع تفسيرها إلى العقل اللاوعي او إلى العقل الباطن... ورحت اسأل نفسي: هل توجد حالة فوق الوعي.. ورأت انه اذا كان ذلك فانها تجد امثلة يمكن ان تكون مصداقاً لذلك تحدثت عنهم في كتابها^(١).. لكنها اختارت في دراستها مصطلح الادراك فوق الحسي والذي يقرأ كتابات يونغ ويتبته لما اعطاه للاوعي من امكانيات يجد انه يكاد أن يقول انه الجانب الاسمى في الذات.. وان تسميته باللاوعي كان انسجاماً مع الاوساط العلمية التي لا تقبل مفهوم النفس كواقع موضوعي مقابل للواقع المادي وهو في ذلك كمصطلح الادراك الحسي الفائق او ما فوق الحسي وفي نص آخر نقلوه عن يونغ ذكره وهو يتحدث عن التزامنية ما يدعم هذا الفهم ويوضحه فيقول: انها (أي التزامنية) تجربة اللامعقول في تركيبية المعقول، واللاسببية في السببية^(٢) وجاء في شرحه: ان الانفجار الكوني الكبير يحقق الواقع الفيزيائي الموضوعي ويجعل الواقع النفسي الموضوعي كامناً لكن هذا الواقع رغم انه كامن (لا شعوري) فهو ليس غائباً على الاطلاق عن الانفجار الكوني الكبير وليس فقط ليس

(١) د : شفيقة قره كلة : خوارق الإبداع ص : ١٨٣ .

(٢) نخبة من الأساتذة : التزامنية (مترجم) ص : ٦٠ .

٢٣٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

غائباً بل يمكننا ان نكون واثقين انه بدون هذا الواقع النفسي الموضوعي لا يمكن للواقع الفيزياوي الموضوعي تحقيق نفسه اذاً فالواقع النفسي الموضوعي المعلوماتي يقيم في عالم آخر على الرغم من: انه ينشيء نفسه شيئاً فشيئاً في الواقع الفيزياوي الموضوعي ويتابع تحقيق ذاته في بنيات مادية تتعقد اكثر فاكثر... وسيستمر الواقع النفسي الموضوعي يشغل ما نطلق عليه العالم الآخر اللاسبي المكاني الزماني.

ان هذا العالم ما زال بالنسبة لنا عصى على الفهم وغير منظور ويتعذر على الوصف رغم انه متحقق في تركيبتنا الفيزياوية البيولوجية^(١).

وقد ذكروا: ان يونغ ذكر في كتابه علم النفس والدين قال: ان فكرة العقل الباطن فرض اختير من باب التسهيل، وان تجريبية السايكولوجي أظهر له غير مرة: ان ثمة اشياء تصدر عن نفس او روح اكثر اكتمالاً من الوعي وفي كتابه الانسان الحديث يبحث عن نفس بشر في الفصل العاشر منه بالروحانية وقرر: ان عالم المادة قد تبخر، واندثر في ضوء الفيزياء الحديثة..

وفي كتابه: الظواهر الغامضة وكتابه تفسير الطبيعة عبّر عن قناعته بوجود الجسم الاثري^(٢)

ومن العلماء الطبيعيين رأى العلامة ج.و.دن شخصياً تجارب

(١) المصدر السابق ص : ٧٤ .

(٢) د : رؤوف عبيد : مطول روح لا جسد ج ١ ص ٤٩٠ .

عديدة لرؤى مستقبلية تتجاوز المكان والزمان ومما يلفت النظر فيها : ان بعضها كان صريحاً لا رمزياً.

ومنها على سبيل المثال:

انه رأى خط قطار مرتفع عن الارض، وتعرف بسهولة في حلمه: بأن المكان يقع شمال جسر: فرت، اف، نورث في اسكتلندا واختفى المنظر وعاد عدة مرات في الحلم، ولكنه في آخر منظر... رأى عدة عربات من القطار ساقطة إلى اسفل المنحدر تحت خط الحديد وعندما افاق وكان ذلك في منتصف شهر ابريل سنة ١٩١٣م حدث اخته بما رأى وفي ١٤ ابريل من السنة التالية سقط القطار المعروف بالاسكتلندي الطائر من خطه المرتفع وفي مكان يقارب تماماً موقع سقوط العربات في حلم دن..

ورأى ج.و.دن ما يجاوز عشرين رؤيا مماثلة تحققت كما رآها..

وذكر: انه قام بتسجيل احلامه، وبأن عدد الاحلام التي تدل على الاستباق المعرفي كانت على وجه التقريب مساوية لعدد تلك المدللة على استعادة المعرفة او حوادث الماضي وخلص دن إلى الرأي: بأن الظاهرة تسند النظرية التي تقول: إنها نتيجة الخاصة الطبيعية لعلاقة الفرد العامة مع الزمن، ولأثبت: ان هذه العلاقة مع الزمن ليست بخاصة فردية خص بها القلة من الناس فقد تمكن دن من اجراء تجارب مماثلة على الغير كتلك التي اجراها على نفسه وحصل من تجاربه هذه بان تشوف المستقبل كتذكر الماضي كلاهما ممكنان في الاحوال الطبيعية وبمقادير متساوية تقريباً، وبأن هذه الامكانية تتوفر في اليقظة كما تتوفر

في الحلم اذا ما استطاع الواحد منا أن يركز انتباهه..

وفي تفسير هذه الظواهر افترض: ان الزمن ليس بعداً واحداً ويسير بخط مستقيم يصل بين الماضي والحاضر وإلى المستقبل وانما هو متعدد الابعاد وبان الواحد في نقطة ما من شبكة الابعاد الزمنية هذه يستطيع في آن واحد أن يطل على الماضي والحاضر والمستقبل^(١)

ونختم الحديث في الرؤى التي تتصل باستباق المعرفة او استعادة المعرفة او بالانبيات الغيبية على اختلاف موضوعاتها بما تراه الروحية الحديثة بكل ما تضم من فلاسفة وعلماء كبار، في مختلف الاختصاصات. نقلاً عن الدكتور رؤوف عبيد.. قالوا: (النوم عبارة عن مجرد ارتفاع في اهتزاز الجسد الاثري كما يستريح إلى حين من الاهتزاز المنخفض المغاير لطبيعته، والذي يفرضه عليه التصاقه بالجسد المادي في ساعات اليقظة بما في ذلك الارتباط الوثيق المحتوم بين العقل والمخ في هذه الساعات .

اما اثناء النوم فانه بسبب اقتراب الجسد الاثري - إلى حد ما - من اهتزاز عالم الاثير فتترتب نتائج منها:

ان حكم حواس النائم على الزمان، والمكان يصبح مغايراً لحكمها اثناء اليقظة، ومنها احتمال الاتصال ببعض ارواح المنتقلين، ومنها احتمال حصول احلام صادقة عن احداث مستقبلية بسبب امكان

(١) د : علي كمال : ابواب العقل الموصدة (باب النوم باب الاحلام) ص : ٦٢٧ .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٢٤٠

الادراك الرباعي الابعاد - بعيداً عن هواجس العقل الباطن، والرغبات المكبوتة - وذلك لأن معنى المستقبل على مستوى معين من مستويات الوجود يختلف حتماً عن معناه على مستوى آخر...؛ ولذا وصل اوليفر لودج كما وصل من بعده اينشتين: إلى ان احداث الحياة تتحقق في مستوى ما من الكون قبل ان تتحقق مادياً على المستوى الارضي^(١) بل لقد كان حاسماً فقرر: ان هذه الاحداث موجودة في مكان ما من الكون وإنما نمر بها في الوقت المناسب ولذا شبه انشتين هذه الاحداث بمحطات القطار المعدة لاستقباله مقدماً قبل ان يغادر محطة القيام كل ذلك بغير ان ينفي حرية الارادة عند الانسان في ضوء نظرية النسبية ورابطة السببية^(٢)

رمزيتها:

قد تأتي الرؤيا صريحة، واضحة وبصورة تطابق الواقع تماماً، او تقرب منه وهذا قليل والاكثر أن تأتي الرؤيا رمزية تحتاج إلى تحليل رموزها ومعرفة دلالتها وهو ما يسمى: التعبير

وما مر علينا من امثلة في القرآن الكريم في سورة يوسف عليه السلام او مما ورد في الحديث الشريف او مما ذكره علماء النفس يكفي لنستحضر

(١) ورد في الأحاديث الشريفة ما يشير إلى ذلك فلتنزل الأمر الإلهي مراتب منها عالم التقدير وذكروا ايضاً من العوالم السابقة عالم الذر وعالم الظلال وعالم الميثاق مما يشير إلى وجود سابق وحين تقرأ رأى الفلاسفة المسلمين تجد ذلك ايضاً .

(٢) د : رؤوف عبيد : مطول الإنسان روح لا جسد م ٣ ص : ١٠٧٨ .

معنى الرمز، وبعض صورته .

ولكن ما هو بعد ذلك كله سر الرمزية في الرؤى من حيث الاصل؟.

ما هو السبب الذي يجعل اكثر الرؤى رمزية هناك اراء للفلاسفة ولعلماء النفس والبيولوجيين تطرح تفسيرات مختلفة لذلك نذكر أهمها.

رأي الفلاسفة :

يقول بعض الفلاسفة : ان المعاني التي تراها الروح أو النفس الناطقة في عالمها السماوي تصير إلى القوة الخيالية أو المتخيلة في النفس فتحاكيها أو تعبر عنها بصورة جزئية مناسبة لها ثم تصير تلك الصور في الحس المشترك (الذي هو لوح ينطبع عليه ما يأتي من صور العالم الموضوعي : السماوي عبر المخيلة، أو الأرضي عبر الحواس) فاذا كانت هذه المعاني التي شهدتها النفس وركبتها المخيلة صوراً شديدة المناسبة لتلك المعاني لا تتفاوت الا من حيث الكلية والجزئية أو الاجمال والتفصيل تصبح الرؤية غنية عن التعبير، وان لم تكن شديدة المناسبة الا أن بينهما مناسبة بوجه ما... فان الرؤيا عندها تصبح محتاجة إلى التعبير (والتعبير يعني : ارجاع الصور، والرموز التي أعطتها المخيلة في الحس المشترك إلى المعنى الذي تلقته من النفس الناطقة أصلاً) .

قالوا : (وان لم تكن بين المعنى الذي أدركته النفس وبين الصورة التي ركبها المخيلة مناسبة لكثرة الأنتقال ، والتشابك بين الصور فهذه

ومن علماء النفس ذهب سيمغند فرويد المتوفى سنة ١٩٣٩م إلى أن الرموز في الحلم لم تكن الا محاولة من قبل اللاشعور للتستر على الدافع الجنسي الطفولي المكبوت ليتمكنه تجاوز رقابة الوعي التي تمنع حتى في النوم التعبير عنه في الاحلام بصورة صريحة .

وقد أشرنا إلى عدم اتفاق العلماء معه في ما أعطاه للدافع الجنسي من أهمية تتجاوز الدوافع الانسانية الأصيلة الأخرى، وفي ما أدعاه من أن الرموز جاءت لاختفاء هذا الدافع من أن يظهر بوضوح في الاحلام .

ورأى يونغ : أن رموز الاحلام تعبر عن اللاوعي الجماعي وما يحمله من موروث حضاري وقد سبق أن تحدثنا عما يعنيه يونغ من اللاوعي ، وما أعطاه له من مدى واسع في الملاحظة والحفظ والاستنباط فلا حاجة لتكراره ويوضح سلامة موسى ما رأته مدرسة يونغ وإن لم يشر لذلك : في ما يعنيه من امتداد الرمز في الاحلام بجذوره أصلاً إلى التاريخ البدائي للانسان مازجاً ذلك بأراء مدارس أخرى كنظرية التطور الدارونية ذلك لانه لم يكتب ذلك بقصد تقديم رأي يونغ وإنما ما أصبح يتبناه منه فلا ضير من هذه الناحية أن يوصله بأراء أخرى...

قال (نحن في معظم احلامنا خرس لانتكلم ، وإنما نرى فقط وهذا يتفق ونظرية العقل الكامن من حيث أنه خزانة الثقافة القديمة فقد كان

(١) ابن سينا : الأشارات مع شرحي الرازي والطوسي ج٢ ص١٢٨ .

٢٤٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
الانسان في بدء حياته الانسانية عقب خروجه من طوره الحيواني أخرس
لايتكلم ، وكان يخترع الرموز للاشياء).

قال : (فالافكار والاراء تتجسم لنا في الحلم أشخاصاً أو أشياء
فكلنا نحلم بنوع من الهيروغليفية السيكلوجية، ولكننا نعرف : ان
الهيروغليفية نشأت صوراً كل صورة تدل على أصلها ثم تطورت
فخرجت عن هذا الأصل حتى صارت رمزاً له ، أو لجملة أفكار أخرى
قريبة منه ولذلك فاننا إذا أردنا أن نعرف معنى الرموز التي في الاحلام
وجب علينا أن ندرس اللغات القديمة ، وأيضاً يجب أن ندرس رموز
الشعر والفكاهة وذلك لأن هذه الرموز تأتي في الشعر والفكاهة خواطر
غير مقصودة فيكون العقل الكامن العامل الاكبر فيها وهو نفسه الذي
يحدث الاحلام^(١).

ويرى الدكتور كلفن هول: (ان ظهور الرموز في الاحلام يأتي بعين
الاسباب التي توجد فيها التشابيه والمجازات والاستعارات والرموز في
الشعر..

وذكر ان الفرد يميل دائماً وبصورة تلقائية إلى التعبير عن افكاره
بأقصى قدر من الوضوح الموضوعي، وهو يرغب في نقل المعنى بدقة،
واقتماد مع ميل إلى تزويق افكاره بما يجعلها أقرب إلى الجمال والذوق
ولهذا السبب اتخذ اللاوعي في الانسان الرموز لغة للحلم لانها تفي

(١) سلامة موسى : اسرار النفس ص ٥٧-٥٨ .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٢٤٤
بجميع هذه المعاني^(١).

وترى الدكتورة هورني: (ان معنى الحلم لا يمكن التعبير عنه بصورة اكثر اختصاراً ، ودقة من الرمز الذي يظهر عليه.
ان كثيراً من التجارب العاطفية والافكار لا يمكن التعبير عنها بصورة كافية وملائمة عن طريق اللغة الكلامية، ويظل النمط الرمزي الوسيلة الوحيدة الممكنة لمثل هذا التعبير الذي يلجأ اليه الانسان احياناً)^{(٢) (٣)}

(١) د : علي كمال : ابواب العقل الموصدة المصدر السابق ص : ٥٨٧ .

(٢) نفس المصدر ص : ٢٨٨ .

(٣) من يتأمل بعض الرؤى الرمزية الصادقة إيجابياً أو سلبياً يرى حقيقة ما اشار اليه الدكتور كلفن والدكتورة هورني في ان الرمز لغة مثلى في الاحلام فتأمل مثلاً رؤيا يوسف عليه السلام (يا ابت اني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس، والقمر رأيتهم لي ساجدين) (الآية ٤ من يوسف) وما تشير اليه من قدر الساجدين وقدر المسجود له)

وتأمل ما تشبهه صورة حلم فرعون في تجسيمها لسني الرخاء وسني الجذب واكل هذه لتلك من توجس وخوف ونذير شؤم (وكيف انها مع ذلك دقيقة كل الدقة) (وقال الملك أني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر، وأخر يابسات) (الآية ١٢ يوسف) ومما ورد في الحديث كما في الاصابة لابن حجر ج ٣ ص ٢٢٧ وفي ج ٤ من ابن سعد ص ٤٨٧ ان ام الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاءت اليه تقول: انها رأت عضواً من اعضائه في حجرها فقال لها صلى الله عليه وآله وسلم: تلد فاطمة غلاماً فتكفليه فولدت فاطمة الحسن وفي رواية الحسين عليه السلام فأرضعتها بلبن ابنها قثم، ولا اظن أن لغة أخرى يمكن أن تعبر عن الوشيحة والصلة بين الرسول والحسين اعلى مما اختاره الحلم

٢٤٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان

ويرى آخرون: ان الحكمة من استعمال الرمزية في الرؤيا: ابعاد صاحبها - حين يكون مضمونها سيئاً - عن الفزع والقلق اللذين ينجمان عن مواجهة الشيء او الفكر الحقيقية على حالتها الاصلية، وايضاً غلق الباب على الادعاء واهل الاستعراض الذين يحتجون بالرؤى حين يبدو محتواها - في نظرهم - واضحاً...

ويدخل ذلك في تدبير الله فيها كما اشار اليه حديث الامام الصادق عليه السلام إلى المفضل بن عمرو.

اما البيولوجيون: فيرون: ان عملية الرموز والصور كطريقة في التعبير عن محتوى الاحلام ترتبط بطبيعة الاختصاص البيولوجي الوظيفي لنصفي الدماغ اللذين ثبت ان لكل منهما وظيفة خاصة...

فالنصف الايسر هو المعني بالصور الواقعية والمنطقية التي يعبر عنها بالكلام: أما النصف الايمن فهو المسؤول عن العمليات العقلية التي يعبر عنها بالصور والرموز... وفي حالة اليقظة يتوفر بين نصفي الدماغ تكامل وتنسيق... اما اثناء النوم فينعدم ذلك او يضعف كثيراً فيتحرر النصف الايمن ويكون اكثر سيطرة وبذلك يتاح له أن يعبر عن محتوى الاحلام بطريقته الخاصة^(١).

من الرمز او كرؤيا الرسول صلوات الله عليه وآله قبل نكبة أحد انه راى في سيفه ثلماً... فاصاب المسلمين بمخالفتهم له ما اصابهم دون ان يوقف ذلك مسيرة الاسلام انه ثلم لا اكثر فما ادق الرمز وما اروغ صور الاختصار فيه...

(١) د: علي كمال: المصدر السابق ص: ٣٣٨. ٣٣٩ وص: ٥٩١. ٥٩٢.

وهو رأى يتفق من حيث الجوهر والنتيجة مع رأي الفلاسفة من ان ما تراه النفس من امور سماوية او ارضية يصير إلى المخيلة الذي تحاكيه صورياً بما يناسبه ويقرب منه احياناً، وبما يبعد عنه احياناً أخرى كما مر علينا وقد عرفنا ان اللاوعي او اللاشعور عند علماء النفس ليس الا تعبيراً عن الجانب الآخر من الذات الذي يعرفون آثاره دون تحديد له لدى البعض وبالتحديد كما يراه البعض الآخر يلتقى وما تراه الروحية.

نسبة الصدق في الرؤيا

نسبة الكذب في الاحلام - كما تثبت التجربة وكما اشارت الاحاديث الشريفة - كبيرة بل هي الاكبر دائماً بل ذلك - في غير الرسل والانبيا و اوصيائهم عليهم السلام - هو الاصل والصدق استثناء... ودلالاتها على الحالة النفسية - حتى لو صدقت - كما مر من رأي علماء النفس غير مقصودة بهذا البحث فذلك جانب آخر .

وقد ساق العلماء ومن هؤلاء الشيخ المفيد والسيد المرتضى رحمهما الله لبيان هذه الناحية خاصة - أعني النسبة الكبيرة للكذب فيها - الاسباب المختلفة للاحلام التي يؤدي اكثرها إلى ما هو اضغاث، وباطل منها^(١) ويتضح لنا ذلك ايضاً حين نرى ما اعطت الاحاديث الشريفة لرؤيا المؤمن او الرؤيا الصالحة فضلاً عن غيرهما من نسبة قياساً للنبوة:

(١) مسائل المرتضى ص : ٢٩١ كنز الفوائد للكراچكي عن المفيد نقلاً عن المجلسي البحار ج ٦١ ص ٢٠٩ .

٢٤٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

فقد روى بسندين احدهما عن عبادة بن الصامت والآخر عن ابي هريرة عن رسول الله ﷺ انه قال: (رؤيا المؤمن جزء من ستة واربعين جزء من النبوة)^(١) .

وفي نص آخر عن ابي هريرة عنه ﷺ قال: (رؤيا الرجل الصالح جزء من ستة واربعين جزء من النبوة)^(٢) .

وفي حديث عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال: (الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزء من النبوة)^(٣) وروي هذا الحديث نفسه في مصدر آخر عن ابي سعيد عن رسول الله ﷺ ايضاً^(٤) .

واذا كانت نسبة صدق الانباء ودقته الذي هو خصوصية النبوة في الرؤيا لدى القياس بها - وهو ما نفهمه من المقصود بهذه الاحاديث - هي هذه النسبة القليلة أصبح الاستناد اليها غير وارد بحال فهي أقل حتى من أن تعطي ظناً... و(ان الظن لا يغني عن الحق شيئاً)^(٥) كما يقول القرآن الكريم هذا في الناس ما بعد الرسل، واوصيائهم عليهم السلام... اما لديهم فقد رأى بعض العلماء : انها حجة مستدلين بقوله تعالى

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص : ١٧٧٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) المجلسي : المصدر السابق ص : ننن

(٥) سورة يونس الآية ٣٦ .

بلسان ابراهيم عليه السلام (يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك^(١) . لانه ما كان ليقول ذلك، ويشرع في تنفيذه لو لم تكن الرؤيا حجة بالنسبة له.

ولما روى عن الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام من: (ان منامهم ويقظتهم واحدة)^(٢)

قال الشيخ المفيد المتوفى ٤١٣ هـ: (لن ينجو من باطل المنامات واحلامها الا الانبياء والائمة عليهم السلام، ومن رسخ في العلم من الصالحين).

وقال: (اما منامات الانبياء فلا تكون الا صادقة وهي وحي في الحقيقة، ومنامات الائمة عليهم السلام جارية مجرى الوحي . وان لم تسم وحياً^(٣) ولا تكون قط الا حقاً وصدقاً^(٤) .

ولكن السيد المرتضى ت: ٤٣٦ هـ يذهب إلى ان الرؤيا بما هي لا

(١) سورة الصافات : الآية : ١٠٢ .

(٢) المجلسي : البحار م : ٦١ ص : ٢٣٩ .

(٣) هذا احتياط من الشيخ عليه السلام لدفع شبهة او تهمة خصوم الشيعة في انهم يعطون لائماتهم درجة الرسل... والحقيقة انه لا داعي لذلك لان وحي الرسالة المستقلة المؤسسة عدا وحي الوارثين من الأوصياء عليهم السلام ثم ان للوحي درجات وقد اوحى الله لام موسى وكلمت الملائكة مريم واعطى الخضر علماً لدنياً وخوطب ذو القرنين كما جاء في القآن الكريم وهم ليسوا انبياء وبذلك اجاب الائمة من اهل البيت عليهم السلام من أشكال عليهم ، واعطوا لوحي النبوة مكانة اخرى متقدمة .

(٤) الشيخ المفيد نقلاً عن المجلسي المصدر السابق ص : ٢١٠ وهو كنز الفوائد للكراچكي .

٢٤٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان

تصلح للحجة حتى لو كانت من قبل الانبياء واوصيائهم عليهم السلام الا اذا
ثبت صحة مضمونها ووجوب العمل بها بدليل خارجي...

قال: (الاخبار الواردة بهذا الجنس غير مقطوع على صحتها، ولا
هي مما توجب العلم، وقد يمكن أن يكون الله تعالى اعلم النبي بوحى
يسمعه من الملك على النحو الموجب للعلم: اني ساريك في منامك في
وقت كذا ما يجب فتعمل به، وتقطع على صحته، من هذا الوجه لا
بمجرد رؤيته له في المنام.

قال: (وعلى هذا الوجه يحمل منام ابراهيم ولو لا ما اشرنا اليه..
كيف كان يقطع ابراهيم بانه يتعبد بذبح ابنه)^(١) وعدم حجيتها لديهم لا
بما هي رؤيا فقط ومن حيث احتمال عدم صحة المضمون بل من
احتمال عدم صحة التعبير كما يجب في نظر ابن عربي كذلك.

فقد رأى والعهد عليه في ذلك: أن ابراهيم عليه السلام لم يكن مأموراً في
رؤياه بذبح ابنه - ابتلاء لهما وكشفاً لما يتمتعان به من طاعة وتسليم لله
كما يرى المفسرون - وانما كان مأموراً بذبح كبش... فرمزت الرؤيا له
بصورة ولده ربما بعلاقة التربية او الرأفة قال ابن عربي:

(اعلم أيدينا الله واياك: ان ابراهيم الخليل عليه السلام قال لابنه: (اني
ارى في المنام اني اذبحك)^(٢)

والمنام حضرة الخيال فلم يعبرها، وكان كبش ظهر في صورة ابن

(١) مسائل المرتضى ص : ٩٣ - ٩٤ .

(٢) سورة الصافات : آية : ١٠٢ .

ابراهيم في المنام فصدق ابراهيم الرؤيا... ففداه ربه من وهم ابراهيم
بالذبح العظيم الذي هو تعبير رؤياه عند الله تعالى وهو لا يشعر)

وقال تعالى حين ناداه: أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا وما قال له:
صدقت في الرؤيا انه ابنك؛ لانه ما عبرها بل أخذ بظاهر ما رأى والرؤيا
تطلب التعبير).

وقال في تفسير قوله تعالى(ان هذا هو البلاء المبين)^(١). (يعني
الاختبار في العلم، هل يعلم ما يقتضي موطن الرؤيا من التعبير ام لا ؟.
وقال (فغفل فما وفي الموطن حقه وصدق الرؤيا لهذا السبب)^(٢)

ورأى البعض ان هذه جرأة عظيمة، وخذش لعصمة الانبياء علمياً
وعملياً. ورأى آخرون انها لا تنافي العصمة لعدم انتهائها - بما حصل
من التسديد الالهي - إلى ما يخالف الحق، أي ان الله عرفه بوجه الحق
بعد ذلك واذا كانت عصمة الرسل - لدى المسلمين - محسومة وليست
موضع خلاف فالحديث عن حجية رؤاهم وجواز وعدم جواز عملهم
بها لا ترتب عليه بالنسبة لنا فائدة عملية وانما علمية تدعم الرأي
السلي في قيمة الرؤيا لا اكثر...

والامر الذي فرض هذا البحث أعتداد بعض الناس - من غير
الرسل صلوات الله عليهم والائمة من أهل البيت عليهم السلام - بالرؤى ، واستنادهم اليها
بخاصة حين يكون المرئي فيها الرسول صلوات الله عليهم أو أوصيائه الطاهرين من

(١) سورة الصافات : الآية : ١٠٦ .

(٢) ابن عربي : الفصوص : ج ١ : ص ٨٧ .

٢٥١ في الدين والعلم والحياة والإنسان
أهل البيت [?] ثم يصحب تلك الرؤى من قبلهم حديث في موضوع أو
حكم يتصل بالعقيدة أو الشريعة نفيًا أو إثباتًا ، والمحذور من ذلك هو
المخالف لما هو الحق خاصة ... وشواهد وقوعه مشهورة كثيرة .

قال الشيخ المفيد المتوفي ٤١٣ هـ في ما ينقل الكراجكي في كنز
الفوائد عن بعض كتبه : (ان الكلام في باب المنامات عزيز ، وتهاون
أهل النظر به شديد ، والبلية بذلك عظيمة)^(١).

هل سنة المعصوم في الرؤيا حجة؟

قامت الأدلة القاطعة على حجية سنة الرسول ﷺ لدى المسلمين
عامة، وسنة أوصيائه الاثنى عشر عليهم السلام لدى الشيعة الامامية خاصة...
ولكن هذه الأدلة خاصة بسنتهم في اليقظة، ولا تشمل قطعاً ما يسمع
ويرى منها في النوم... ولكن البعض واكثرهم من الغنوصيين والغلاة
اعطى لما يرى ويسمع منها في النوم (في الاحلام) نفس القيمة المعطاة لما
هو منها في اليقظة دون فرق.

مستدلين بما روى عنه عليه السلام من ان رؤيته دائماً حقه ومن ذلك:

ما روى عن ابي هريرة عنه [?] انه قال: من رآني في منامه فقد رآني
فان الشيطان لا يتمثل بي^(٢) وما روى عن جابر بن عبد الله [?] عنه [?]: انه
قال: 'من رآني في النوم فقد رآني انه لا ينبغي للشيطان أن يتمثل في

(١) نقلاً عن المجلسي ، المصدر السابق ج ٦١ ص ٢٠٩ .

(٢) صحيح مسلم ج ٤ ص : ١٧٧٥ .

وفي نص آخر: ان يتشبه بي (٢)

وورد عن ابي هريرة ايضاً عنه عليه السلام: انه قال: من رآني فقد رأى الحق (٣) أي رأي رؤيا حقه (٤).

وروي نظير ذلك في مصادر الامامية عن الائمة من أهل البيت عليهم السلام وعطفوا على الرسول عليه السلام أو صيائه عليهم السلام فهم ايضاً ممن لا يتمثل الشيطان بصورهم (٥) وكمثل للمستندين إلى هذه الاحاديث في اثبات حجية السنة المسموعة في النوم أمراً ونهياً ابن عربي الطائي المتوفى ٦٣٨ قال (ولهذا من رآه بهذه الصورة يأخذ عنه في الحياة الدنيا من الاحكام على حسب ما يكون منه اللفظ الدال عليه من نص أو ظاهر ،

(١) نفس المصدر ص : ١٧٧٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر والموضع .

(٤) فسرهُ بعض الغنوصيين تفسيراً آخر على مستوى ما روي إنجيل بوحنا عن المسيح في قوله : من رآني فقد رأى الأب (الفصل الرابع عشر ص ١٨٥) والعقل يستقل بابطاله لأحدثه وصمديته سبحانه وتعالى ولنفيه الحد والتحول والتمثل والحاجة عن الله سبحانه، والقرآن يرشد إلى ذلك في قوله : ليس كمثل شيء وباطاله الوهية المسيح لانه كان يأكل الطعام ولا يمتنع من الموت .

(٥) المجلسي : البحار ج ٦١ ص ٢٣٤ .

٢٥٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
أو مجمل (١) .

ومثل ابن عربي آخرون بخاصة في وسط الغنوصيين والغلاة (٢) ...
والأحاديث السابقة في رؤيا الرسول ﷺ لدى المسلمين من غير
الشيعة من الصحاح فقد أخرجها كتب الصحاح أما لدى الشيعة
الامامية فهي كما يقول السيد المرتضى خبر واحد ضعيف، ومن أضعف
أخبار الأحاد (٣) .

قالوا : وحتى مع التسليم بصحته فهو لا يصلح للحجية في هذا
الموضوع .

اولاً- لأن مقتضاه أن تصبح السنة المتلقاة في الرؤيا - والتي
لاتشملها أدلة حجية السنة المتلقاة في اليقظة- دليلاً، واثبات دليليتها لا

(١) ابن عربي : فصوص الحكم :ص ٨٧ .

(العجب لابن عربي وهو الذي يعرف ات الخيال يخلق ما لا يمكن ان يرى في اليقظة
فضلاً عن المنام كما حصل له وذكرناه في هامش الصفحة الاولى من رؤية محبوبه يعني الله
تعالى عما يصفون)... ولمعرفته أيضاً ان الرؤيا تكون رمزية وقد رأى ان ابراهيم الخليل
نفسه كما مر عليك غفل وما وفي الحالة حقها لان المرئي في الذبح لم يكن ابنه وانما
كش ظهر بصورته ...

(٢) راجع :عدنان البكاء : الجزء الثاني من الامام المهدي وادعاء البابيه والمهدوية
الفصل الخاص بالغلاة زمن الائمة الاثني عشر .

وراجع : الطبقات الكبرى للشعراني .

(٣) - مسائل المرتضى : ص ٢٩٤ .

يتم الا بما هو قطعي والاحاديث الواردة في ذلك أخبار آحاد لا تؤدي إلى القطع بمؤداها...

ثانياً- ومع غض النظر عن ذلك فإن من المحتمل أن يكون المراد بالحديث - كما يرى السيد المرتضى - من رأني في اليقظة فقد رأني على الحقبقة، لأن الشيطان لا يتمثل بي لليقظان طرداً للوهم الذي يأتي مما قيل : إن الشيطان ربما تمثل بصورة البشر^(١).

ثالثاً - ان رؤية صورة النبي ﷺ او الائمة الطاهرين عليهم السلام من اهل البيت عليهم السلام قد لا تكون مقصودة بنفسها او تمثلهم حقاً بل - كما هو الغالب في الاحلام - رمزٌ يطلب التعبير لانه يدل على شيء آخر ولذلك قالوا: ان رؤيا الرسول في مكان سعة لاهله إن كانوا في ضيق، ونصرة ان كانوا في ظلم^(٢)

رابعاً - مر علينا في شرح رأى الفريد ادلر في تفسير الاحلام : انها تعويض عن عقدة النقص، وبعض بل اكثر من يرى الرسول ﷺ والائمة من اهل البيت عليهم السلام وينقل عنهم معارف واحكاماً هم الغنوصيون والغلاة، ولما كان هؤلاء او بعضهم غير ملتزمين يرتكبون المحرم، ويتركون الفرض وهم يعرفون انهم مخالفون لكتاب الله وسنة الرسول ﷺ واهل البيت عليهم السلام وسيرة اهل الاسلام مما يشعرهم بالنقص والضعفة لذلك جاءت الاحلام لتعوض هذا النقص بتخيل

(١) نفس المصدر والموضع .

(٢) المجلسي البحار م ٦١ ص : ٢١١ .

٢٥٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
رؤية الرسول ﷺ والائمة من اهل البيت عليهم السلام والحديث معهم بما يتفق
ومسالكهم الضالة^(١).

وقد ورد في الاحاديث : ان ما يفكر به الانسان يراه في الاحلام.
خامساً - مع غض النظر عما ذكرناه ايضاً فان المتيقن من الصورة
التي نفى الحديث تمثل الشيطان بها هي صورته التي كانت له في الدنيا:
الصورة التي عاش بها ورآه بها اهله، وصحابته والناس في زمنه وذلك
هو المتبادر من قوله: من رأي. ولا يمكن لأحد أن يدعي رؤياه بهذه
الصورة بعد عصر الصحابة إلا اصحاب العلم اللدني باعتباره دليلاً
خارجياً - لو حصل - عليها... اما من سوى هؤلاء فليس لهم أن يدعو
ذلك.

قال الشيخ المفيد تعليقاً على الحديث:(من رأي الخ) إذا كان المراد
المنام يحمل على التخصيص دون ان يكون في كل حال^(٢)

وكان ابن سيرين إذا قص عليه رجل: انه رأى النبي ﷺ قال له:
صف لي الذي رأيته فان وصف له صفة لا يعرفها قال لم تره^(٣).

على ان تطابق الصفات الشكلية العامة لا تعني التطابق في الملامح
الخاصة فكثيراً ما تتطابق الاولى مع اختلاف بين في الثانية وهذه هي التي
تعطى الهوية الشخصية لذلك لا نرى ان الاوصاف العامة كافية وان

(١) راجع : رأى ادلر في هذا البحث .

(٢) المجلسي : البحار م ٦١ ص : ٢١١ .

(٣) نفس المصدر والجزء ص : ٢٣٥ .

وإذا لم يكن بإمكان صاحب الرؤيا أن يعرف : ان من رآه على انه النبي ﷺ او الامام عليهما السلام كان على صورته كما كانت في حياته في الدنيا ام لا ؟ فإن من الممكن ان يتمثل الشيطان له بصورة اخرى ثم يزعم له: (انه النبي ﷺ او الامام عليهما السلام فذلك مقدر له غير ممنوع عليه.

قال الشيخ المفيد (وقد كان شيخي يقول: إذا جاز من بشر أن يدعي في اليقظة: انه اله كفرعون ومن جرى مجراه مع قلة حيلة البشر وزوال اللبس في اليقظة فما المانع من أن يدعي ابليس عند النائم يوسوس له: انه النبي ﷺ)^(١)

واستدلوا على ذلك بأن رؤياه في النوم ادعاها المحق والمبطل، والملتزم، والمتحلل^(٢) واكثر من ادعاها الغنوصيون والغلاة، وادعياء المهذوية والبايية^(٣).

(١) المصدر نفسه والجزء ص : ٢١٢ .

(٢) مسائل المرتضى ص : ٢٩٤ .

(٣) في حلم يقظة رأى محمد احمد المهدي السوداني المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ ان النبي ﷺ يأتيه ويعلمه : انه المهدي المنتظر ثم يخلفه بالجلوس على كرسيه - كما قال - مراراً وكان مع الرسول ﷺ كما قال في منشوره العام ورسالته الموجهة إلى الشيخ دفع الله بقوي الخلفاء الاربعة ، والاقطاب ، والخضر وجمع من الاولياء الميتين وبعض من الفقراء الذين لا يعاب بهم قال : وقلدني سيفه وايدني بالملائكة العشرة الكرام وان يصحبي عزرائيل دائماً في ساحة الحرب امام جيش وفي غيره يكون ورائياً وان يصحبي الخضر دائماً

٢٥٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

وقد حاول بعضهم أن يجعل المقصود بقوله من رأني... يعني رؤية حقيقته او روحه الشريفة متجسدة بأية صورة مستدلين بحديث عن ابي هريرة: عنه صلى الله عليه وآله: انه قال: من رأني في المنام فقد رأني فاني أرى في كل صورة^(١)

ولكن الحديث وهو لا سند له موضوع قطعاً، لأن هذه المفاهيم الغنوصية لم تكن معروفة في عصر النبي صلى الله عليه وآله وان الحقيقة المحمدية التي تظهر في كل صورة والتي لا يكون شخص محمد صلى الله عليه وآله التاريخي بالنسبة اليها إلا كنسبة أي شخص آخر... تنظير متأخر^(٢)

ومع غض النظر عن ذلك يصبح قوله فان الشيطان لا يتمثل بي لا معنى له لان الشيطان يصبح عندئذ بعض ما يمكن ان يظهر به من الصور، ويصبح الاحتراز من الرؤيا الشيطانية الباطلة - لانعدام الضابط - مستحيلًا... وهي هوة سحيقة فتحها الغنوصيون لتبرير مسالكهم الضالة .

وفي ما تقدم من الاشكالات ما يكفي للرد على هذه الشبهة انشاء الله ولذلك فلا يوجد بين المذاهب الاسلامية الفقهية المعروفة من يجعل

ويكون امامنا سيد الوجود وستين الف ولي من الاموات) راجع منشورات المهديّة للدكتور محمد ابراهيم .. وبناءً على هذا الحلم او الهلوسة كما يسميها اطباء الامراض النفسية والعقلية أعلن محمد احمد : انه المهدي المنتظر وكفر من لم يؤمن به من المسلمين الخ وقتلهم بعد الانذار وفرق بين زوجين آمن احدهما به باعتبار الثاني كافراً.

(١) المجلسي : البحار م : ٦١ ص : ٢٣٥ .

(٢) راجع عن هذا التنظير فصوص الحكم التعليقات ج ٢ ص ٣١٩ .

الحلم دليلاً شرعياً يستند اليه او شبه دليل...

رأى الشيخ المفيد

قال الشيخ المفيد المتوفى ٤١٣هـ في بحثه السابق الذي نقله الكراجكي في كنز الفوائد وأشرنا إلى بعض آرائه فيه.

(واما رؤية الانسان للنبي ﷺ او لأحد الائمة عليهم السلام في المنام فان ذلك عندي على ثلاثة اقسام: قسم اقطع على صحته وقسم اقطع على بطلانه وقسم اجوز فيه الصحة والبطلان فلا اقطع فيه على حال..

فاما الذي اقطع على صحته فهو كل منام رؤي فيه النبي او أحد الائمة وهو فاعل لطاعة، او امر بها وناه عن معصية او مبین لقبحها، وقائل لحق او داع اليه، وزاجر عن باطل او ذام لمن هو عليه.. ومع اجلاي الكبير للشيخ اعلى الله مقامه لا ارى ان ذاك يوجب القطع برؤيا الرسول ﷺ او الامام عليهما السلام وانما بصحة ما امروا به، وبطلان ما نهوا عنه لتطابقه مع ما جاء به الشرع ولا ملازمة بين صحة هذه وصدق تلك احتمال ان يكون ذلك انعكاساً لحال الانسان، وفكره وارد لا مدفع له كما مر في البحث .

قال : واما الذي اقطع على بطلانه فهو كل ما كان ضد ذلك لعلمنا: ان النبي ﷺ والامام عليهما السلام صاحبا حق، وصاحب الحق بعيد عن الباطل.

واما الذي اجوز فيه الصحة والبطلان فهو المنام الذي يرى فيه النبي ﷺ والامام عليهما السلام وليس هو امراً، ولا ناهياً ولا على حال يختص

٢٥٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
بالديانات مثل: أن يراه راكباً، او ماشياً او جالساً ونحو ذلك^(١)

رأي العلامة الحلبي

ولقد سأل السيد مهنا بن سنان: العلامة الحلبي المتوفى ٧٢٦هـ
فيمن رأى في منامه رسول الله ﷺ او بعض الائمة عليهم السلام وهو يأمره
بشيء وينهاه عن شيء هل يجب عليه امتثال ما أمره به، او اجتناب ما
نهاه عنه ام لا يجب ذلك مع ما صح عن سيدنا رسول الله ﷺ انه قال
من رآني الحديث .

وما قولكم: لو كان ما امر به، او نهى عنه على خلاف ما في ايدي
الناس من ظاهر الشريعة هل بين الحالين فرق ام لا ؟
فاجاب نور الله ضريحه:

أما ما يخالف الظاهر فلا ينبغي المصير اليه واما ما يوافق الظاهر
فالأولى المتابعة من غير وجوب؛ لأن رؤيته ﷺ في المنام لا تعطي
وجوب الاتباع^(٢)

ورأي المجلسي

سادساً - واخيراً قال الشيخ المجلسي المتوفى ١١١١هـ بعد ان
استوفى في الكلام في ما قيل في الاحلام .

(١) المجلسي : البحار م ٦١ ص ٢١١ .

(٢) نفس المصدر والجزء ص ٢٣٨ .

(بقى الكلام في انه هل يكون حجة في الاحكام الشرعية؟ فيه اشكال: فانه قد ورد باسانيد صحيحة عن الامام الصادق عليه السلام في حديث الاذان: أن دين الله تبارك وتعالى اعز من أن يرى في النوم .

قال: ان مناط الاحكام الشرعية العلوم الظاهرة وكان النبي والائمة عليهم السلام يعرفون كفر المنافقين، وفسق الفاسقين، ونجاسة اكثر الاشياء لكن الظاهر انهم لم يكونوا مأمورين بالعمل بهذا العلم بل كانوا يستندون في تلك الاحكام إلى الامور الظاهرة من المشاهدة وسماع البيئة.

قال : مع ان الظاهر: ان هذا من مسائل الاصول ولا بد فيه من العلم ولا يثبت باخبار الآحاد المفيدة للظن: وايضاً ما يرى في المنام يحتاج إلى تعبير وتأويل فلعل ما رآه مما له تعبير وهو لا يعرفه وان لم يكن من قبيل الاضغاث^(١)

وهو رأي سبق لنا بيان خلفياته ومداركه في البحث تفصيلاً... وختاماً ارجو من الله تبارك وتعالى أن ينفع بذلك المؤمنين فما كتبه إلا بعد أن رأيت - في هذا الظرف - كثرة المعتدين بالاحلام والمستشهادين بها، والمستنديين اليها.

والحمد لله رب العالمين اولاً وآخراً وفي كل حال والصلاة والسلام على نبيه وآله الطاهرين .

العراق- النجف الاشرف

عدنان علي البكاء

(١) المجلسي : المصدر نفسه ص : ٦١ ص : ٢٣٧ . ٢٣٨ .

المصادر والمراجع

- ١_ القرآن الكريم .
- ٢_ لسان العرب ، ابن منظور .
- ٣_ تاريخ الفكر العربي ، د عمر فروخ (ترجمة الفارابي) .
- ٤_ الفتوحات المكية ، ابن عربي الطائي .
- ٥_ الأرواح الماسة ، عدنان البكاء .
- ٦_ أبواب العقل الموصدة ، د علي كمال .
- ٧_ الانسان ورموزه ، كارل غوستاف يونغ .
- ٨_ رجوع التجسد، د.أ.ش : بهكتي : فيدانت سوامي، بربهبواد .
- ٩_ بحار الانوار ، العلامة المجلسي مجلد (٥٨).
- ١٠_ حق اليقين ، السيد عبد الله شبر .
- ١١_ حياتي والتحليل النفسي (باب النوم باب الاحلام)، سيمغند فرويد.
- ١٢_ خاتمة المستدرك ، جزء ٢ .
- ١٣_ معجم مصطلحات الحكمة عند الشيخ الاحسائي ، عبد الرسول زين الدين.
- ١٤_ جنة المأوى ، الشيخ النوري ، مطبوعة مع الجزء ٥٣ من البحار .
- ١٥_ معجم الادباء ، ياقوت الحموي .
- ١٦_ الإشارات في علم العبادات ، في هامش جزء ٢ من كتاب تعطير الانام للنابلسي ، ابن خلكان : وفياء الاعيان جزء ٢ .

البحث الخامس

الأرواح الماسية

ودورها في الإضطرابات النفسية والعقلية

الأرواح الماسة أو المستحوذة

ودورها في الاضطرابات النفسية والعقلية، في الدين و

الفلسفة والعلم^(١)

لنشرح كلمات العنوان ومبرر اختيارها، وليكن ذلك مدخلاً
لموضوع حديثنا أيضاً:

الأرواح جمع مفردة: روح، ويقصد بها هنا عندهم: الموجودات
العاقلة المريدة اللامنظورة على اختلاف مستوياتها سواء كانت ذات
أجسام شفافة تتناسب وعالمها أم لم تكن، ولذلك فهي اعم مما هو
المفهوم الفلسفي الدقيق للروح أو الأرواح التي تعني: الجواهر المجردة
عن الجسمية وعلاقتها برتبها المختلفة...

(١) ألقى ملخصه في الندوة العلمية الأولى لمؤتمر النجف الطبي الخامس في القاعة
الكبرى في رئاسة جامعة الكوفة تحت عنوان: الأرواح الماسة في الدين والفلسفة والعلم
وكان الباحث الآخر الذي تولى التقديم وتحدث عن الأسباب المادية للاضطرابات النفسية
والعقلية وأدار الندوة الدكتور نبيل عباس عبد علي الاختصاصي في الأمراض الباطنية
والقلبية والجملة العصبية رئيس قسم الأمراض الباطنية والقلبية في مستشفى مرجان وذلك
في يوم ٢٥/٢/٢٠٠١.

إن مفهوم الأرواح هنا يدخل تحت مفهوم الجن بالمعنى اللغوي العام المأخوذ أصلاً من الأجتنان وهو الاختفاء والاستتار سواء كان ذلك بطبيعة خلقه: من حيث صغره كالجرثوم والفيروس أو من حيث شفافيته ولطافته وسرعة تردداته كعالم الإشعاعات والأمواج... والمخلوقات اللامنظورة الأخرى...

ولذلك قالوا: إن هذا المفهوم للجن تدخل تحته الملائكة. وذكروا: ان قوله تعالى: (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً)^(١) إنما تعنيهم بدليل ما ذكره تعالى: في عدد من الآيات من عقيدة الكافرين: بأن الملائكة بنات الله تعالى: (٢) (٣)

ويشمل هذا المفهوم: الكائن المقابل للأنس الذي هو أحد الثقليين الخاضعين للتكليف ومنهم كان إبليس... وهم الذين خصهم القرآن في أكثر آياته بهذا الاسم، وصار هو المتبادر منه استعمالاً وفي تعريفهم للجن - كما سيأتي - قالوا: إنهم نوع من الأرواح^(٤) ولنسمهم من الآن: بالمارجين لخلقهم من مارج من نار.

وتدخل تحت مفهوم الجن كذلك: الأرواح البشرية المفارقة

(١) سورة الصافات الآية: (١٥٨).

(٢) الإسراء الآية: (٤٠)، والصافات الآية: (١٥٠)، والزخرف الآية: (١٩).

(٣) ابن منظور: لسان العرب م: (١٣) م جن ص: (٩٢-٩٥).

(٤) السيد سابق: العقائد الإسلامية ص: (١٣٣).

محمد فريد وجدي: دائرة القرن العشرين م: (٣)، ص: (١٨٥) وغيرها.

٢٦٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان
لأجسادها بالموت، المنتقلة إلى العالم البرزخي الآخر^(١).

أما كلمة الماسة والمستحوذة في العنوان فقد قصدنا بها: تحديد
البحث بالأرواح :-

١- التي تتداخل أو تمس بعض الناس فتسبب لهم اضطراباً نفسياً
أو عقلياً أو تحدث لديهم هلوسة سمعية أو بصرية أو شمعية.

(١) أما القرآن الكريم فلم يطلق كلمة الروح على ما يساوي ذات الإنسان، أو ذات الجن
(المارجي) المقابل للأنس في القرآن ولا على ذات مطلق الملك.. لان الروح مبدأ الحياة
بالنسبة لها. وجعل انتقال الإنسان للعالم الآخر انتقالاً لذات الإنسان نفسه لا لروحه قال
تعالى لرسوله محمد ﷺ: (وأما نريك بعض الذي نعدهم، أو نتوفينك) (يونس الآية ٤٦)
وقال تعالى: (يا عيسى إني متوفيك) (آل عمران الآية ٥٥) وقال سبحانه: (فكيف إذا
توفتهم الملائكة) (سورة محمد الآية ٤٧) وآيات أخرى مماثلة وقد يجعل التوفي للأنفس
وهي تساوي الذوات أيضاً كقوله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها) سورة الزمر الآية:
(٤٢) وقد وردت كلمة روح في القرآن الكريم في إحدى وعشرين آية لا يدل أي منها على
انها تساوي ذات من الذوات الثلاثة التي ذكرناها بل هي في هذه الآيات:

١- إما تعني الروح التي هي مبدأ الحياة الذي ينفخ في الكائن الحياة كنفخ الكهرباء
الضوء في المصباح قال تعالى: (ونفخت فيه من روحي) سورة الحجر الآية (٧٢) وقال
سبحانه (ونفخنا فيها من روحنا) سورة الأنبياء الآية: (٩١).

والروح هذه ذات مخلوقة بدليل قوله تعالى (فأرسلنا إليها روحنا) سورة مريم الآية (١٧).
٢- وإما على روح القدس إن الروح رتبة عليا أو أعلى من الملائكة ولذلك أفردتها القرآن
في عدد من آياته بالذكر فقال سبحانه: (تنزل الملائكة والروح فيها) سورة القدر وقال
تعالى: (تعرج الملائكة والروح إليه) وهناك آيات أخرى بنفس الدلالة .

٢- وتلك التي تستحوذ أو تمتلك بعض الأشخاص فتعطل ذاتيته الخاصة مؤقتاً أو دائماً فتلغي ذاكرته وتغير نمط سلوكه وتتصرف أحياناً بجوارحه، وتنطق بلسانه وتكيف ملامح وجهه، وتريه ما ترى، وإنما حددنا الموضوع بهذا النوع من الأرواح فقط لأمرين:

أولاً: لأن موضوع الأرواح واسع جداً فهناك في ما قالوا: الأرواح المرشدة، والملهمة، والحارسة... الخ وإذا فلا بد من تضيق دائرته بالحدود التي تعيننا منه.

ثانياً: ليلتقي الموضوع وما يعنى به فرع الأمراض النفسية والعقلية في الطب من حيث كونها أمراضاً ومن حيث محاولته التعرف على أسبابها لا من حيث دخول المس كسبب فيها على ان ما نريد بيانه في هذا البحث انها سبب مفترض بل محقق في بعضها لدى عدد من الأطباء كما ستقرأ ذلك.. ولما كانت الأرواح الماسة والمستحوذة منحطة وشريرة دائماً فإن الأرواح الملائكية - بكل رتبها- خارجة موضوعاً عن بحثنا لأنها لا تقبل القسمة إلى أخيار وأشرار فهي خيرة مطلقاً حتى لو أدى عملها الموظفة فيه كونياً إلى شر نسبي.

إن الروح والرتب العليا من الملائكة هي قوى وقوانين الكون الممثلة للمشيئة الإلهية فيه والرتب الدنيا منهم عمال منضبطون ضمن هذه القوانين^(١) قال تعالى: (عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول)^(١) وقال

(١) قال ابن سينا: (الملك جوهر بسيط ذو حياة ونطق وهو واسطة بين الباري والأجسام ومنه عقلي ومنه نفسي ومنه جسماني).

تعالى: (لا يعصون الله ما أمرهم)^(٢).

وإذا فإن بحثنا يقصر نفسه على الحديث:

أولاً: عن الجن أو الكائنات المارجية المقابلة للإنس.

ثانياً: عن الجن أو الأرواح البشرية المنتقلة إلى العالم الآخر.

فهذان القسمان هما من ينقسم أفرادهما إلى أختيار وأشرار.

فمن هم الجن في الدين؟ ومن هم لدى الفلاسفة

والباراسايكولوجيين؟ وما هي إمكانياتهم؟ وأنواع صلاتهم بالإنسان؟.

الجن في الدين

عرفهم السيد سابق الأستاذ في جامعة الأزهر في كتابه الذي ألفه

بتوجيه، وطلب من المؤتمر الإسلامي في القاهرة فقال:

(الجن نوع من الأرواح العاقلة المريدة المكلفة على نحو ما عليه

الإنسان ولكنهم مجردون عن المادة البشرية مستترون عن الحواس لا

يرون على طبيعتهم ولا بصورهم الحقيقية ولهم قدرة على التشكل)^(٣).

واستبعد بعضهم في تعريفه: كلمة البشرية بعد المادة، لعدم الحاجة

راجع رسالة الحدود ضمن (المصطلح الفلسفي عند العرب، د. عبد الأمير الأعسم) ص:

(٢٥١).

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٢٧).

(٢) سورة التحريم: الآية: (٦).

(٣) العقائد الإسلامية: ص: (١٣٣).

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٢٧٠
إليها واسقط فقرة ولهم قدرة على التشكل إذ لم يرد لها أساس في القرآن
وإن وردت لدى الفلاسفة^(١).

وقال الأستاذ محمود شلتوت (رحمه الله) الشيخ الأسبق للجامع
الأزهر بعد تعريفه لهم اجمالاً وذلك ما لا يختلف معه فيه أحد من
الفقهاء المسلمين: (وبأخبار القرآن والكتب السماوية هكذا بوجود الجن
كان إنكارهم تكذيباً لأخبار الله سبحانه وتكون محاولة تأويل هذه
العبارات الواضحة تحريفاً للكلم عن مواضعه)^(٢).

الجن في القرآن الكريم

وأرى انه يجب علينا حين نريد ان نعرف رأي الدين في ما يتصل
بالجن من كل جهة أن نستقرأ ما قاله القرآن الكريم..

تاريخ ومادة خلقه

الجن أسبق خلقاً من البشر وهم مخلوقون أصلاً من النار خلافاً
للشجر المخلوق من الطين قال تعالى: (والجان خلقناه من قبل من نار
السموم)^(٣) وقال تعالى: (وخلق الجن من مارج من نار)^(٤) ونار السموم،
والمارج من النار: هب النار الخالص الذي لا دخان فيه.

(١) دائرة معارف القرن العشرين: م: (٣)، ص: (١٥٨).

(٢) فتاوى شلتوت: ص: (٢٢-٢٣).

(٣) سورة الحجر: الآية: (٢٧).

(٤) سورة الرحمن، الآية: (١٥).

٢٧١ في الدين والعلم والحياة والإنسان

ومنهم كان إبليس قال تعالى: (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه)^(١) وسمى إبليس لابلاسه والابلاس اليأس وقد حصل لديه عندما حاقت به اللعنة وقيل إنه أسم أعجمي، ولذلك منع من الصرف، وواضح من كلمة من قبل في الآية الأولى ومن حديث إبليس سبق خلقه على الإنسان أو على أبينا آدم نحن السلالة البشرية القائمة حتى الآن^(٢) ونصت الآيتان انهم خلقوا من مارج .

والجن خلق غير منظور من الناس اما هم فيرونهم قال تعالى: (إنه يراكم وقييله من حيث لا ترونهم)^(٣)، ولهم ذرية قال تعالى: (أتتخذونه وذريته أولياء من دوني)^(٤)، وهم مكلفون بالعقيدة والشريعة كالبشر.

قال تعالى: (يا معشر الجن والأنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا)^(٥) وهم يعلمون ما يحدث في

(١) سورة الكهف، الآية: (٥٠).

(٢) وردت في الأحاديث الشريفة كما في ص: (٦٥٢) من النخصال ، و ص: (٢٧٧) من التوحيد للصدوق ت (٣٨١)، عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: (أو ترى ان الله عز وجل لم يخلق بشراً غيركم بلى والله لقد خلق الله تبارك وتعالى ألف ألف عالم وألف ألف آدم وأنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين)، وهذا ما أثبتته العلم من خلال الأحافير، عدنان البكاء - أصل الإنسان بين الدين والعلم - محاضرة ألقى في الندوة العلمية التي أقامتها نقابة الأطباء في قاعة مستشفى صدام في النجف الأشرف يوم ٨/٣/١٩٩٧ .

(٣) سورة الأعراف، الآية: (٢٧).

(٤) سورة الكهف، الآية: (٥٠).

(٥) سورة الإنعام، الآية: (١٣٠).

عالمنا نحن البشر من أحداث قال تعالى بلسانهم: (إنا سمعنا قرآناً عجيباً يهدي إلى الرشد فأما به ولن نشرك بعبادة ربنا أحداً)^(١).

وفيهم مؤمنون وكفار وخيرون وأشرار قال سبحانه بلسانهم: (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً)^(٢)، وقال سبحانه بلسانهم: (وأنا منا الصالحون، ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً)^(٣)، (وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً)^(٤).

وهم في أنفسهم لا يعرفون الغيب إلا بمباشرة أو تلقياً من خلال الاستماع مما ينزل على الملائكة^(٥) فهم بطبيعة خلقهم أقرب للرتب السفلى منهم فلو لم يتيسر لهم ذلك، ولا الإفادة من سرعة حركتهم وخبراتهم التي يعطيها لهم طول أعمارهم فإنهم لا يستطيعون أن يعلموا

(١) سورة الجن، الآية: (١-٢).

(٢) سورة الجن، الآية: (١٤).

(٣) سورة الجن، الآية: (١١).

(٤) سورة الجن، الآية: (٤).

(٥) كان الاستماع قائماً وبه كانت الكهانة قائمة حتى بعث الله محمداً ﷺ فحجبا وطرده وأخزى الله الكهنة الذين كانوا مراجع للناس قال تعالى بلسانهم: (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً) الجن الآية (٩)، والذي يبدو لي جمعاً بين ما تذكره الآية الشريفة وبين واقع استمرار الصلة بالجن لدى السحرة والإفادة من اخباراتهم وقواهم ان الطرد عن الاستماع كان زمن الرسول ﷺ وزمن نزول القرآن اعظماً لشأن الوحي الإلهي وقتلاً للسحرة وسلباً لسبل تشكيكهم ومدخل تصديهم وتضليلهم ولعل في كلمة (الآن) في الآية ما يعين على هذا الفهم، والله العالم .

٢٧٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
شيئاً كما في حديث موت سليمان)، قال تعالى: (فلما قضينا عليه الموت
ما دهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن ان
لو كانوا يعلمون الغيب لما لبثوا في العذاب المهين)^(١)، وقال تعالى
بلسانهم: (وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم
رشدًا)^(٢).

وللجن في نفسه قابليات تفوق القابليات البشرية سرعة وقوة قال
تعالى في قصة سليمان عليه السلام: (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل ان
تقوم من مقامك، واني عليه لقوي أمين)^(٣) وقال سبحانه: (يعملون له
ما يشاء من محاريب وتمائيل وجفان كالجواب، وقدور راسيات)^(٤)،
وقال جل شأنه: (والشياطين كل بناء وغواص)^(٥).

وسياتي: ان الفلاسفة والصوفية وعلماء الروحية الحديثة. وفي
هؤلاء أسماء منظورة علمياً: يؤمنون أيضاً بهذه القوى الكبيرة المتفوقة
للجن وسنشير إلى شيء من ذلك هناك .

لا سلطان له إلا بالدعوة التخاطرية.

(١) سورة سبأ، الآية: (١٤).

(٢) سورة الجن، الآية: (١٠).

(٣) سورة النمل، الآية: (١٣).

(٤) سورة سبأ، الآية: (١٣).

(٥) سورة ص، الآية: (٣٧).

ورغم هذه القدرات والإمكانات التي يتمتع بها الجن فإن الله تعالى لم يجعل لشياطينهم (الأشرار منهم) سلطاناً على عباده المعتصمين به، والواقفين عند حدوده يرغمونهم به على أتباعهم أكثر من الوسوسة والدعوة تخاطرياً (بالمخاطبة النفسية) فبين العالمين حدود وحوارج تكوينية (بطبيعة الخلقة) لا تجعلهم قادرين على أكثر من ذلك .

قال تعالى لإبليس: (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من أتبعك من الغاوين)^(١) وقال سبحانه: (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)^(٢) وقال جل اسمه بلسان الشيطان: (وما كان لي عليكم من سلطان إلا ان دعوتكم فاستجبتم لي)^(٣).

ولكن ما ينبغي التنبيه إليه هنا: إنه في دعوته ووسوسته أعاذنا الله منه مثابر وملح لا يكاد ييأس، يدخل من كل مدخل ويستغل كل فكرة، وكل رغبة وكل إحساس عندنا وكل قضية قائمة لنا بها صلة من جهة أو أخرى.. ويقرأ أفكارنا ويتلمس مواطن الضعف في نفوسنا دون ان نرى انه من يفعل ذلك وكأن الأمر يأتي من داخل الإنسان نفسه وهذا هو موضع الخطورة إذا لم يقو الإنسان بإيمانه عليه دون شك .

قال تعالى وهو يذكر ما تهدد به إبليس أبناء آدم عند لعن الله له:

(١) سورة الحجر، الآية: (٤٢).

(٢) سورة النحل، الآية: (٩٩-١٠٠).

(٣) سورة إبراهيم، الآية: (٢٢).

٢٧٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
(قال بما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين)^(١).

ولكن إذا لم يكن له سلطان على الإنسان في ما عدا الدعوة والوسوسة تخاطرياً كما أشارت النصوص؟ فما معنى قوله تعالى: (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون)^(٢)؟، وما معنى قوله سبحانه: (انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا)^(٣)؟ وكيف يمكن ان نفهم قوله جل شأنه: (كمن يتخبطه الشيطان من المس)^(٤)؟.

والجواب: إن جعل الشيطان قريناً أو إرساله على الكافرين يجري ضمن قانون فلا يكون إلا حين تخرق الحدود الكونية القائمة التي تفصل بين الناس وبينه بمشيئة من الشيطان فهو مخلوق مختار وعدو أحياناً، أو بمشيئة من الإنسان نفسه أحياناً أخرى.

إن الإنسان المؤمن الملتزم بهدى الله سبحانه يتعالى فكراً وتوجهاً وخلقاً عن عالم الشياطين ودعواهم فهو يعتصم بنور عقله وبهدي الكتاب والسنة.

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٦).

(٢) سورة الزخرف، الآية: (٣٦-٣٧).

(٣) سورة مريم، الآية: (٧٣).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٧٥).

أما الكفر وما يبتنى عليه لدى الكفار فكراً وسلوكاً فهو يعنى التوافق النفسي والعقلي والأخلاقي مع الشياطين واللقاء معهم مساراً وهموماً وغاية دون عاصم.

ولذلك يحصل خرق الحدود بطلب الصلة بهم من قبل الإنسان نفسه عبر أعمال معينة...

إن استحضر الأرواح، واستدعاهها تلباثياً دونما عصمة وحصانة يفسح المجال دون شك لدخول الشياطين ولبسها قناعاً محبباً أو مقدساً، ويعظم الخطب لدى المتعلمين منها والمستهددين بها خاصة... ومع تكرار ذلك واستطاعة الأرواح الخبيثة ضبط تردداتها مع فكر الإنسان المستحضر أو الوسيط يحصل الاستحواذ ويصبح الشيطان له قريناً ومرشداً كالمعروف اليوم في الدوائر الروحية في العالم الأمريكي والأوربي وغيرهما.

وقد يحصل ذلك لمن يطلبونهم للاستنباء والكهانة وهو معروف، أو من يعملون لاستخدامهم في أحداث الخوارق كالسحرة وغلاة المتصوفة بالارتياض، وبالأثار الوضعية لاستخدام الأسماء الإلهية أما التخبط فهو ما ينتهي إليه الأمر لدى الكثير من هؤلاء أما ما يحصل لدى غيرهم فبسبب تكويني وراثي أو طارئ سابق عليه وهو ما سيأتي الحديث عنه.

لبعض الأنس علاقات بالجن.

ومما يؤيد ذلك ان القرآن الكريم يتحدث عن علاقات مباشرة بين الجن والأنس مما لا يعرفه الناس الآخرون وراء هذه الفئات التي أشرنا

٢٧٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان
إليها، وقد أشرنا انه يكون بطلب من الأانس أحياناً، وبمبادرة من الجن
بمناسبة ما أحياناً أخرى.

قال تعالى: (وإنه كان رجال من الأانس يعوذون برجال من الجن
فزادوهم رهقاً)^(١) وقال سبحانه: (ويوم يحشرهم جميعاً يا معاشر الجن قد
استكثرتم من الأانس وقال أوليائهم من الأانس ربنا استمتع بعضنا ببعض
وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا)^(٢).

ولما كان للجن ومنهم (الشياطين) إمكانية قراءة أفكار المتصلين بهم
كان للأانس دور في إعطاء الأساس الذي يبني عليه الشيطان فيوسوس
به إليهم.

إن تطلع المبتدعين وأدعياء النبوة والبابية والمهدوية لهذه الدعاوى
نفسياً يكون منطلقهم في تقمص شخصية مقدسة لملك أو نبي أو إمام
ليغروا المتطلع بدعواه وبحسب توقعه عدا استخدامهم له في التنفيذ بما
ينتهي غالباً إلى هدم الدين، والرسالات السماوية وبذلك كان الاثنان
أعداء للأنبياء والرسل قال تعالى: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين
الأانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً)^(٣).

هذا ما جاء في القرآن الكريم عنهم، أما الفلاسفة والصوفية
وعلماء الروحية الحديثة فسنذكر آراءهم في التالي:

(١) سورة الجن، الآية: (٦).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٢٨).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (١١٢).

الجن والشياطين لدى الفلاسفة

قال فخر الدين محمد بن عمر التيمي الرازي المتوفى (٦٠٦هـ): (اعترف بهم جمع عظيم من قدماء الفلاسفة، وأصحاب الروحانيات، وأسموهم بالأرواح السفلية^(١)، وانقسموا في تحديد ماهيتهم إلى قسمين: القسم الأول: وهؤلاء يرونهم خلقاً مستقلاً قائماً بنفسه إلا أنهم فيهم على قولين:

القول الأول: ويزعم أصحابه: ان الجن ليسوا أجساماً، ولا حالين في الأجسام، بل هم جواهر مجردة قائمة بنفسها... قالوا: وكونها مجردة لا يمنع من كونها عالمة بالخير قادرة على الأفعال، وفي أنواعها ما يقدر على أفعال شاقة^(٢).

ونقل الفيلسوف محمد إبراهيم المعروف بالملا صدرا المتوفى (١٠٥٠هـ) هذا القول عنهم وأضاف: (وجنسها مخالف لجنس النفوس البشرية وذلك الجنس تندرج فيه أنواع كثيرة)^(٣).

القول الثاني: إنهم ذوو أجسام ومن هؤلاء كما يبدو من تعريفه لهم الشيخ ابن سينا المتوفى (٤٢٨هـ) فقد قال: (إن الجن حيوان هوائي

(١) تفسير الرازي، م: (٢٩-٣٠)، ج: (٣٠)، ص: (١٤٨)، ط: (١).

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) الملا صدرا مفاتيح الغيب ص: (١٨٤).

٢٧٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
ناطق مشف الجرم من شأنه ان يتشكل بأشكال مختلفة^(١).

وبقريب من هذا عرفهم الملا صدرا فقال: إنها أجسام هوائية قادرة
على التشكل بأشكال مختلفة ولها عقول وافهام ولها قدرة على أفعال
شاقة^(٢).

(١) الحدود لأبن سينا ضمن: (المصطلح الفلسفي عند العرب: دراسة وتحقيق الدكتور
عبد الأمير الأعسم)، ص: (٢٥١).

(٢) الملا صدرا: المصدر السابق ص: (١٨٣).

+ مر في ما ذكر القرآن الكريم عن الجن الحديث عن قدراتهم المتفوقة ومنها ما تعهد به
العفريت أمام سليمان من المجيء بعرش ملكة سبأ قبل القيام من مقامه وغير ذلك وها أنت
ترى هنا فيلسوفين كبيرين يذكران قدرتهم أو أنواع منهم على أفعال شاقة. ويؤيد علماء
الروحانية في مشاهداتهم - وفيهم علماء طبيعويون - ذلك فيذكر كولن ولسون في ص:
(١٠٣-١٠٤) من كتابه ما بعد الحياة: ان الفرد والاس العالم المعروف وشريك دارون في
بناء نظرية التطور شاهد امرأة بدينة جداً أسمها آكنس نيكولاس تطفو في الهواء، وشوهدت
هذه المرأة نفسها مرة أخرى تطير حتى سقف الغرفة ثم تخرج من خلاله وتسقط على بعد
أربعة أميال حيث كانت تعقد جلسة روحية هناك. ونقل ارمولا جيف في ما ذكره هنري
كرايس ووليم ديك في كتابهما الباراسايكلوجي سر من أسرار الدولة ص: (١٢) (إنه في
سنة (١٩٦٧) شاهد في لينبغراد فتاة بدينة جداً تضطجع على الأريكة ثم ترتفع وإياها
ونقل أخوها إنها تستطيع إن ترفع سيارة، وذكروا ان السير وليام كروكس المتوفى سنة
(١٩١٩م) وهو من أبرز علماء الفيزياء والكيمياء وهو أيضاً مكتشف ومخترع معروف
شاهد عدة وقائع مشابهة) (راجع الدكتور رؤوف عبيد في م ١ ط ٤ من موسوعته مطول
الإنسان روح لا جسد ص: (٥٢٠)). وفي ص ١٢-١٣ من كتاب الباراسايكلوجي سر من

وقد ذهب فريق من القائلين: بانهم ذوو أجسام إلى ان أجسامهم متساوية في تمام ماهيتها.

بينما ذهب فريق آخر: ان الأجسام مختلفة في هياتها إنما المشترك بينها صفة واحدة هي كونها حاصلة في الحيز والمكان، والجهة، وإنها موصوفة بالطول، والعرض، والعمق، قالوا: والاشترار في الصفات لا يقضي الاشتراك في تمام الماهية في ما ينقسم إليه الجسم من كونه لطيفاً أو كثيفاً أو علوياً أو سفلياً^(١)، ويبدو: ان الأشكال في كون الجن أجساماً لدى بعض القائلين بكونهم جواهر مجردة يأتي من ان الجسم لديهم يتلازم والمادة الصلبة الكثيفة؛ ولذلك فلا يمكن لديهم تصور ذلك لأن للجن خصائص، وإمكانات تنافي الجسمية منها:

أولاً: ان الجن غير منظور بطبيعته، ولو كان جسماً لكان يجب- في نظرهم- ان يكون منظوراً .

أسرار الدولة لهنري كرابس ووليم ديك يذكر مشاهدات فاسيليف وبوشكين وهما من أعضاء المجمع العلمي الروسي الحائزين على وسام لينين: لارمولا جيف ومما فعل إنه رفع من بعد امرأة وممثلة من على المسرح... وكل ذلك بواسطة الأرواح التي هي الجن. وقد ذكر الدكتور علي عبد الجليل راضي أستاذ الفيزياء في جامعة عين شمس في كتابه: (قصة تجاربي الروحية في لندن) ان الأرواح أحضرت إلى لندن تميمة فرعونية من مصر، راجع ص: (١١٣-١١٥) ط١، وذكر البوني ت: (٦٢٣هـ) و (ص١٩٦ من منبع أصول الحكمة) وصفات = = لاستخدام الجن (الأرواح) في نقل الصخور ونسف التلؤل وفي (ص٢٢٠) لكشف الأسرار الغامضة

(١) تفسير الرازي: (المصدر السابق)، (٢٩-٣٠)، ج: (٣٠)، ص: (١٤٩-١٥٠).

٢٨١ في الدين والعلم والحياة والإنسان

ثانياً: انهم قادرون على النفوذ في باطن الإنسان، وتلبس جسده، ويتعذر ذلك عليه في رأيهم لو كان جسماً .

ثالثاً: إنهم يقومون بأعمال شاقة فلا يتصور كون الجسم لطيفاً وشفافاً لأنه سيتفرق أو يتمزق لكن الملا صدرا (محمد إبراهيم) الذي يبدو كما لو كان يعرف عوالم الطاقة وعوالم الإشعاعات بتردداتها وموجاتها المختلفة يجيب بقوله: إن الأجسام متخالفة في الحقيقة فإذا ثبت هذا فلم لا يجوز أن يقال: إن بعض أنواع الأجسام لطيفة نفاذة حية لذاتها قادرة لذاتها على الأعمال الشاقة وهي غير قابلة للتفرق والتمزق فإذا كان كذلك فتلك الأجسام قادرة على تشكيل أنفسها بأشكال مختلفة..

وعلى هذا التقدير تكون قادرة على النفوذ في بواطن الناس وعلى التصرف فيها، وانها تبقى قابلة للتخلخل والتكاثف فإذا تكاثفت رؤيت وإذا تخلخلت غابت عن الأبصار .

قال: والحق ان لها نفوساً قوية عالية على أجسامها قادرة على تبديل هياكلها إلى هياكل أخرى^(١).

(١) الملا صدرا، مفاتيح الغيب، ص: (١٨٦).

التواصل بينهم وبين الناس

مر علينا: ان القرآن الكريم ذكر نوعاً من الصلة بين الجن وبين الناس وتحصل هذه الصلة كما ذكروا أحياناً بسبب خلقي ابتداءً من غير توجه أو طلب لمناسبة تقرب أفتيهما أو تردداتهما العقلية والروحية... أما الغالب -وراء ما ذكرناه من المخاطبة والوسوسة التخاطبية- فهو ما يحصل بطلب من الإنسان نفسه.

قال الرازي المتوفى سنة (٦٠٦هـ): اتصال النفوس الناطقة البشرية بها اسهل من اتصالها بالأرواح السماوية إلا ان القوة الحاصلة بالصلة بها اضعف مما هي القوة التي تحصل بسبب الصلة بالأرواح السماوية... وقال في تفسير سبب هذه السهولة في الصلة بهم: (لأن المناسبة بين نفوسنا وهذه الأرواح الأرضية أقرب، ولأن المشابهة والمشاركة بينهما أتم وأشد).

وقال: (إن الاتصال بها يحصل بأعمال سهلة)^(١) والحقيقة التي تثبتتها التجربة: ان لوحة الحروف الهجائية المعروفة وتسمى (اويجا) والجلوس عندها، لاستدعاء الأرواح تخاطبياً كافٍ في ذلك، ومثل ذلك إمساك القلم ووضعها على الورقة ثم استدعاء الأرواح لتكتب^(٢)... إنهم اقرب العالم اللامنظور لعالمنا الأرضي، وبتطفلهم هذا يقطعون

(١) التفسير الكبير، م: (٢٩-٣٠)، ج: (٣)، ص: (١٤٨).

(٢) كيف تتكلم إلى موتاك، للدكتور جميل عبيد.

٢٨٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
الطريق غالباً إلا ما شاء الله على الصلة بأية روح من الرتب العليا،
ويخبطون بالمتصل بهم -مدعين ادعاءات عريضة- ومتقمصين
لشخصيات علمية أو مقدسة.

قال الفيلسوف الصوفي المعروف ابن عربي الطائي الأندلسي
المتوفى سنة (٦٣٨هـ) وقد ذكر بعض الصوفية الذين يجالسون -على حد
تعبيره- الروحانيين من الجان: والكيس من الناس من يهرب منهم...
ومجالساتهم رديئة جداً، قل ان تنتج خيراً لأن أصلهم النار، والنار كثيرة
الحركة ومن كثرة حركتهم كان الفضول أسرع في أشخاصهم ولهذا ما
ترى أحداً قط جالسهم فحصل عنده علم بالله تعالى: جملة واحدة..

قال: (وأنه لا بد ان يحصل من صحبتهم في نفس من يصحبهم
تكبر على الغير بالطبع، وازدراء لمن ليس له في صحبتهم قدم)^(١).

علاقاتهم في تعليم السحر

قال ابن عربي في كلامه السابق: (غاية الرجل الذي تعني به أرواح
الجن ان يمنحوه من علم خواص النبات والأحجار والأسماء والحروف
وهو علم السيمياء فلم يكتسب منهم إلا العلم الذي ذمته السنة
الشرائع)^(٢).

والسيمياء الذي ذكر ابن عربي: ان الجن يعلمونها المتصلين بهم

(١) ابن عربي، الفتوحات المكية م: (١)، ص: (٢٧٣).

(٢) نفس المصدر والصفحة.

هي - كما ذكر السيد الطباطبائي - العلم الباحث عن مزج القوى الإرادية مع القوى الخاصة المادية للحصول على غرائب التصرف في الأمور الطبيعية، ومنه التصرف في الخيال المسمى بسحر العيون وهذا الفن من (أصدق مصاديق السحر)^(١).

وذكر الفخر الرازي المتوفى سنة (٦٠٦هـ) للسحر ثمانية أنواع الثالث منها: هو الاستعانة بالأرواح الأرضية (الجن)^(٢) ونقل الكشناوي المتوفى سنة (١١٥٣هـ) في اختصاره للسر المكتوم للرازي الذي أسماه (الدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم): الطرق المختلفة لتسخير الأرواح وذكر ما ترجع إليه من المذاهب القديمة لأهل الكفر ثم ذكر كتبها المصادر فيها)^(٣)، وعدد أموراً هائلة بشعة لا يقرها مؤمن ولا ذو خلق وذو علم مما يمكن تسخيرها بها بزعمه^(٤)، هذا عدا إستحالة توفيرها عادة...

وذكر البوني المتوفى سنة (٦٢٢هـ) في كتابه منبع أصول الحكمة (ص: ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٢٦) طرقاً لاستخدام الأرواح في أغراض مختلفة وعرض في (ص: ٨٤ و ١٥٠) طرقاً لإرسال الهواتف إلى من يريد ولأي غرض يريد بصورته وصوته والمعروف ان هذه والمجلوبات الروحية هي

(١) محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن م: (٢)، ص: (٢٤٤).

(٢) الرازي: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) م: (٣-٤)، ج: (٣)، ص: (٢١٠-٢١١).

(٣) راجع الجزء الأول ص: (٣٣) وما بعدها.

(٤) أقرأ الجزء الثاني من كتابه ص: (٢٤) وما بعدها.

٢٨٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
عمدة أصحاب الابتداع والضلالة من أهل الطرق في إغواء تابعيهم،
واستجلابهم إليهم^(١)، مضافاً إلى الاخبارات الغيبية النسبية، والرؤية عن
بعد وأشباه ذلك.

الأثر الوضعي للأسماء الإلهية

وقد يخدع الكثير من الناس: بأن هذه الأمور تحدث بدعوات تذكر
فيها الأسماء الإلهية والآيات القرآنية، طبقاً لقانون العالم الخفي فتعطي-
بالصورة المعينة الخاصة في الرياضات الخاصة- آثاراً وضعية كما تعطي
المواد الكيماوية لو جمعت بصورة أو أخرى آثارها دونما فرق بين مؤمن
وكافر وبين ضار ونافع، وبين حق وباطل، فهي خصوصية كونية تجري
ضمن قانون كوني وسيأتي لاحقاً مزيد شرح لذلك من كلام ابن
عربي^(٢) وغيره من كبار الصوفية.

وهناك قصص يوردها الباحثون في الروحية الحديثة من قبيل ما
ذكرناه في هامش سابق لدى ذكر القابليات المتفوقة للجن ومن قبيل ما
يفعله كثيرون كدانييل هيوم على أنها من أفاعيل الأرواح البشرية وهي

(١) إرسال الهواتف من الجن أمر يختلف عن الخروج من الجسد بالإرادة الذي يحصل
لل بعض بإمكانية موهوبة ويحصل للبعض بريضة كما هو عند اليوكيين والرهبان والصوفية
فالثاني ليس سحراً إلا ان استخدامه في التضليل والإيهام بصدق الدعاوى الباطلة والتدليل
بذلك على مكانة أصحابها وقربهم من الله تعالى حرام قطعاً لأنها لا تحمل أي دليل، لأنها
حالة موهوبة تحصل لدى الملاحدة والكفار والفساق أو أثر وضعي للارتياض.

(٢) ابن عربي، الفتوحات المكية ج: (٢)، ص: (٣٨٥).

في الحقيقة من أفاعيل الجن المارجي: الشياطين منهم، أو المسخرين، لعدم صلة البشر الميت بهذه الأفعال من حيث القدرات، ومن حيث صورة الفعل التي يابها الفكر والطاقة والخلق البشري.

أخيار وأشرار

واتفق الفلاسفة الذين ذكرناهم ومن نقلوا عنهم على ان الجن: ينقسم إلى قسمين وذلك ما ذكره القرآن سابقاً فبعضها كما قال الرازي: (كريمة حرة محبة للخيرات، وبعضها دنيئة حسيئة محبة للشرور والآفات)^(١) وقال الملا صدرا محمد بن إبراهيم: (ثم ان ذلك الجنس (جنس الأرواح السفلية) تندرج فيه أنواع فإن كانت طاهرة نورانية فهي الملائكة الأرضية وهم المسمون بصالحى الجن، وإن كانت خبيثة شريرة فهي الشياطين المؤذية)^(٢).

وفئة الأشرار (الشياطين) هذه هي التي يجب ان يضعها الإنسان في حسابه دائماً (بخاصة مستحضر الأرواح والصوفي المتطلع للمخاطبة، ومن تحصل له الصلة بمناسبة خلقية) فهي دائماً من تبادر للصلة (متقنة) لتؤدي الدور السلبي المنوط بها كشياطين وقاطعة طريق ولا يكفي ادعاء كونها أخياراً أو اتخاذها أسماء معينة أو نجاحها في الاختبار المحدود للتشخيص ولا صبرها على خط مستقيم فترة طويلة بل يجب

(١) تفسير الرازي، م: (٣-٤)، ج: (٣)، ص: (٢١٠).

(٢) الشيرازي، مفاتيح، ص: (١٨٤).

٢٨٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان
دائماً ان يكون الميزان العقلي والعلمي والشرعي هو الأساس الذي
يعرف به عيار ما تأتي به من حيث النسبة إلى الحق أو الباطل.

القسم الثاني من الفلاسفة

الذين لم يروا: ان ماهية شياطين الجن مستقلة عن النفوس البشرية
المفارقة لأجسادها بالانتقال إلى العالم الآخر وانها هي نفسها...
فقد جاء في رسائل أخوان الصفا وهم من قدماء فلاسفة
الإسماعيلية وهم إنما ينقلون رأياً فلسفياً قديماً ما نصه: (إن النفوس
المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة فإذا فارقت أجسادها كانت ملائكة
بالفعل كذلك النفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوة فإذا فارقت
أجسادها كانت شياطين بالفعل)^(١)، ونقل الملا صدرا هذا الرأي فقال:
(إن النفوس البشرية الناطقة المفارقة للأبدان قد تكون خيرة، وقد تكون
شريرة، فإذا كانت خيرة فهي الملائكة الأرضية، وإن كانت شريرة فهي
الشياطين)^(٢).

صلتهم بعالم الناس في الدنيا

وذكروا: ان لهذه النفوس البشرية المنتقلة للعالم الآخر خيرة وشريرة
صلات مع الناس تتلائم من حيث الغاية والفعل ومستوى أدائها
وحالتها مع واقع أمرها من حيث كونها خيرة أو شريرة..

(١) رسائل أخوان الصفا، ج: (٣)، ص: (٨١).

(٢) الملا صدرا الشيرازي، مفاتيح الغيب، ص: (١٨٤).

قال الملا صدرا: (فإذا أحدث بدن شديد المناسبة لتلك النفس المفارقة فلها ضرب تعلق به فتصير معاونة لهذه النفس المتعلقة بهذا البدن على الأعمال اللائقة بها فإذا كانت النفسان من النفوس الطاهرة المشرقة الخيرة كانت تلك المعاونة والمعاضدة إلهاماً، وإن كانت من النفوس الخبيثة الشريرة كانت تلك المعاونة والمناصرة وسوسة. فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس بالقوة لتخرجها إلى الفعل كما قال تعالى: (شياطين الجن والإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا)^(١) فشياطين الإنس هي النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للأجسام، قال: (وهذا حكم النفوس المفارقة ليست لها آلة تنال بها اللذات المحسوسة فهي تحب وتوسوس إلى أبناء جنسها ممن لهم تلك الآلة على الفعل)^(٢) ويبدو صدر الدين في كلامه هنا متناسياً شياطين الجن المارجي الذين تحدث عنهم القرآن رغم انه ذكرهم في كلامه سابقاً^(٣)، وذكر: ان جنسهم مخالف لجنس النفوس البشرية، وربما كان هنا بصدد شرح وجهة النظر الفلسفية الأخرى وإن بدا كما لو كان متبنياً لها...
وقد مر ان القرآن الكريم أطلق لفظ الجن في الأغلب على المارجيين حتى أصبح هو المتبادر منه...

(١) سورة الأنعام ، الآية: (١١٢).

(٢) الملا صدرا الشيرازي، مفاتيح الغيب، ص: (١٨٥).

(٣) راجعه في رأي القسم الأول من الفلاسفة.

فمن المقبول ان يكون هم الذين قصدتهم الآية السابقة بشياطين الجن، وان شياطين الإنس هم الأشرار من النفوس البشرية المنتقلة إلى عالم البرزخ الذين قال تعالى فيهم: (وحيل بينهم وبين ما يشتهون)^(١) أو أعم مما هي المنتقلة والتي لا تزال في الدنيا...

وتذكر الدراسات الباراسايكولوجية ودراسات الروحية الحديثة في مختلف مصادرها شواهد لا تحصى على تعلق النفوس البشرية المنتقلة إلى الحياة البرزخية(الآخرة) بعالمها الأرضي، وان هذا النزوع لدى الأرواح غير الراقية خاصة...

وتنسب هذه الدراسات كل التصرفات والأفاعيل التي ذكرناها سابقاً للجن المارجي بما فيها القوى والأفعال الخارقة إليها بل لا يفترض أحد من الباحثين إلا قليلاً وجود الجن المارجي في شيء مما ذكره حتى في ما لا تعقل نسبته إلى النفوس البشرية مجال ويبدو ان السبب يرجع إلى العقيدة قبل أي شيء آخر فان المفكرين والعلماء الذين لم يكونوا يؤمنون بوجود الحياة الأخرى للإنسان ثم آمنوا بما رأوا في تجارب ومشاهدات لا تحصى ما يدل على استمرارها لا يريدون ان يحملوا أنفسهم على الأيمان بكائن آخر غير منظور يمكن ان يدخل في كثير مما رأوه وحسبوه من أفعال الموتى كرفع الأسرة، ومن عليها وجلب المواد عبر آلاف الكيلو مترات وتحويل الصورة التي يتمثل بها من فتاة حسناء

(١) سورة سبأ، الآية: (٥٤).

مثلاً إلى صورة ذات أظافر وأنياب^(١) لقدرته على التشكل وهكذا.

إن عشرات الشواهد التي يمكن ان يصدق الإنسان: انها لقاء بالموتى كانت تتحدث فقط عن استمرار وجودهم واكتشاف أخطائهم، والندم عليها والتألم والتوصية بالأيمان والاستقامة والتواضع والتوبة والاستغفار وفيها ما يوصى^(٢) بالكف عن اعتبار المسيح ابناً لله أو إلهاً وإنه ليس إلا رسول وني وإنسان عظيم لا يجاوز كونه عبداً لله سبحانه^(٣) ولذلك نرى: ان تلك الأفاعيل الاستعراضية والبهلوانية كالتي ذكرناها في هامش سابق لدى الاستدلال على القوى والقابليات المتفوقة عند الجن وكالتي يقوم بها دانييل هيوم وارمولا جيف ونظائرها هي من أعمال شياطين الجن المارجي خاصة، وان أصحابها -علموا ذلك أم لم يعلموا- سحرة لا أكثر وإن بعض ما سموه أرواحاً مرشدة، أو ملهمة سواء بالجللاء السمعي أو البصري أو بالكتابة التلقائية ليست أيضاً إلا شياطين ألا إنها أثقل وزناً وأكثر تعقلاً وأناةً وأبعد أهدافاً مما هي تلك المصحرة أو الصريحة^(٤) بهويتها من صغار وسفهاء الشياطين^(١)

(١) راجع ثلاثون سنة بين الموتى للدكتور ويكلاند تعريب الدكتور علي عبد الجليل راضي.

(٢) مطول الإنسان روح لا جسد م ٣ ص: (٨٨٣-٩٥٠) المبحث الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس.

(٣) كولن ولسون: ما بعد الحياة ص: (١٤٠).

(٤) سنفرد لذلك بحثاً خاصاً ان شاء الله.

(١) من قبل جاء في الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) في رسالة يوحنا الأول الفصل

الرابع ص: (٤٢٧) (أيها الأحياء لا تصدقوا كل روح بل اختبروا الأرواح هل هي من الله

٢٩١ في الدين والعلم والحياة والإنسان
ولا أكثر دلالة على ما قلنا من إنها انتهت في تعاليمها إلى هدم المنطق
والدين والأخلاق أو انتهت لدى البعض إلى المس والاستحواذ... وهو
الموضوع الذي تهيأ لنا الآن بعد ما تقدم من حديثنا عن الجن والشياطين
في القرآن الكريم ولدى الفلاسفة وتأشيراً لدى الباراسايكلوجيين
وأصحاب الروحية الحديثة ان ندخل في الحديث عنه....

ان هذا الموضوع خاصة هو مبرر محاضرتي عن الجن في مؤتمر طبي،
لأن الأيمان بدخول الأرواح كعامل من عوامل الجنون أو افتراض ذلك
لم يرد إلا لدى عدد محدود من الأطباء حتى الآن كما سيأتي - وإن كان
بعضهم منظوراً- ولكن ذلك ما كان ليتمكن إلا بعد ما قدمناه .

المس والاستحواذ

قال تعالى: (إن الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي
يتخبطه الشيطان من المس)^(١) والآية واضحة من خلال الصورة المشبه
بها: في ان للشياطين قدرة على مس الإنسان وجعله متخبطاً^(١) وقد
رأى بعض المفسرين ان هذا التشبيه (من حيث الصورة المشبه بها) جارٍ

لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم)، وجاء في القرآن: (ومن أظلم ممن افترى على
الله كذبا، أو قال أوحى إلي، ولم يوح له شيء)، الأنعام، الآية: (٩٣)، ان بعض هذه
الأرواح كانت وراء الدعاوى التي عرفها التاريخ للمتنبئين وأدعياء البابية والمهدوية.
(١) سورة البقرة، الآية: (٢٧٥) .

(١) التخبط من الخبط وهو المشي على غير استواء تقول العرب: خبط البعير إذا اختلت
جهة مشيه.

طبقاً لما يعتقدُه الناس من ان المجنون ممسوس من الشيطان دون أن يعني ذلك إقراراً من القرآن الكريم أو اعترافاً بوجودها (أعني هذه الصورة) في الواقع.

وقد ناقش السيد صاحب الميزان (رحمه الله) ذلك فقال: (إن الآية وإن لم تدل على أن كل جنون من الشيطان لكنها لا تخلو من إشعار بأن من الجنون ما هو بمس من الشيطان، وأنه تعالى: أجل من أن يستند في كلامه إلى الباطل، ولغو القول بأي نحو كان إلا مع إبطاله، وردده على قائله... وقد قال تعالى: في وصف كلامه: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)^(١).

ورد على من يرى: ان فسح المجال للشيطان ليتصرف بالإنسان، ويذهب عقله ينافي العدل. بأنه لا يختلف عن فسحه المجال للعوامل المرضية الأخرى، وبأن الأشكال يرد لو أبقى سبحانه لدى ذهاب العقل: التكليف وذلك منتف دون شك^(٢)..

والذي ينبغي ان نعرفه: بأن الباب لتصرف الشيطان على هذه الصورة أو غيرها ليس مفتوحاً ففي الحالة العادية والطبيعية لا سلطان للشيطان - كما تقدم - في غير الدعوة التخاطبية والوسوسة...

لكونه في عالم مفصول عن عالمنا وانما يحصل ذلك في حالات معينة

(١) سورة فصلت، الآية: (٤٢).

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، م: (٢)، ص: (٤١٢)، وما بعدها.

٢٩٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان

فقط. منها ما هو لخلل أو استعداد تكويني، ومنها ما يكون الإنسان طرفاً فيه كطلبه هو نفسه الصلة بالأرواح كما سبق أن ذكرنا.

إن الأمر يجري إذاً ضمن قوانين العلاقة بين الأسباب والمسببات ومنها قوانين الصحة والمرض والأثر الوضعي للأفعال الإنسانية الاختيارية فشأنه شأن الأسباب الطبيعية الأخرى التي تسعى إلى الإنسان أو يسعى إليها مما لا يرى أحد من الناس فيها أشكالاً أو منافاةً...

إن الأقدار وما يحى منها وما يقضى وما يمضى كلها وهذه منها تجري ضمن قانون العلاقة بين الأسباب والمسببات بما فيها ما كان عن اختيار أو اقتران غير مقصود في ما بينها ولان الله سبحانه: هو خالق الأسباب وما ينتج عن العلاقات بينها فهي تنتهي إليه وجوداً وأثراً، نسبنا ما يحدث بها من التقديرات وما يحى إليه دونما أشكال وبذلك فسرنا القول بالبداء كما يراه أهل البيت عليهم السلام^(١) فسبحانه وتعالى عن المباشرة وسبحانه وتعالى عن المزايلة والغياب... وبها يتضح ان لا مجال للأشكال بعدم العدل في ما يصيب الإنسان من التخبط.

ولم يتحدث الفلاسفة عن المس والاستحواذ من قبل شياطين الجن المارجيين، وإن تحدثوا كما ذكرنا عن خستهم ودنائتهم، وحبهم للشر وذلك لا يتصور إلا - مع القدرة في ظروف معينة- على ممارسة علاقة سلبية بالإنسان أمكن تعرفهم عليها كما هو مفروض... وذلك ما سبق

(١) راجع عدنان البكاء، الإمام المهدي المنتظر وأدعياء البابية والمهدوية، ص: (٢٣١) -

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٢٩٤
ان تحدثنا عنه.

وقد ذكر صدر الدين شيئاً من ذلك - كما مر - وإن لم يكن
بالصورة التي تصل إلى الهلوسة والجنون.

لكن الذي ينبغي التنبيه إليه انه لا يشترط في المس والاستحواذ في
درجة منهما ان يكون صاحبهما فاقداً للموازن المنطقية من كل جهة
فقد يكون طبيعياً - كما يبدو للناس - إلا من علاقته بالروح الماس او
المستحوذ او انقياده إليه وقناعاته بمنطقه وتسويلاته وانفعاله بإيجاءاته قال
تعالى: (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله)^(١).

لكن أصحاب الروحانيات والطلاسم والأوراق واسرار الحروف
آمنوا بإمكانية استحواذ الجن بالصورة الأولى بل ذلك لديهم من
المسلمات ويبدو ذلك كما أشرنا واضحاً من خلال ذكرهم لسبل
التحرز من شياطين الجن لمن يريد الصلة بعوالمهم، وذكرهم طرقاً لدى
حصول التشابك معهم او التداخل بينه وبينهم - لطردهم او كما
قالوا- لقتلهم وحرقتهم لدى إصرارهم على العدوان بالإيذاء او تسبب
الجنون وامثال ذلك.^(١)

أما الباراسايكولوجيون والباحثون في الروحية الحديثة فقد تحدثوا
عن الجن: على انهم النفوس البشرية المنتقلة إلى العالم الآخر لاغير،
ويتطابق ذلك مع رأي القسم الثاني من الفلاسفة ومنهم أخوان الصفاء

(١) سورة المجادلة، الآية: (١٩).

(١) أبو العباس احمد بن علي، منبع أصول الحكمة، ص: (١٧٣) و ص: (١٩٥).

وما نقله صدر الدين الشيرازي كما مر عليك ...

ويبدو أنهم لم يضعوا في حسابهم الجن المارجي وقدرته على التشكل بالصور المختلفة بما فيها الصور البشرية^(١) وبراعته في الخداع والادعاء طبقاً لتوقعات المتصلين به، ولذلك نرى أن كثيراً منهم قد خدعوا في بعض أو كل مشاهداتهم التي حسبوا أنها كانت لنفوس بشرية.

وقسموا هذه النفوس - كما فعل الفلاسفة - من قبل إلى مرتبتين:

الأولى: المرتبة العليا أو الراقية كما سموها وقالوا: ان هذه المرتبة من النفوس نبيلة وأخلاقية تظهر عليها صفتا الحنان والعطف وهي أيضاً ذات سعة في الوعي والآفاق والمعرفة وإن لم تكن جميعاً بدرجة واحدة بل تتفاوت من هذه الناحية تفاوتاً قليلاً أو كثيراً...

وقالوا: إن استحوذ أصحاب هذه المرتبة غالباً إيجابياً وسليماً^(١) وانها لا تستولي على الوسيط في الأكثر إلا بطلب نفسي أو عقلي منه

(١) يمكن أن لا يكون ذلك بالتشكل كما قالوا وانما بخلقهم الصورة عقلياً وبالإرادة المركزة - كما يفعل السحرة - في خيال المتصل بهم. وهذا ما فسر به السيد الطباطبائي في الميزان رؤية الأرواح أو ادعائها فلا دليل على انهم رأوهم موضوعياً وليس خيالياً.

(١) إيجابياً وسليماً بمعنى إنها لا تسبب اضطراباً نفسياً وعقلياً ظاهراً وألاً فإن بعضاً منها ينتهي بمن هو على صلة به ومريديه إلى فلسفة غنوصية خاصة تخالف في مفاهيمها وتعاليمها مسلمات الأديان السماوية وتناقض أحياناً المضروريات العقلية، فأقرأ في هامش قادم في الملحق ما أملته على ابن عربي في الفتوحات كما ذكر ذلك بنفسه .

فإذا ما فعلت ذلك فإنها ستقول في العادة شيئاً مفيداً أو ذا معنى.

وذكروا من هذه الأرواح ما أسموه: الحارسة أو الضابطة والملهمة والمرشدة، ومحدثه الخوارق...

وصلة الوسيط بهذه الأرواح قد تكون على مستوى الجلاء السمعي أو البصري، أو بهما معاً أو عن طريق الكتابة التلقائية أو الآلية كما سموها (بأن تستولي على يده فتكتب ما تريد) وقد تكون بلوحة الحروف الهجائية وقد يصل الاستيلاء حد أن تنطق بلسانه -دون إرادته منه مع وعيه- وبما لا يأتي في خاطره، أو مع فقدانه الوعي وبعده لغات أحياناً لا يحسن هو أي واحدة منها ويسمي العامة ذلك: اللزم وما أكثر ما ذكروا من أمثلة لهذه الطرق من التواصل مع الأرواح قديماً وحديثاً ابتداء من عالم الكهنة والعرافين في معابد بابل ومعبدي أمون وعين شمس في مصر وكهنة وعرافين ددونا ودلفي في اليونان وعين دور في إسرائيل طبقاً لما ذكرته التوراة، وانتهاء بعالم المتصوفة والرهبان ومستحضري الأرواح في جمعيات أمريكا وأوروبا وأحاء العالم الأخرى و ربما سنتحدث عنها في موضوع مستقل ونقدم نماذج مما سجلوه عنها.

الثانية: المرتبة السفلى أو المنحطة

والأرواح في هذه الرتبة - كما قالوا - شريرة ومؤذية ترتبص بالإنسان حتى إذا ما خرقت الحاجز الكوني الطبيعي بينها وبينه مسته وحاولت امتلاكه والسيطرة عليه...

قال أيمانويل سويندبرغ (١٧٤٤) الذي كان مهندساً وجيولوجياً ثم ترهبين وتصوف وادعى سياحات في العوالم الأخرى أشبه ما يكون فيها بابن عربي الطائي وكان قد عانى فترة من أذى هذه الأرواح في الحلم واليقظة ألا أنه تلاءم وتكيف معها حتى استعاد توازنه قال: (إن كائنات المرتبة السفلى شريرة وحاقدة إلى درجة أنها تعامل الإنسان ببغضاء مميتة ولا تبغي شيئاً سوى تحطيمه جسداً وروحاً وتتميز بإصرارها على التدمير وقدرتها على تسبب القلق، والألم، ورغبتها في تحطيم الوعي وميلها للتنمر والتهديد والكذب ومهارتها الفذة في المكر والخداع...

ويدهش سويندبرغ على نحو خاص من كره أرواح المرتبة السفلى للدين وتلفظها بأكثر ملاحظاتها بذاءة عند ذكر ما يتعلق به^(١)، وتحدث عدد آخر من الباحثين فاتفق مع ما ذكره سويندبرغ من حيث الآثار الوضعية للصلة بالأرواح من هذه المرتبة ومنهم الطبيب والمحلل النفسي ولسون فان دوسن كما سيأتي والمهندس الأمريكي هارولد

(١) كولن ولسون ، ما بعد الحياة ، تعريب د. السعدوني، ص: (٢٠-٢١).

شيرمان^(١) والدكتور رؤوف عبيد^(٢) والدكتور علي عبد الجليل راضي^(٣) والكاتب الإنكليزي كولن ولسون^(٤).

أساتذة أكاديميون وأطباء كبار يؤكدون وجود المس والاستحواذ

وأهم من ينبغي ان نصغي إليهم في هذا الموضوع خاصة في بحثه، وتحقيقه، وأولى من نعتد بأرائهم وما وصلوا إليه من نتائج وقناعات جماعة من الأساتذة والعلماء الجامعيين، وبخاصة الأطباء النفسيين من هؤلاء فهم الذين يمكن ان يعطوا في دراساتهم وبحوثهم عن: أذى الأرواح الشريرة أو الذوات اللامنظورة المستحوذة على الإنسان وما تسببه من أمراض نفسية، وعقلية: القول الفصل والرأي الحاسم ولا سيما وان بينهم من هو منظور علمياً وبأعلى المعايير.

لقد استطعت وخلال قراءتي أن أحصي إحدى عشرة شخصية علمية وطبية كبيرة من أساتذة الجامعات وأعضاء المجمع العلمية يشهدون بهذه الحقيقة التي لا يزال يتنكر لها أغلب العلميين والأطباء في مجتمعنا.

(١) في كتابه حواسك الزائدة في خدمتك، تعريب الدكتور علي عبد الجليل راضي ص: (٣١٣).

(٢) في كتابه مطول الإنسان روح لا جسد، م ١ ص: (٣٢٩)، وما بعدها، وص: (٨٢٣)، وفي م: (٢)، ص: (٣٧٢)، تحت عنوان الكائنات الشريرة تحب النزول الأرضي .

(٣) في كتابه الروحية عند ابن عربي، ص: (٤٩٨)، وص: (٥٠٠)، ومصيبة الوساطة.

(٤) المصدر السابق.

لقد فرضت ظاهرة الهلوسة والمس والاستحواذ نفسها عليهم فقد أصيب أحدهم نفسه بالهلوسة وقلق أول مرة ثم شغل بدراسة هذه الذات المستولية عليه والمتكلمة معه كلاماً لا يسمعه غيره فقارن بينها وبين شخصيته ومكوناتها فكرياً وثقافة وأخلاقاً ومزاجاً ورغبات ومشاعر وذكريات وصوتاً وتعمق بما يمكن ان يكون خبيئ في عقله الباطن فلم يجد بينه وبينها أية علاقة.

وهذا ما فعله الآخرون مع مرضاهم فقد قارنوا ولفترة مديدة بين الشخصية الماسة وبين شخصية المريض فلم يجدوا بينهما أية صلة بل استطاع بعضهم معرفة الشخصية الماسة وتأكد من واقع وجودها من السجلات الخاصة بالأحوال المدنية... ومن هؤلاء العلماء:

١،٢- د. ريشار هودجسون الأستاذ بجامعة كامبرج والأستاذ جيمس هيزلوب أستاذ المنطق بجامعة كولومبيا.

فقد درسا لمدة اثني عشر عاماً: موضوع الصلة بالأرواح وأصدرا نتيجة أبحاثهما في كتاب جاءت فيه العبارة التالية: (إن عدداً من المجانين الذين يجسسون في المستشفيات ليسوا مصابين بأمراض عقلية بل مملوكين لأرواح قد استولت عليهم واستخدمتهم)^(١).

وذكر الدكتور موفق الحمداني:

٣- إن الأستاذ كان أب من جامعة أكسفورد يقول: انه يؤمن إيماناً

(١) محمد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم، ص: (٣٦٥).

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٣٠٠
عميقاً بالأشباح الشريرة وهو يعتقد: ان كثيراً من المرضى في المستشفيات هم ليسوا مرضى عقليين حقاً بل تقمصتهم الشياطين^(١).

٤- ومن هؤلاء الدكتور رالف ألسون وهو طبيب ومحلل نفساني كان يزاول عمله في سانتا كروز بولاية كاليفورنيا ألف كتاباً عن الشخصية المتعددة، ويظهر في كتابه هذا واضحاً أنه قد توصل من خلال مرافقته لمرضاه وللمجموعة منهم خاصة منهم الفتاة كاري وصوفيا ثم ميشيل إلى القبول بالإمكانية الحقيقية للتملك وفي عام (١٩٧٢) والسنوات التالية لها صادف ولسون حالات شخصية متعددة لا يمكنه أن يقتنع بأن الشخصية الأخرى فيها كانت الأنا الأصلية وقال بعد ان قدم تفصيلات دقيقة لحالات مرضاه الشخصية الأصلية والأخرى المملوكة قال: (على الرغم من كل جهودي لم استطع إن أجد تفسيراً أكثر جدارة بالتصديق بوجوده من نظرية الأرواح وقال ليس شيء من أدبيات الطب النفساني يفسرها كما أرى)^(٢).

٥- ومنهم الدكتور جوليان جينز وهو محلل نفساني من جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية قام بدراسة الهلوسة السمعية بعد تعرضه شخصياً لإحداها... فقد كان يضطجع على أريكة عندما سمع صوتاً يتحدث في الهواء فوق رأسه وأنتابه القلق بشأن صحته... ولكن جينز اكتشف وهو أمر أراحه كثيراً... ان زهاء (١٠) من الناس

(١) الحمداني: السحر وعلم النفس ص: (٣٩).

(٢) كولن ولسون، ما بعد الحياة، ترجمة فاضل السعدوني، ص: (٢٢٠-٢٢١).

٣٠١ في الدين والعلم والحياة والإنسان
يتعرضون إلى هلوسات من نوع معين وإن ثلثاً منها يتخذ شكل أصوات
شبحية، وقد أخبرته ربة بيت شابة معافاة تماماً بأنها تتحدث طويلاً مع
جدتها المتوفاة... وقد شرح تفسيره لذلك في كتاب أسماه: (أصل الوعي
في انهيار الدماغ الثنائي) صدر عام (١٩٧٦) ذكر فيه ان ما يمثل (الأنسا)
في الدماغ هو الجانب الأيسر أما الجانب الأيمن فمن يحتله دائماً - كما
يبدو - شخص غريب تماماً، وان الأصوات التي تحدثنا تأتي دائماً من
الجانب الأيمن إلى الأيسر ويقول: (إن أصحاب هذه الأصوات عند
المصابين بالفصام يتحدثون ويهددون، ويلعبون، وينتقدون ويستشيرون
وغالباً ما يتم ذلك عبر جمل قصيرة وهم يلومون ويواسون ويخدعون
ويأمرون ويلعنون في بعض الأحيان ببساطة عن أي شيء يحدث لحظتئذ
وهم يصرخون وينتحبون وينخرون ويتحولون من الهمس الرقيق إلى
الصراخ الحاد وغالباً ما تتخذ هذه الأصوات صفة مميزة معينة مثل
التحدث ببطء شديد أو التقطيع أثناء الحديث، أو السجع أو الأيقاع بل
حتى التحدث بلغات أجنبية، وقد يكون هناك صوت واحد معين
والغالب بضعة أصوات وأحياناً عدة أصوات)^(١).

٦- ومنهم الدكتور آدام كرابتري:

وهو طبيب نفساني يعمل في مدينة تورنتو في كندا ابتداءً عمله سنة
(١٩٦٦) وكان شأنه شأن أغلب الأطباء النفسيين صادف ثماني حالات
-تحدث عنها في كتابه الإنسان المتعدد-: (يسمع المرضى من أصحاب

(١) كولن ولسون، ما بعد الحياة، ص: (١١ و١٤ و١٦).

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٣٠٢
هذه الحالات فيها أصواتاً داخل رؤوسهم، واستطاع كرايتري ان يحاور الروح الماسة في بعض هذه الحالات أو كلها، وان يتعرف على هويتها ويتأكد عن طريق سجل الأحوال المدنية من صحة ذلك وانتهى إلى إقناع هذه الروح الماسة أو المستحوذة -من خلال الحوار- بالمغادرة وتحرير الأشخاص المبتلين بها منها^(١).

٧- ومن هؤلاء الدكتور ناندور فودور (١٩٦٤)

وهو أستاذ في المعهد التدريبي للتحليل النفسي، وعضو في أكاديمية العلوم بنيويورك وفي الجمعية النفسية بواشنطن..

وهو مجري المولد والنشأة ولكنه أمضى حياته بين الولايات المتحدة الأمريكية، وإنكلترا... وقد حصل على دكتوراه العلوم من جامعة بودابست، وحصل على دكتوراه في الفلسفة بعدئذ من لندن سنة (١٩١٧) وأصبح محلاً نفسياً واتصل بسيجموند فرويد...

وصادف ان حضر في الولايات المتحدة جلسة روحية لوسيط يدعى وليام كارتوز فسمع أحد أقاربه الميتين يحادثه باللغة الهنغارية وبمميزات معينة كانت من خصائص هذا القريب في حياته والذي لا يعرف الوسيط عنه شيئاً كما كان لا يعرف حرفاً من اللغة الهنغارية فاجتذبه الحادثة: إلى دراسة الظواهر الوساوية، وعمل لمدة سنتين في لندن في المعهد الدولي للبحث الروحي...

(١) كولن ولسون، نفس المصدر والصفحات.

٣٠٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان

وكتب عدة تقارير عن تشخيص حالات مس أو استحواذ مما كان في وقتها يعد جديداً على علم الأمراض النفسية^(١).

٨- الطبيب النفسي أ. وستيفنز

وقد صادف حالة استحواذ كامل... فاستطاع التعرف على الروح المستحوذة من خلال الحوار معها... ثم طردها بالاستنجاد بروح خيرة من الأرواح التي كانت حاضرة وقد استطاع التعرف على شخصيتها أيضاً... وقد خضعت الواقعة لتحقيق علمي طويل تولته هيئات دولية... وممن قام بالتحقيق وأكد الواقعة التي كتبها الدكتور أ.و. ستيفنز بعنوان (معجزة واتسيكا) الدكتور ريتشارد هودجسون فأكد صحة الواقعة كاملة^(٢).

٩- ومنهم الدكتور كارل ويكلاند عضو الجمعية الطبية في شيكاغو، والينوى، عضو الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم (المجمع العلمي الأمريكي) سنة (١٩٢٢) وقد ظل مكباً على دراسة أثر الأرواح الماسة في الأمراض النفسية والعصبية والعقلية مدى ثلاثين عاماً، ونشر كتاباً بعنوان: (ثلاثون عاماً بين الموتى) اظهر فيه: (ان تأثير الأرواح الضالة هو سبب بعض الحوادث الغامضة التي لا يمكن تفسيرها في الحياة الأرضية، وسبب جزء كبير من بؤس البؤساء، وان الحياة الطاهرة

(١) الدكتور رؤوف عبيد، مطول الإنسان روح لا جسد، م: (١)، ص: (٣٣٩).

(٢) نفس المصدر، م: (١)، ص: (٨٢٢-٨٢٣).

والنية السليمة والذكاء الشديد لا تكفي للوقاية من المس الروحي^(١).

١٠- ومن هؤلاء الدكتور تيتوس بول عضو الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم (المجمع العلمي) ووكيل جمعية البحث الروحي الأمريكي. وقد جاءت نتائج أبحاثه التي واصلها مدى عشرين عاماً ولخصها في مؤلف له أصدره في عام (١٩٣٢) عنوانه: (تجارب في علاج العقول المرضية) مؤيدة لبحوث د. ويكلاند^(٢).

١١- ومنهم الدكتور بورتر فيليبس الأخصائي الكبير في الأمراض العقلية ومدير مستشفى دلام. الذي أستمع من هانن سوافر عن عجائب الشفاء الذي يحصل على يد ويكلاند من الجنون وحضر محاضرة له حين جاء إلى لندن عن المس ولم يعترض بشيء إلا على التعويد والتعزيم^(٣).

١٢- ومنهم الدكتور ولسون فان دوسن وهو طبيب ومحلل نفساني.. كان يعمل في مستشفى مندوكينو الحكومي بولاية كاليفورنيا.

وقد قضى دوسن: ستة عشر عاماً يراقب تأثيرات الهلوسة وانتهى إلى بيان نتائج أبحاثه في فصل بعنوان: (وجود الأرواح في الجنون) ضمن كتابه: (وجود العوالم الأخرى) يقول فان دوسن: (إن أغلب المرضى المصابين بالهلوسة يفضلون إبقاء تجاربهم لأنفسهم لأنهم يدركون: بأنها ستخذ دليلاً ضدهم باعتبارهم مجانين).

(١) المصدر نفسه، م: (١)، ص: (٣٢٩-٣٣٠).

(٢) المصدر نفسه، ونفس الجزء، ص: (٨٢٣).

(٣) قصتي العظمى لهانن سوافر، ترجمة د. رؤوف عبيد، ص: (٣٥٢)، ط ١.

٣٠٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان

ولكنه استطاع عن طريق المرضى الذين تعاونوا معه أن يجري حوارات طويلة مع الأصوات التي يسمعونها بصورة مباشرة، وكان يسجل أسئلته وأجوبتها. فإن المرضى كما يقول فان دوسن يحسون كما لو أنهم على اتصال بعالم آخر أو مرتبة أخرى من المخلوقات وأكد كل المرضى بأن للأصوات نوعية الأصوات الاعتيادية. وأن التجارب التي وصفوها كانت مختلفة تماماً عن الأفكار والخيالات ويدرك المرضى في الحال أنهم يعانون من تجارب لا يشاركونهم الآخرون فيها.

الأرواح عليا ودنيا

ويتفق د. فان دوسن مع ما تحدث به ايمانويل سويندبرغ في تقسيم الأرواح إلى مرتبة عليا ودنيا... ذلك أن مرضاه يتعرضون إلى نوعين متميزين من الأصوات وهو يتحدث عنهما باعتبارهما يمثلان: المرتبة العليا والدنيا.

فأصوات المرتبة العليا تهدف إلى مساعدة المريض وهي تبدو موهوبة وحساسة وحكيمة ومتدينة على نحو غريب ويمكنها التواصل مع مشاعر المريض الداخلية بصورة مباشرة وتتميز بأنها قلما تتحدث في حين ان كائنات المرتبة السفلى تثرثر بلا انقطاع وتشكل أصوات المرتبة العليا الخمس تقريباً أما أصوات المرتبة السفلى فتشبه أصوات المتبطلين أو المخمورين الذين يمزحون ويزعجون لمجرد الاستمتاع بذلك انهم يقترحون على المريض تصرفات لا أخلاقية ثم يوبخونه لتفكيره فيها، ويسرقون منه ذكريات وأفكاراً ويبنون عليها. وحين يعثرون على نقطة ضعف في الوعي يعملون عليها بلا كلل.

ويقول فان دوسن: إن مفردات أصوات المرتبة الدنيا وأفكارها محدودة جداً ولكنها تمتلك إرادة قوية تستعصي على التدمير وهي تحاول ان تحتل كل زاوية أو شق من خصوصيات المرء، وتؤثر على كل ضعفٍ أو اعتقاد لديه وقد تزعم امتلاك قوى هائلة فتهدد المريض، أو تزجي له الوعود، وقد تتنبأ له بأمور فإذا لم تحدث أشارت إلى أي أمر مشابه حدث في العالم ونشرته الصحف على: أنه المقصود....

ويرى: ان كل ملاحظات سويند برغ حول تأثير الأرواح الشريرة التي تدخل وعي الإنسان تؤكد أبحاثه^(١).

الأسباب المؤدية إلى المس والاستحواذ

ذكرنا في ما مر من البحث: ان الله سبحانه لم يجعل لإبليس والشياطين ابتداءً سلطاناً على عباده من البشر من الناحية التكوينية، وانهم رغم ما يملكونه من القوى والقابليات الخارقة التي تحدثنا عنها - معزولون بحكم خلقهم ورتبة عالمهم - وقصارى ما يملكون حين يكون الإنسان في حالة سوية من الناحية الصحية البدنية والنفسية: الإيحاء والوسوسة إليه عقلياً أو تخاطرياً شعر بذلك أو لم يشعر.. فكيف إذاً يمكن أن نتصور قدرتهم على المس والاستحواذ؟.

ذكر العلماء والباحثون في هذه العوالم وهو ما أكدته التجارب التاريخية والواقعية: ان ذلك لا يكون إلا في طول أسباب أخرى تسبقه

(١) كولن ولسون، المصدر السابق، ص: (١٦-١٩).

وقد صنفنا إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: أسباب بدنية موروثية أحياناً، وطارئة أحياناً أخرى بصورة تتيح للشياطين إقامة الصلة بالإنسان ومسه والاستحواذ عليه.

قال العلامة ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ): (أما المجانين فنفسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لفساد امزجتهم غالباً، وضعف الروح الحيواني فتكون نفسه غير مستغرقة في الحواس، ولا منغمسة فيها بما شغلها في نفسها من ألم النقص، وربما زاحمها على التعلق به أي بالبدن روحانية أخرى شيطانية تشبث به، وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخيُّط)^(١).

وقال الدكتور الطبيب كارل ويكلاند (تختلف الظروف الأرضية التي تسبب هذا التداخل (يعني بين البشر والأرواح الشريرة) فقد تكون من أثر حساسية طبيعية أو انهيار الجهاز العصبي، أو من أثر صدمة مفاجئة... والاضطرابات الفيزيائية تقود للمس لأنه عندما تقل القوى الحيوية تكون المقاومة أقل، وبذلك تصبح الأرواح المهاجمة أكثر تمكناً).

وقد نقلوا عن الروح الذي يرمز لنفسه كما يقول د. رؤوف عبيد بأسم (هوايت راي) أي الشعاع الأبيض: انه أجاب حين سألوه عن السبب وراء إصابة الناس في عقولهم فقال: (يرجع ذلك أحياناً على

(١) مقدمة ابن خلدون ص (٨٦).

ويعلل بعض المكاشفات والاختبارات لدى الممسوسين والمجانين بصلة هذه الأرواح به وهي من ينطق على لسانه أحياناً وذلك ما تثبته الروحية الحديثة.

أرضكم إلى الوراثة، وأحياناً أخرى يرجع إلى أمراض مختلفة أو إلى إصابات المخ ومن ناحية أخرى فهناك الأفراد الموهوبون بموهبة وساطية ولكنهم لا يتحون لحلفائهم من المناطق العليا أن يحصنوا لهم ذلك الباب المفتوح الذي يتمثل بالموهب الوساطية ويعني بها: (القابلية الخلقية على التواصل مع عالم الأرواح فيصابون بالمس من روح شريرة).

قال: (والوراثة لا تأتي بالتأكيد من عالمنا وتلك التي تتسبب عن المرض لا عن الوراثة من الممكن بل من الواجب علاجها في عالمكم)^(١).

أما القسم الثاني: من المس والاستحواذ فيأتي فيما يقول، هوايت راي: كنتيجة لعملكم، أو لتصرفكم انها ترجع إلى الجهل بالقوانين الطبيعية فأنتم تعلمون أنه نظراً لوجود أناس في عالمكم بعقلية منحطة أو أدراك ناقص فعليكم أن تغلقوا أبواب بيوتكم في وجوههم لئلا يدخلوها ويسببوا لكم إزعاجاً أو ضرراً. ولكن لا تعرفون كيف تحمون أنفسكم من أولئك الذين لهم عقليات منحطة، أو إدراك ناقص في عالم الروح فتبقون أبوابكم مفتوحة بسبب الجهل معرضة إلى جميع اللصوص غير المنظورين الذين قد يفدون عليكم، ويتلفون عقولكم)^(٢).

أنا لا نقول لكم إن كل شيء رائع في عالمنا فعلى العكس من ذلك

(١) نفس المصدر، م: (١)، ص: (٨٢٤).

(٢) نفس المصدر، م: (١)، ص: (٣٢٩).

٣٠٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
يوجد في المناطق السفلى من عالمنا أولئك الذين لم يستطيعوا أن يرتقوا
في عالمكم^(١).

ولكن من هؤلاء الذين يتركون أبواب أنفسهم أو عقولهم مفتوحة
للأرواح السافلة عدا أصحاب الوساطات الحاصلة خلقة أو بسبب
مرضي طارئ؟.

انهم في ما يبدو كما عرفنا سابقاً الذين يهتكون بأفعالهم وسوء
تصرفهم البرزخ القائم طبيعياً بين عالمنا وعالم الأرواح... وهؤلاء كما
أثبتت الشواهد التي لا حصر لها هم:

١- ممارسو السحر: فقد مر عليك ان الفيلسوف الفخر الرازي
(ت ٦٠٦هـ) ذكر: ان الثالث من أنواع السحر الثمانية هو الاستعانة
بالأرواح^(٢).

ويكون - كما ذكر المؤلفون فيه - بالاستنزال وبالاستحضار،
والتسخير، والاستخدام، بطرق خاصة عندهم^(٣) وهؤلاء - كما تشهد
كتبهم - عارفون بما قد ينتهي إليه عملهم، ولذلك يقومون بما يرونه
تحصيلاً لهم - بصورة أو بأخرى - وبناءً على ذلك يكون الإنسان هو
الذي يدعو هذه الأرواح للتواصل معه، وهو من فتح أمامها الباب لمسه
والاستيلاء عليه.

(١) د. رؤوف عبيد، مطول الإنسان روح لا جسد، م: (١) ص: (٣٢٩-٣٣٠).

(٢) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، م: (٣-٤)، ج: (٣)، ص: (٢١٠)، ط: (١).

(٣) الكشناوي، الدر المنظوم في السحر والطلاسم والنجوم، ص: (٣٣).

قال الفيلسوف الصوفي سويندبرغ المتوفى سنة (١٧٤٤): إن الأرواح لا تعرف عادة انها مع الإنسان، وذلك لأن ثمة نوعاً من الحاجز بين هذه الكائنات ووعي الإنسان الخاص فإذا ما اجتازت الأرواح هذا الحاجز أو سمح لها بالمرور من خلال عبث الإنسان بالسحر عندها فمن المحتمل أن تصبح مصدر إزعاج^(١).

٢- وقد يكون تحضير الأرواح في البداية ساذجاً ودون أي غرض عدا حب الاطلاع على هذا العالم والاطمئنان بوجود العوالم اللامنظورة المتمتعة بالحياة والفكر والمنطق كما نحن، ثم يغرى المتورط بعد ذلك بالتعرف عليها، والتعرف منها وسؤال هذه الكائنات التي لا تعرف هويتها ... بتصور انه قد فتح له باب من السماء للمعرفة المباشرة، ولما كانت بحكم رتبها الوجودية تقرأ أفكاره فان الأشرار أو الشياطين منها لا يبالون في ان يجروه بهذا الأسلوب أو ذاك إلى ما يسقطه في الفخ بما ينتهي غالباً جزئياً أو كلياً إلى خساره عقلاً ودينياً... وهذا ما حصل لبعض مستحضري الأرواح.

٣- وممن يتعرض لذلك اليوجيون والرهبان وبعض غلاة الصوفية بحكم العزلة والجوع والصمت والسهرة، وإيثار الظلمة بصورها اللامشروعة المستمدة أصلاً من البراهمة، والبوذيين بدعة إن إذابة الجسد ونوازه بصورة نهائية يحقق تطهير النفس وتخليها، وبذلك تحصل الاستفادة، والمعرفة المباشرة أو كما يعتقدون: التوحد مع الله سبحانه

(١) كولن ولسون : ما بعد الحياة ص (٢٠-٢١).

٣١١ في الدين والعلم والحياة والإنسان
وتعالى... وهو ما نهى عنه الإسلام، وإذا عرفناك ان الالتزام بهذه
الرياضات بصورها البالغة القسوة قد يطول عند بعضهم..

أدركنا إمكان أصابتهم بالمس والهلوسة لا للإرهاق النفسي،
والبدني وضعف الحضور والالتفات لشؤونهم الشخصية وحياتهم
الحسية والروحية والاجتماعية فقط مما يترك الباب مفتوحاً أمام الأرواح
المتطفلة^(١) بل ان الأساس في الخلوة عند البعض من هؤلاء -مسلمين
وغير مسلمين- ليس الارتياض على الأخلاق النفسية والعملية
الأسمى عبر عمليتي التخلية والتخلية شأن السالكين من أهل التقوى،
وانما التوسل بها للتواصل مع الكائنات اللامنظورة، واستدعائها عقلياً
وانتظارها نفسياً وحالياً، لان بالصلة بها -كما عرفوا- يتحقق ما
يؤملونه من صدور ما يسمونه الخوارق او كما زعموا: الكرامات...
والتي هي كما قالوا للناس وربما لانفسهم: دليل الولاية والقرب^(٢).

(١) وبهذا نعرف الحكمة وراء نهى الرسول ﷺ لعثمان بن مظعون (رضوان الله عليه)
والجماعة الذين معه عن الانقطاع والرهبنة وقوله ﷺ: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)
المعجم المفهرس م. رهب ص (٣١٢)، ونهى علي عيسى لعاصم بن زياد عن ذلك أيضاً
وقوله له: (يا عدي نفسه استهام بل الخبيث)، نهج البلاغة، ص: (١٠٢)، الكلام رقم
٢٠٩، مؤسسة النشر الإسلامي.

(٢) لاحظ ما كتبه (ول ديورانت) عما انتهى إليه اليوجيون الهنود: قصة الحضارة م: (٣-
٤)، ص: (٢٦٥-٢٦٦)، وما انتهى اليه رهبان النصارى نفس المصدر م: (١١-١٢)،
ج: (١٢)، ص: (١٧٠)، وما بعدها وقد دخل هذا المسلك بصورته وغاياته عالم بعض
الصوفية المسلمين قال أحدهم: (واعترلنا في مغارة عسى ان نكون من أولياء الله وأقمنا

ولما كانت الكائنات العليا تأنف ان تصبح وسيلة لغاية هابطة أو لا سمو فيها كانت كائنات المرتبة الدنيا هي من يتطفل ويبادر غالباً للإجابة، والصلة بهؤلاء حياً للعبث والإيذاء ولانها تقرأ أفكارهم ونوازعهم فانها تتقنع بالأسماء والصور التي يحبونها ويتوقعون الصلة بها وربما أغرتهم ببعض الاخبارات الغيبية وإحداث بعض الظواهر كتحريك بعض الأشياء المادية عن بعد أو جلبها إليهم... وكثيراً ما تنتهي بهم -وان لم ينتبهوا- بحكم حالهم الى ما هو في نظر العقلاء وأهل العلم هذيان وهلوسة... ولا أهمية ان تكون لهم هم وجهة نظر أخرى.

يقول الدكتور الكسيس كارل : (ان حالات معينة من الشعور تحدث تغييرات باثولوجية مرضية حقيقية فقد تعرض اكثر المتعبدين الكبار (يعني أهل الرهينة وغلاة الصوفية) لمتاعب سايكولوجية وعقلية^(١) .

وقد تحصل صلة الأرواح بهؤلاء ثم بعدها وبها المس والتلبس بسبب آخر هو الذي كان وراء انفتاحهم أصلاً عليها وان لم يكن باستدعاء مباشر وربما دخل ذلك بصورته العامة في الحديث عن ممارسي السحر على ان هؤلاء خصوصية تفصلهم

زمناً نقول : لعل في هذه الجمعة لعل في هذا الشهر فلم يفتح الله علينا، غيث المواهب العلية، للنفرى الرندي، ج: (١)، ص: (٢٧٥). قال السهرودي : (وكلما اكثر من ذلك كثر البعد من الله تعالى) عوارف المعارف ج: (٥)، من الأحياء ص: (١٢٣-١٢٤).
(١) الإنسان ذلك المجهول ص: (١٧٠) .

٣١٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
عنهم فهم ليسوا من بغاة السحر في الأصل ... وفيهم من لا يعرف انه
يلتقي من حيث الطريق والغاية معهم... وذلك ان اغلب السالكين
والمرتاضين يتوسلون بذكر الأسماء الإلهية بأعداد خاصة، وشروط معينة
لتحصيل فعاليتها وآثارها الوضعية في التصرف بالكون خيالاً وصورة
في جانب منه ، أو حقيقة في جانب آخر كالمجلوبات الروحية كما
يسمونها وتحصل باستخدام الجن..

يقول الشيخ ابن عربي : (فقد ينال التحكم في العالم بالهمة^(١))

(١) وهذا النوع من السحر لا صلة له بالأرواح وهو المصداق الاول والاهم من مصاديق
السحر... فان الخلوة، والرياضة القاسية خلالها بما فيها الصبر على الالتزامات الصعبة
والمؤذية سلباً وإيجاباً وتعذيب النفس والتدريب على (الذارانا) بلغة الیوجيين و (جمع
الهمة) بلغة المتصوفة تؤدي - شاء المرتاض او لم يشأ- الى امتلاك أساس السحر وملاكه
لان الإرادة المركزة، والايحائية العميقة بدرجة عالية متفوقة تخلق الصورة المطلوبة في
مخيلة الآخرين بل وفي مخيلة صاحبها فيرونها ويراهم خارجاً وموضوعياً رغم انها لا وجود
لها الا في خياله (يخيل إليه من سحرهم انها تسعى) وترتد على من لا يعرف ذلك من
السالكين السذج فيحسبها كشفاً في صورة وخرقاً في صورة أخرى ويتخذها دليلاً على
الولاية والقرب وبها ضلل كثيرون..

قال الشيخ ابن عربي : في فصوص الحكم ص: (٨٨-٨٩)، : (بالوهم يخلق كل إنسان
في قوة خياله ما لا وجود له فيها وهذا هو الأمر العام.. والعارف (كذا) يخلق بالهمة ما
يكون له وجود خارج محل الهمة ولكن لا تزال الهمة تحفظه ولا يؤودها حفظه أي حفظ ما
خلقته حتى اذا طرأ على العارف غفلة عن حفظ ما خلق عدم ذلك المخلوق) .
وبنفس التعليل للخلق والإعدام بالخيال والإرادة فسروا للاهيري ماهاسيا : (إيجاد القصر

المذهل الذي صنعه له باباجي ليلة وفادته عليه في جبال الهملايا الجرداء بأضوائه، وزخارفه، وفرشه، وتكايه، وجوقانه الموسيقية) حين فتح عينيه في الصباح فلم يجده ووجد الصحراء كما هي وهو يتوسد حجراً كان يتصوره في نومه إحدى الزرابي المبتوثة... قائلين له : (ان مادة الحلم تتماسك بواسطة العقل الباطن للنائم وحينما ينسحب ذلك الفكر اللاصق أبان اليقظة ينحل الحلم مع عناصره، وقد أبدع باباجي بعقله هذه الدار المنيعة وهو يضم ذراته معاً بقوة ارادته... ولما كان من المتعذر عليه ان يحافظ على تركيز ارادته طويلاً كان لا بد لهذه الصورة ان تنحل، وتتلاشى) راجع برمهنا يوجانندا فلسفة الهند : سيرة يوجي ص: (٣٤٦).

ويتفق العلماء وأهل التجربة على قدرة الإنسان على خلق الصور بالإرادة والإيحائية المركبتين فتبدو له وللآخرين كما لو كانت خارجاً ومن هؤلاء العالم الفلكي الفرنسي فلامريون (راجع محمد فريد وجدي: على أطلال العالم المادي ج: (٣)، ص: (٥٢)، ومحمد حسين الطباطبائي تفسير الميزان، م: (١)، ص: (٢٤٣-٢٤٤)، وسلامة موسى : أسرار النفس ص: (٨٠-٨١).

وقد حكى لنا ابن عربي : (كيف ان قوة خياله كان تجسد له محبوبه فيخاطبه ويصغي إليه ويفهم عنه ويبقى دون أكل ولا شرب لمدة طويلة ومع ذلك يسمن وكلما أراد الأكل وقف على طرف المائدة قائلاً: أأكل وأنت تشاهدني وهي صورة من صور الهلوسة دون شك كما صرح؟)، الفتوحات م: (٢)، ص: (٣٢٥).

والغريب انه ناقش إستناداً إلى مثل هذه الرؤى التي هي مكاشفاته عينها: الإمام أبا حامد الغزالي في نفيه لإمكان رؤية الله تعالى بجوارح وأنفعالات مجسماً يضحك، ويشبش كما يرى هو (الفتوحات، م ١، ص: ٣٨٩)، وبهذا الفهم قرأ الآية من المؤمنون (ومن يدع مع الله ألهاً آخر لا برهان له به فأنما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون)، فرأى ان لها مفهوماً مخالفاً ينفي الحساب عن دعا إلهاً آخر له فيه برهان !!! (الفتوحات م ١

٣١٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
من خواص الأسماء التي تكون عنها الآثار التكوينية عند من يكون
عنده علم ذلك مع كون ذلك الشخص مشركاً بالله^(١).

ولما كانت الأسباب المباشرة التي تأتي وراء الأسماء طويلاً - كما
شاء الله - بحسب العمل وبحسب الرتب المختلفة للكون هي الأرواح
السفلية منها خاصة حتى لو كانت شيطانية ولما لم يكن هؤلاء وراء
حصول ما يطلبونه من الآثار حصانة أو عصمة تمنع عنهم الآثار السلبية
للصلة بهذه الأرواح فإن من المتوقع ان يصاب بعضهم بالمس، وان
يحصل لديه التخبط والجنون... رغم ان فيهم من تصدر عنهم ما
يسمونه الخوارق، لأنها آثار وضعية للعمل أو للأسماء ولا علاقة لها
بعقل ولا جنون ولا بكفر ولا أيان..

ص ٢٠٤)، جاهلاً ان البرهان لا يمكن أبداً ان يقوم على آله آخر لان الأزلي سبحانه عين
الحق أو عين الوجود الصرف الذي لا يتكرر، ولا ينقسم، ولا يتعدد، ولا يتفاوت، ولا
يتحول... وكل ما سواه ماهية مخلوقة مركبة ممنوحة الوجود منه فلا تقارنه ولا تكون ثانياً له
لان ما يقوم بشيء لا يكون عدداً مقارناً له.

وبما تقدم يتضح لنا ان لا فرق في حدوث ما يسمى الخوارق بالهمة او الإرادة والخيال
المركز أو بآثار الأسماء الإلهية بين ابولونيوس التبانائي اليوناني الوثني وبين فرانسيس و
باتريك وتبريزا واليزابث بارتون من المسيحيين وبين الدكتور فوك وشابيتاي من اليهود
الكاباليين والزوهاريين.. وبين باباجي وتريلنجا من البرهمنيين وبين الحلج وأمثاله من
المسلمين.. وهناك شواهد لا تحصى على وحدة القاعدة ووحدة الإثر. اقرأ تراجم هؤلاء .
(١) الفتوحات المكية : م (٢)، ص (٣٨٥) . وعن الخلق بالهمة راجع فصوص الحكم،
ص: (٨٩).

وقد شهد بهذه الحقيقة كبار الصوفية... فقد صرح الشيخ عبد الوهاب الشعراني (ت ٩٦٠هـ) بان عدة هؤلاء هم الجن واسماهم نصابين لإيهاهم الناس بأنهم أولياء قال: (ولذلك استعمل النصابون الرياضات لاستخدام الجن ليخبروهم بالمغيبات حين عدموا الصدق، فاخطئوا ومقتوا)^(١).

وحط الصوفي إبراهيم المتبولي من القرن العاشر من قدر من يسلك برياضات البوني وغيره فقال: (وعزة ربي ان عباد الأصنام أحسن من هؤلاء فان الله عز وجل اخبر عنهم انهم كانوا يقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) وهؤلاء اتخذوا أسماء الله المشرفة المعظمة لحصول أغراض خسيصة من مناصب الدنيا لو عرضت على عاقل بلا سؤال كان من الأدب ردها فكيف بمن يطلبها بمعصار التوجه والجوع ليلاً ونهاراً قال وهو الشاهد لنا في الموضوع: (حتى يخف دماغه وبعضهم يحصل له الماخوليا والجنون)^(٢).

ان عدد من أصيب بالخلط والجنون من مزاولي السحر، ومستحضري الارواح، والرهبان والصوفية من مختلف الأمم كبير لا يحصى وهو يكفي لاثبات ما تحدثنا عنه من اثر الأرواح الماسة في ذلك وقد أشرنا في آخر عنوان: المس والاستحواذ في هذا البحث إلى عدد من المصادر لباحثين عرب واجانب في الروحية الحديثة سجلوا بعض الأمثلة

(١) الشعراني: الطبقات الكبرى: لواقع الأنوار ج: (١) ص: (١٢٥) .

(٢) نفس المصدر: ج: (٢) ص: (٨٦) .

٣١٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان
المأساوية في ذلك وسنقدم في الملحق بعض الأمثلة: منها ما شهده
الدكتور علي عبد الجليل راضي - أستاذ الفيزياء في جامعة عين
الشمس - نوره بطوله لأهميته وتمثل الخطورة فيه في كون المسوس
يقوم بالتدريس وهو بهذا الحال في إحدى الكليات الحربية في السعودية
ومهما بدت لك هلوساته عجيبة ومهما بدا لك هوسه غريب فانك لو
قارنت بينه وبين مدعي البابية والمهدوية مما أوردناه في الجزء الثاني من
كتابنا: الأمام المهدي المنتظر عليه السلام وأدعياء البابية والمهدوية الذين أسسوا
طوائف لما وجدت الأمر مختلفاً... عنه وعن الأمثلة التي سنذكرها في
النموذج الثاني.

اما لدى بعض غلاة السالكين من الصوفية او الرهبان الذين
يجاوزون في سلوكهم الحدود المشروعة فيستدعون في خلواتهم بطبيعة
توجههم: الأرواح تلبثاً لتتصل بهم او بسبب استخدام الأسماء الإلهية
التي تعطى آثارها الوضعية في الحلقات الدنيا المباشرة بالأرواح
السفلية...

اما لدى هؤلاء فان المصادر والأمثلة فيها كثيرة جداً بل فوق حد
الإحصاء .

وقد أطلق الصوفية على المسوسين من هؤلاء أسماء أخرى تحمل
اعتذاراً ضمناً عن الحالة او تأشيراً الى حالة مقدسة جاء عنها الجنون
بالأصل.. تمييزاً لهم - كما شاءوا - عن سواهم من المجانين، وليثبتوا لهم:
الولاية التي نظروها لاصحاب طريقهم خاصة فأسموهم: الموليين،

ومجانين الحق، والمجدوبين، وعقلاء المجانين، والبهايل^(١).

والأساس وراء موقفهم هذا:

تفسيرهم المختلف الخاص لاسباب الجنون بما ينسجم وافتراضات
مراحل السفر الفكري والحالي للسالكين كما رسموه... وغاياته
وعوارضه كما تصوروها...

فهؤلاء المجانين لم يحنوا بمس الأرواح السفلية او الشيطانية لهم
كغيرهم، وانما أدهشتهم التجليات الإلهية وهزهم ترادف الواردات
الربوبية وسلبتهم عقولهم رؤيا الحق...^(٢)

ولا يجد هذا الافتراض المذهبي النظري الخالص وراءه أساساً عدا
النظرية القبلية في السلوك... ثم صدور الخوارق والكشف من بعضهم
رغم حالة الجنون هذه.

وقد تحدثنا في البحث السابق عن الأمرين معاً اعني:

(١) يذكر بهلول هنا بقصد التنظير به لهؤلاء المجانين لان المعروف ان الرجل لم يكن
مجنوناً كما ذكروا بل اظهر الجنون هرباً من منصب القضاء الذي رأى انه لا يستطيع ان
يقيم معه حدود الله... وذلك نظير ذكر اسم الخضر عندهم تنظيراً به لغير الملتزمين
بالشرع كما في قصته مع موسى عليه السلام رغم انهما كانا في عصر انفتاح النبوة وتعاصر الأنبياء
... وقد ختمت النبوة المشرعة بمحمد صلى الله عليه وآله فلا نبي بعده ولذلك لا يصح التنظير به
لاختلاف المرحلة.

(٢) ابن خلدون : المقدمة، ص: (٨٨)، ابن عربي: الفتوحات المكية م: (١) ص:
(٢٤٧-٢٥٠).

سبب الجنون ، الخوارق والكشف .

كما هو في نظر العلماء وأهل الخبرة بما فيهم علماء الصوفية^(١) .

ان ما يهمننا في البحث كله أساساً: بيان تسبب الجن او الأرواح السفلية جزئياً للجنون وان ذلك لا يأتي ابتداءً، وانما في طول أسباب أخرى، وقد كان منهم مستدعو الأرواح بفئاتهم المختلفة ومنهم السالكون بنفس الدواعي ومن البين ان النظر في سيرة هؤلاء وتصرفاتهم والمقارنة بينهم وبين المجانين الآخرين من أية فئة وملة أخرى - مع فارق الثقافة والتوجهات الأصلية او الطارئة- تجلى لنا حقيقة جنون هؤلاء نوعاً وسبباً... وانه لا يختلف من حيث أسبابه عن أي جنون آخر عند أي فئة أخرى، رغم صدور الكشف والخوارق - و صح ذلك عنهم- فهي كما يقول السهروردي والذهبي تصدر عن الكاهن والراهب والبرهمي والمجنون الذي له قرين من الجن^(٢) .

(١) يرى ابن عربي في ج (١) من الفتوحات ص (٢٣٤) : ان الخارق يكون في نظر الرائي لا في الواقع أي انه سحر خيالي اذا كان ذلك قلباً للأعيان حتى انه لا يفرق بين موسى ﷺ وبين سحرة فرعون في ما جاءوا به.. بحكم ان نظرية وحدة الوجود لا تؤمن بإمكان وجود أي تغيير مطلقاً لان العالم أزلي كما يرون ونحن نستغفر الله من قوله كليهما. ونقل الشعراني في ج: (٢) من الطبقات الكبرى ص: (١٥٠) آخر ترجمة علي وحيش: انه اخبر الصوفي محمد بن عفان(رضي الله عنه) عما يفعله وحيش فقال هؤلاء يخيلون للناس هذه الأفعال وليس لها حقيقة...أما ما يسمى: المجلوبات الروحية فيحصل بالاستخدام .

(٢) السهروردي : عوارف المعارف، ج: (٥)، من الاحياء للغزالي، وراجع قول

وقد بينا انها آثار وضعية لأسباب أخرى لا يختلف فيها المؤمن عن الكافر، والملتزم عن الفاسق، والعاقل عن المجنون، ولذلك فرقوا بين المعجزة والكرامة التي تحدث لأصحاب السمو العقلي والروحي والاستقامة الأخلاقية كالرسل وكبار الأولياء وبين ما يأتي به هؤلاء بان الاولين يكونان دون ارتياض خاص ودون توسل معين وانما بفعل الله سبحانه ابتداءً أو بالدعاء المعتاد وبانها خرق حقيقي للقوانين وليس صورياً وانه لإقامة الحجة لا للاستعراض والظهور ولذلك فهما لا يقومان لإثبات ما يخالف ضرورة عقلية قاطعة سلباً أو إيجاباً ولا ثابتاً شرعياً كذلك بعد محمد ﷺ وقد وورد عن علي ﷺ اعرفوا الرسول بالرسالة.

الذهبي: (ابن العماد الحنبلي)، شذور الذهبك ج: (٦)، ص: (٢٨٩).
الكشف يدخل من حيث بعض أسبابه بالارتياض أيضاً بما أنه يقلل حجاب البدن والاشتغال بالحياة الحسية فترى النفس وهي من عالم سماوي شيئاً من عوالم الغيب كما هو الأمر في الأحلام وقد يحصل الكشف بالأرواح الماسة أو المستحوذة بان ترى من مسته ما تراه هي والكشف يحصل لدى المؤمن والكافر والتقي والفاسق، وتدخل أهواء النفس وأمنياتها والخيال وما يخالط الإنسان من حجب وبعض الأمراض النفسية والعقلية والعقائد في الأمر ولذلك يتخلف الكشف كثيراً ويكذب ويختلف باختلاف الانتساب العقائدي والفكري بين الأفراد وتناقض لدى الفرد الواحد كذلك لدى أهل العصمة هذا في العقائد والأمور السماوية لا في الموضوعات الخارجة والحوادث فهو أكثر صدقاً وكذلك فليس هو دليل على الولاية والقرب وليس له من حيث الحجية قيمة. ومن أشهر المعروفين بالاحتجاج بالكشف ابن عربي وقد رأى في كشفه ان خاتم الولاية الإمام المهدي ﷺ ، ثم رأى انه عيسى المسيح ﷺ ثم رأى انه هو نفسه (أي ابن عربي).

الملحق

بعد ان كمل موضوعنا نقدم في هذا الملحق نماذج من الشواهد الطريفة لصور الإصابة العقلية او المس والاستحواذ لدى مستحضري الأرواح والمستهدين بها ثم لبعض الصوفية: خشية ان لا يستطيع قارئ هذا البحث مراجعة ما أشرنا إليه من المصادر، وبها يتضح لنا ان مدعي النبوة والبابية والمهدوية ومعطلي الشرع والاباحيين الذين عرفوا في التاريخ أمس واليوم قد خرجوا من هذه الأوساط نفسها وانهم لا يرتفعون عن هذه الأمثلة إلا نسبياً وبان توجههم وما دعتهم إليه الأرواح الشريرة كان مختلفاً كما سترى في تراجمهم في الجزء الثاني من ادعاء البابية والمهدوية ثم شهادة الرسول ﷺ وعلي ﷺ والائمة في آخر من عاصرهم من هؤلاء.

النموذج الأول:

المجانين من مستحضري الأرواح

ذكر المهندس الأمريكي هارولد شيرمان وهو باراسايكولوجي معروف ان صديقاً له ذا ثقافة عالية اسمه كارل وهو محاضر ومؤلف مشهور إلا انه كان كافراً وعديم الاعتقاد في الإدراك ما وراء الحسي أو المتفوق وعن طريق صلته بهارولد بدأ يؤمن بهذه الملكات وأدى به هذا سريعاً إلى تجارب أخرى ذات طبيعة روحية وهو واثق ان كلا منه ومن زوجته كانا يتلقيان رسائل من كائنات ذكية غير متجسدة وان عالماً جديداً بأسره قد فتح أمامهما ودعا هارولد وزوجته مارثا إلى شقته كيما

يشاهد ان ما يجري عنده قال هارولد: قال لي... انك تعرف ثقافتى وشكوكى التى أبديتها فى السابق..

وفى تلك الليلة جلست انا ومارثا نشاهد احدى التجارب الفريدة، قال صديقى: ان المخلوقات الذكية هذه تعمل بطريقة منظمة بحيث ان عقله الواعى لا يتدخل او يكون الانطباعات التى يستقبلها وان القوة عندما تبدأ يستطيع ان يرى بعين عقله صفاً متحركاً من الحروف يجرى على شاشة ذهنه مثل العلامات المومضة التى كانت تحيط سابقاً بمبنى التايمز فى ميدان التايمز بنيويورك والتى كانت تتركب من الحروف نشرة إخبارية ضوئية مستمرة.

وأعطى لنا اقلاماً وورقاً وطلب منا ان نكتب الحروف التى ينطق بها عندما يراها بذهنه وكان علينا ان نرسم خطوطاً بين الحروف عند الأماكن التى يمكن فصلها إلى كلمات...

وقال صديقنا: هل أنتم مستعدان؟

انهم سيبدءون ، هاهم.

ثم بدأ ينطق الحروف بسرعة كبيرة بحيث تعذر علينا اللحاق به وكان مستحيلاً تفسير ما كان يأتي منه وتسجيل سيل الحروف فى نفس الوقت...

وبعد ١٠ أو ١٥ دقيقة توقف وأعطانا فرصة للمراجعة...

وسأله: هل تعرف ماذا استقبلت الآن؟ قال: ليس لى أدنى فكرة.

وراجعنا الحروف وقابلناها واستكملناها من بعضنا وأصبحت

رسالة معقولة ومشوقة جداً.

قال هارولد: لم أكن أعيش أنا ومارثا في نيويورك فلم تكن هناك فرصة لمتابعة الزيارات هذه.. ولكن كنا نتبادل التحيات في المواسم... بعدئذ لاحظنا انه لم تنشر له مقالات أو تعليقات عن ما له من محاضرات... وبالسؤال من أصدقاء الطرفين عرفنا ان هذين الزوجين اختفيا ولم يعرف أحد ماذا جرى لهما...

ومرت سنتان استطاع هارولد وزوجته ان يصل إليهما... لنترك هارولد يصف لنا هذه المقابلة...

يقول: أدى هذا إلى تجربة لن أنساها لقد قابلت رجلاً كان ظلاً للرجل الأول فيزيقياً وذهنياً... وقال لي -ويا هول ما قال-: انه أستحوذت عليه ذاتية سافلة استخدمت جسمه لإشباع رغبات منحطة وعندما تهيمن عليه تلك التي تسمى روح فانه لا يشعر بكيفية استخدام جسمه أو إلى أين يؤخذ... انه يفعل كل الأفعال المنحطة التي كانت غريبة على هذا الرجل في حالة وعيه العادية...

وعندما تستولي عليه هذه الذاتية كان يهاجم زوجته باليد واللسان وتتدفق الكلمات النابية المنفرة كالسيل من فم لم ينطق بمثلها من قبل أبداً.

قال هارولد: وعندما كان يجلس ليخبرني عن تجاربه المحزنة التي اقتضت ذهابه إلى معزل قال لي انه لا يعلم أبداً في أي وقت ستصيبه نوبة الأستحواذ الروحي ربما يحدث له في أي لحظة حتى في أثناء كلامه معي، عند هذه النقطة لاحظت: ان الزوجة أخذت تنظر في اندهاش إلى

زوجها وأومات لي برأسها حتى أنظر إليه... وعندما فعلت ذلك رأيت شخصاً مختلفاً تماماً يبخلق في... كان في العينين كراهية وازدراء، وكانت هناك هيمنة على وجهه والتقاطيع مسحوبة وتعبيرها يختلف تماماً عن الشخصية التي كانت تعبر عن نفسها خلال الجسم ذاته منذ دقائق قليلة.

وسألني الذاتية المستحوذة هذه: من أي جهنم قد جئت وأمرني بالخروج من الشقة بوابل من الإهانات وإشارات التهديد.

ان هذا الموقف قد يتكرر مثله في بعض الحالات العقلية في المستشفيات ولكنها صدمة كبيرة ان تكون في حضرة رجل له صفات صديقي وأخلاقه وعقله ثم تراه يختفي نهائياً وتحل محله قوة شريرة^(١).

وينقل لنا الدكتور أحمد أمين (صاحب فجر الإسلام وضحاها وظهره.. والمؤلفات الأخرى) والشخصية البارزة في مصر في الخمسينيات.

انه وهو في مدرسة القضاء الشرعي يعتم العمة كان يحاول ان يتعلم اللغة الإنكليزية.

ثم كما يقول وفق إلى سيدة إنكليزية كان لها أثر عظيم في نفسه وعقله... انها مس بور، سيدة في نحو الخامسة والخمسين من عمرها ضخمة الجسم مستديرة الوجه يوحي مظهرها بالقوة والسيطرة بسيطة

(١) هارولد شيرمان: حواسك الزائدة في خدمتك، ترجمة الدكتور علي عبد الجليل راضي، من ص: (٣٠٦-٣١٣).

٣٢٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
في ملابسها وزينتها مثقفة ثقافة واسعة تجيد الإنكليزية والفرنسية والألمانية
ذات رأي تعدد به جريدة التايمس فترحب بمقالاتها عرفت الدنيا من
الكتب ومن الواقع، أقامت في فرنسا سنين وفي ألمانيا سنين وفي أمريكا
سنين فكملت تجاربها وأتسع أفقها وحضرت إلى مصر ووافقها جوها
فأقامت فيها. ثم هي رسامة فنانة تأخذ أدواتها إلى سفح الهرم فترسم
الصور الزيتية لمنظر الأهرام والفيضان وتبيعها بثمن كبير... وهي
تدرس الرسم والتصوير لبنات رئيس وزارة، ثم هي تقبل ان تدرس لي
درساً في اللغة الإنكليزية بجنيهين كل شهر.

يقول أحمد أمين: بدأت أدرس معها الجزء الثالث من سلسلة كتب
بيرلitz ثم أضع الكتاب وأحدثها وتحديثي في أي موضوع آخر يعرض
وتوثقت الصلة بيننا فكأنني كنت من أسرتها فهي لا تعني بي من ناحية
اللغة الإنكليزية وآدابها فحسب بل هي تشرف على سلوكي
وأخلاقى...

وذكر انه درس عليها بالإنكليزية عدة كتب أخرى في الأخلاق
والاجتماع وفصولاً من جمهورية أفلاطون.

قال أحمد أمين: ولا أدري ما الذي أنتابها فقد رأيتها تكثر من
القراءة في كتب الأرواح، ثم تمنع في قراءتها، ثم تذكر لي انها خصصت
ساعتين تغلق عليها حجرتها، وترخي ستائرهما، وتغمض عينيها، وتركز
روحها في مريض تعالجه وهو في داره وهي في دارها، أو تجرب تجربة
أخرى ان ترسل من روحها إشارة لاسلكية لصاحب لها تنبئه ان يحضر
أو لا يحضر، وان يعدّ كذا أو لا يُعدّ، وهكذا، وقد نجحت في بعض

الأحوال دون بعض فلم تشأ ان تعتقد ان هذه مصادفة، ولكنها اعتقدت ان ما نجحت فيه فإنما نجحت لان الأمر قد استوفى شروطه، وما لم تنجح فيه لم تستكمل عدته، فزاد اجتهادها، وطالت ساعات عزلتها، وأمعت في تركيز روحها، كل ذلك وأنا أنصحها الا تفرط في هذا خشية عليها فلا تسمع، لانها تأمل ان تصل من ذلك إلى نجاح باهر.

وذهبت إليها يوماً فرأيتها مصفرة الوجه مضطربة الأعصاب خفاقة العينين، فسألتها عما بها، فأخبرتني انها ذهبت اليوم صباحاً إلى كوبري قصر النيل وهمت ان ترمي نفسها في النيل، ثم رأيتها تذكر لي انها أخفقت هذه المرة في الانتحار، ولكنها ستنجح في مرة أخرى، فخرجت من عندها أسفاً باكياً، واتصلت بطبيب للأمراض العقلية فحضر ورآها، وأخبرني انه لا بد من ارسالها فوراً إلى مستشفى المجاذيب، وكذلك كان. وكنت أعودها من حين إلى حين، فإذا جلست إليها تحدثت كعادتها حديثاً هادئاً معقولاً، وسألتها مرة: ماذا بها؟ فقالت: لا شيء بي إلا اني فقدت الإرادة فإذا أطلق سراحي الآن لا أدري أين أتجه؟. ثم تولت أمرها القنصلية الإنكليزية فأسفرتها إلى بلدها^(١).

٣- قال الدكتور علي عبد الجليل راضي أستاذ الفيزياء في جامعة عين شمس: (كنت على وشك الانتهاء من هذا الكتاب: (الروحية عند ابن عربي) عندما قابلت ذات مساء في أحد شوارع الرياض المدينة التي

(١) أحمد أمين: حياتي، بقلمه، (ضمن موسوعة أحمد أمين الأدبية)، ط ٢، بيروت، سنة

٣٢٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

الفتة فيها من يسلم عليّ ويذكرني بنفسه علي انه طالب مصري سابق لي يدعى (م.أ) أخذتني الدهشة لانه قد جاءني في جمعية الأهرام الروحية في القاهرة كمريض في حالة مس شديدة وكنت اعتبره وقتئذ مجنوناً فقد كان يدعي: (ان الشمس تجري وراءه وانه يرى الله) فكيف بمثله يأتي الى هنا ليدرس لطلبة الكلية الحربية كما ذكر لي...

ولكني قلت لنفسي انه لا بد قد شفني... بدأ يحدثني فوجدت انه مازال كما كان مريضاً عندما رأيته منذ حوالي عشر سنوات قال لي انه تقدم في الاتصال الروحي ويريد ان يأخذ رأبي في ذلك وصعقت لما قال لي: (انه هو النبي عيسى وانه يتحدث مع جبرائيل واسرافيل.. الخ)^(١).

ولما كان التحدث بالروحية محرماً في السعودية. فلم اكن أتكلم مع أحد فيها هناك وعانيت الكثير من الاضطهاد لدرجة اني طردت في ما بعد بسبب كتيبي الروحية التي دخلت البلاد خلسة، لذا لم ارغب في مبدأ الأمر الاستماع الى هذا المخرف على قارعة الطريق... ولكن بعد قليل تحولت رغبتني في تركه الى رغبة في الاستماع إليه إذ أحسست بأن حالته قد تفيدني جداً في هذا الكتاب ووقفت معه على قارعة الطريق زهاء الساعة استمع الى اعجب ما سمعت في حياتي وسوف أخص أقواله - علماً بانه مسلم- في ما يأتي: ولعل القارئ يدرك خطورة الاستسلام للأرواح السافلة .

(١) لا يختلف القادياني والباب ومحمد احمد المهدي وغيرهم من أدعياء البابية والمهدوية: عن هذا الرجل ان لم يزيدوا عليه فافراً تراجعهم في الجزء الثاني من كتاب: الإمام المهدي المنتظر عليه السلام وأدعياء البابية والمهدوية بين النظرية والواقع لعدنان البكاء.

قال تلميذي المريض: انه يتصل بالملائكة ٢٤ ساعة في اليوم يعني انه لا يكون وحده بتاتاً فالأصوات تتبدل عليه هذا جبرائيل وذاك اسرافيل وذاك ميكائيل... الخ

قال لي: ان الملائكة تسعة بينهم الذكور وبينهم الإناث فمثلاً: اسرافيل ذكر واسرافيل أنثى... الخ

قال لي: ان جبرائيل يقرأ عليه القرآن ولكنه يحذف بعض السور او الآيات ويقول انها مدسوسة!!!
قال ان اسرافيل يقرأ عليه التوراة .

قال: ان الملائكة يجب ان تكون ثلاثة حتى يكون الكتاب المنزل صحيحاً - وهذا يفسر الأجزاء المدسوسة في التنزيلات - .

نفى الألوهية بتاتاً وقال: ان واحداً من هؤلاء الملائكة يظل في السماء في حين يبقى اثنان على الأرض بالدور .

قال: ان الملائكة المذكورة رشحته نبياً لانه كان نبياً من قبل وهو سيتناسخ على هيئة عيسى وأملوه إنجيلاً جديداً .

طلبوا منه ان يذيع هذا الإنجيل ويموت من اجله مثل ما حدث لعيسى الأول وسوف يقفون معه حتى لا يشعر بألم الموت، وان جزاءه لا يتم إذا مات موتة عادية .

قالوا: ان سيدة النساء عرفت رجلاً في تل أبيب ... واختفى هذا الرجل من حياتها بعد ذلك (استغفر الله) بعده قالوا: انها قد تناسخت الآن .

٣٢٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان

قالوا له: ان أجزاء من القرآن مأخوذة عن كتب قديمة أنزلت على لوط وخلافه .

طلبوا منه حذف بعض آيات القرآن مثل (لم يلد) في سورة الإخلاص لان الله ليس بانثى. ومثل (من شر النفاثات في العقد) في سورة الفلق (لاحظ ان الشياطين تخاف من أمثال هذه الآية) .

وطلبوا منه نفي العبودية في الآيات التي تشبهه قال: (اني عبد الله أتاني الكتاب) وأبدلها (اني رسول الله) .

قالوا له: انه يمكنه الاستماع الى العصا مثلما فعل موسى .

قالوا له: ان عيسى صلب وقاسي اعظم عذاب في صلبه وموته البطيء .

قالوا له: ان محمداً صلوات الله وسلامه عليه تعذب في آخر شهر من حياته اذ قاطعه اصحابه، ومنعوا عنه زوجاته (اقرأ ما قاله ابن عربي في رموزه الخافية عن موقف زوجات النبي معه) .

قال: ان جبرائيل وحده هو الذي يعترف بالإسلام وان كان يقول: ان بعض القرآن نزل من وراء ظهره على يد ملائكة آخرين .

قال: ان الملائكة أملت عليه كتاباً اسمه (المتعاليات) وهو عبارة عن أناشيد تبدأ بكلمة (تعالى) ويغنون له لكي يذهب اليهم في العالم الآخر .

أحياناً ينادونه تعالى يا عيسى أحياناً ينادونه تعالى يا مريم. ويسألني لأعلل له كيف يكون أحياناً أنثى في رأيهم..!

يرتلون أناشيدهم بأصوات جميلة وبأعداد كبيرة جداً عندما ينادونه..

علموه الشعر فاصبح يكتب قصائد طويلة وكلها في موضوعات الوهيته او نبوته، او مركزه المرموق في الخلق .

قال لي: ان اسمه في السماء عيسى وسألني عن اسمي في السماء فقلت له ليس لي صلة مثلك بالسماء فدهش دهشة كبيرة...

قال لي: ان هذه الملائكة هي التي تتحكم في حركاته وتوجيهاته، وأصواتها ترن في أذنيه في كل مكان ولكنه حاول الاستماع اليها وأنا واقف معه فعجز .

قال الدكتور علي عبد الجليل راضي: قلت له: ان هذه الملائكة ما هي الا عصابة من الشياطين الذين وجدوا فيه فرصة عظيمة للإيحاء والمس المهلك وانه في حالة استحواذ خطيرة ويجب عليه الخلاص منها، انهم يضعون له الطعام حينما يقولون له: بانه النبي عيسى فهذه هي الطريقة المعروفة لدى الروحيين لكل روح شيطاني يريد الاستحواذ على آدمي ضعيف وهم يرسمون الآن باستدعائهم له دائماً -لكي يرتكب عملاً جنونياً- كإذاعة الخرافات التي يتلقاها منهم عن الأنبياء الكرام وإنكار الألوهية وعندئذ سوف يقتل وهذا هو هدفهم.

وقال الدكتور راضي: وفي كتاب ثلاثون سنة بين الموتى الذي ترجمته للعربية سجل وافٍ لأمثال هذه الحالات التي ثبتت صحتها في أمريكا والتي كان يقع الضحية فريسة لإيحاء الشياطين فيطيعهم ويتحرر ثم يراهم بعد موته يضحكون منه ويستهزئون به^(١)

(١) الروحية عند ابن عربي: ص: (٥٠٢-٥٠٥).

النموذج الثاني:

المجانين من بعض أهل السلوك^(١):

يقول ابن عربي بعد تأسيسه للفرق بين مجانين السالكين وغيرهم من حيث السبب ومن حيث أقسامهم: فاعلم ان الناس في هذا المقام على إحدى ثلاث مراتب منهم من يكون وارده أعظم من القوة التي يكون عليها في نفسه فيحكم الوارد عليه فيغلب عليه الحال فيكون بحكمه يصرفه الحال ولا تدبير له قي نفسه مادام في ذلك الحال فان استمر عليه الى آخر عمره فذلك المسمى في هذه الطريقة بالجنون كأبي عقال المغربي ومنهم من يمسك عقله هناك ويبقى عليه عقل حيوانيته فيأكل ويشرب ويتصرف من غير تدبير ولا روية فهؤلاء يسمون عقلاء المجانين لتناولهم العيش الطبيعي كسائر الحيوانات واما مثل أبي عقال فهو مجنون مأخوذ عنه بالكلية، ولهذا ما أكل وما شرب من حين أخذ الى ان مات في مدة اربع سنين بمكة فهو مجنون أي مستور مطلق عن عالم حسه ومنهم من لا يدوم له حكم ذلك الوارد فيزول عنه الحال فيرجع الى الناس بعقله فيدبر أمره ويعقل ما يقول ويقال له ويتصرف عن تدبير وروية مثل كل إنسان .

قال: وقد لقينا جماعة منهم وعاشرناهم واقتبسنا من فوائدهم ولقد

(١) قلنا من بعض لانه لا يحصل إلا لدى المتجاوزين للحدود المشروعة في رياضاتهم ولدى طالبي التصرف بالاستخدام والتسخير بآثار الأسماء...

كنت واقفاً على واحد منهم والناس قد اجتمعوا عليه وهو ينظر اليهم
و يقول لهم^(١): أطيعوا الله يا مساكين فإنكم من طين خلقتم وأخاف
عليكم ان تطبخ النار هذه الأواني فتردها فخاراً.

يا مساكين لا يغرنكم إبليس بكونه يدخل النار معكم إبليس خلقه
الله من نار فهو يرجع الى اصله وانتم من طين .

يا مساكين انظروا الى إشارة الحق في خطابه لإبليس في قوله:
(لاملأن جهنم منك..) وهنا قف لا تقرأ ما بعدها. فقال له جهنم منك.
فمن دخل بيته وجاء الى داره واجتمع بأهله ما هو مثل الغريب الوارد
عليه فهو يرجع الى ما به افتخر فسره رجوعه الى اصله^(٢) وانتم يا
مناحيس تتفخر بالنار طينتكم...

انتم عمي ما تبصرون الذي أبصره انتم تقولون سقف هذا المسجد
ما يمسكه إلا هذه الاسطوانات انتم تبصرونها اسطوانات من رخام وأنا
أبصرها رجالاً يذكرون الله ويمجدونه... بالرجال تقوم السماوات^(٣)
فكيف هذا المسجد ما ادري اما أنا هو الأعمى لا ابصر الاسطوانات
حجارة، واما انتم هم العمى لا تبصرون والله يا أخوتي ما ادري لا
والله انتم هم العمى...

(١) نوردها باختصار.

(٢) على هذا القياس فرجوع الإنسان تراباً يكون إنساً له.. والرد ليس على المجنون بل
على ابن عربي المعجب بفوائده.

(٣) يبني ذلك على نظرية الصوفية في القطب والأوتاد.

٣٣٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
قال ابن عربي: ثم استشهدني دون الجماعة فقال: يا شاب الست
أقول الحق. قلت: بلى، ثم جلست الى جانبه فجعل يضحك... وقال:
(الأستاذ المنته^(١)) تصفر بعضها لبعض.. وهذا الشاب منتن مثلي هذه
المناسبة جعلته يجلس الى جانبي ويصدقني انتم الساعة تحسبونه عاقلاً وانا
مجنون هو أجن مني بكثير وانما انتم كما أعماكم الله عن رؤية هذه
الاسطوانات رجالاً أعماكم أيضاً عن جنون هذا الشاب^{(٢)*}.

(١) الأستاذ: الأدبار

(٢) ابن عربي الفتوحات المكية: م: (١) ص: (٢٤٨-٢٤٩)

* وحين تقرأ ترجمة ابن عربي في الجزء الثاني من الإمام المهدي عليه السلام وأدعياء البابية
والمهدوية تؤمن ان ما قاله هذا الرجل غير بعيد. فأقرأ نقداً أو إستعجالاً القليل من رؤاه مما
يدل على هلوسة أو على خرافة لا مجال لقبولها مما لاصلة له بالمؤاخذات الدينية عليه،
وهي كثيرة فمنها:

١- رؤيته لعالم لا يكون العرش والكرسي أو السماوات والأرض والجنة والنار فيه إلا
كحلقة في فلاة... ورؤيته لثمار شجر ذلك العالم وهو أكبر من الكرة الأرضية ومع ذلك
تقبض عليه بيدك دون ان تكبر يدك أو تصغر تلك الثمار... ورؤيته فيه لبحر من الرمل
تتجمع الحجارة فيه تلقائياً فتشكل ما يشبه السفن يركبها الناس ويذهبون لقضاء حاجاتهم
كما هو شأن الناس في بحور الماء في الدنيا.

٢- ورؤيته هناك ان كل ما قامت البراهين الصحيحة على إستحالاته ممكن بل
موجود..(الفتوحات، م١، ص: (١٢٨-١٣٠)). أقول: ليته وصف لنا كيف يجتمع
المتناقضان وبأية صورة رأهما!!!؟

٣- وأقرأ رؤيته للكعبة حين استهان بها في نفسه وهي ترفع أذيالها بصورة فتاة جميلة

وهي تتحفز للبطش به غاضبة مهددة حتى اعتراه الخوف وأهتز.. (الفتوحات، م ١، ص: (٧٠٠).

٤- ورؤيته حين سافر وبعض الأبدال - كما قال - للحية التي تطوق جبل قاف ونطق الحية وسؤالها لهم عن ابي مدين وحين اخبروها بان الناس تقول عنه: انه زنديق عجبت لعدم معرفة الناس له بينما عرفه الله لمخلوقات الأرض والسماء (الشعراني، لواقح الأنوار، ج: (١)، ص: (١٥٤). نقلاً عن الفتوحات.

٥- وأقرأ حديثه عن الحيوان الذي إذا أكل الإنسان أعلاه إعطاه بالخاصية علم النجوم وإذا أكل وسطه أعطاه علم النبات وإذا أكل عجزه وهو ما يلي ذنبه أعطاه علم المياه المغيبة في الأرض... ويصفه فيقول هو حية لا كبيرة ولا صغيرة ويوجد غرب الأندلس، وأكل ثلاثة أخوة هذه القطع من جسمه فحصلوا على هذه الخواص.

٦- وحديثه عن الحيوان الآخر الذي من أكل لحمه أو شرب مرقته أطلع على غيوب ما يحدث الله في العالم من الحوادث الجزئية والعامية ويسمع ويفهم ما تنطق به جميع الحيوانات، وهذا الحيوان يتكلم العربية -بزعمه- وهو على شكل امرأة يوجد في ما بين العراق ومكة. (الفتوحات، ج: (٣)، ص: (٦٢٥).

٧- وأقرأ حديثه عن رجل حضر مجلس شيخ صوفي يتكلم في المحبة فذاب هذا الرجل حتى أصبح كفاً من ماء. (الفتوحات، م: (٣)، ص: (٤٣).

٨- وحديثه عن أحد مشايخ الصوفية الذي حضر عند ابنة السلطان وهي تحتضر فقال لملك الموت آمراً: أتركها ولكن لا بد لك من الرجوع لربك = بنفس مقبوضة فخذ أبنتي مكانها فماتت ابنته وقامت ابنة السلطان. (الفتوحات، م ١، ص: (٦٧٥).

٩- وحديثه عن رجل ذهب ليغتسل عن الجنابة فحلم أثناء الغسل انه ذهب إلى بلد وتزوج وولد له أولاد ثم أنهى غسله وخرج فما لبث ان جاءت امرأة ومعها اولادها تدعي انها زوجته تلك. (الفتوحات، م ١، ص: (٢٧٤).

٣٣٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان

اما الشعراني: في الطبقات الكبرى (لواقح الأنوار) فقد التزم كما ورد في المقدمة ان يلخص في كتابه طبقات جماعة من الأولياء الذين يقتدي بهم في طريق الله عز وجل من الصحابة والتابعين الى آخر القرن التاسع وبعض العاشر.. قال: و مقصودي فقه طريق القوم في التصوف من آداب المقامات والأحوال لا غير.. ثم ساق ضمن هؤلاء عدداً من المجانين الذين نذكر أمثلة منهم.

وستسأل معي ما معنى اقتداء هؤلاء المجانين من الذين أوردتهم في طبقاته؟! وفي أي جانب من سلوكهم يكون هذا الاقتداء؟ ان كونهم غير مكلفين -بحكم الجنون- أمر وكونهم صالحين للقدوة أمر آخر .

ولا حاجة لان نستقصي من ترجم لهم الشعراني من هؤلاء، فغرضنا الأساس هو إثبات كثرة ظاهرة الجنون في هذا الوسط. وان الكشف والخوارق قائمة للسبب الذي قدمنا الحديث عنه ومن المتوقع

١٠- وأقرأ ما يذكره من سؤاله لأبنته وهي دون السنة وكانت على ثدي أمها: عن رجل قارب زوجته فاكسل، فأجابته بعد ان رفعت رأسها عن ثدي أمها: بوجوب الأغتسال فعجبت أمها وغشي على جدتها. (الفتوحات، م١/١٢٨، و ج: (٣)، ص: (٤٢).

١١ - ورؤيته لسورة الفاتحة بصورة جارية تخدم إحدى شيخاته وأرسلتها مرة إلى رجل تأمره بطلاق امرأة تزوجها إستجابة لشكاية زوجته الأولى إليها. (الفتوحات، م٢، ص: (٣٤٧).

١٢ - ولا عجب فان ابن عربي كان على صلة دائمة بالأرواح وقد أملت عليه كتابه

الفتوحات كما صرح بذلك في م: (١)، ص: (١٥٣). كما أملى جبرائيل عليه السلام القرآن

على محمد صلى الله عليه وآله وسلم -في ما قال- (الفتوحات، م٣، ص: (٤٥٦)، على ما يمتلى به من

خرافة وتناقضات وهلاوس...

ان تكثر الاستهانة بالشرع وإقامة الفرائض الإسلامية وينقل لنا الشعراني بعض ظواهر اللامبالاة بالشرع على انها كرامة كالذي أورده في ج: (١) من الطبقات ص: (٩٧) من ان عيسى ابن النجم مكث ١٧ سنة من غير وضوء وفي نفس الجزء ص: (١٢٩) ان ابا السعود الجارجي يمكث من أول ليلة من رمضان إلى بعد العيد بستة أيام بوضوء واحد!، والشعراني يقدم كل واحد منهم بسيدي: فتأمل.

وتحار أحياناً في ما إذا كان بإمكانك الفصل بين الناقل والمنقول عنه من هذه الناحية فبعض ما يوردونه فيهم لا عنهم لا يقع في خط المعقول كما سترى، قال الشعراني في ج: (٢) من الطبقات ص: (١٤٠) الترجمة (٢٦): ومنهم سيدي إبراهيم بن عصفير (رضي الله عنه أمين) وكان كثير الكشف وله وقائع مشهورة وظهرت له وهو صغير منها انه كان ينام في الغيط ويأتي البلد وهو راكب الذئب أو الضبع؛ و منها كان يمشي على الماء لا يحتاج إلى مركب! وكان بوله كاللبن الحليب ابيض...

قال: وكان يغلب عليه الحال فيخاصم ذباب وجهه وكان يتشوش من قول المؤذن: الله أكبر فيرجمه ويقول عليك يا كلب نحن كفرنا يا مسلمين حتى تكبروا علينا

واذا ما مرت عليه جنازة وأهلها يكون يمشي أمامها معهم ويقول: زلابية هريسة زلابية هريسة.. يقول الشعراني: كان يحبني وكنت في بركته.

وفي ص: (١٤٩) ج: (٢) من الطبقات الترجمة (٦٠)، قال: ومنهم سيدي علي وحيش من مجاذيب النجارية كان رضى الله عنه من أعيان

المجازيب وأرباب الأحوال وله كرامات وخوارق .

واخبرني الشيخ محمد النطيسي رحمه الله قال: كان الشيخ علي وحيش رضى الله عنه يقيم عندنا في خان بنات الخطا (المومسات) وكان كل من يخرج يقول له: قف حتى اشفع فيك عند الله قبل ان تخرج فيشفع فيه وكان يجلس بعضهم اليوم واليومين ولا يمكنه ان يخرج حتى يجاب في شفاعته (ولا تستطيع ان تعرف من الذي يجيبه في هذه الشفاعة).. قال: وكان اذا رأى شيخ بلد او غيره ينزله من على حمارة ويقول له أمسك رأسها لي حتى افعل فيها ...

يقول الشعراني: فان ابى شيخ البلد تسمر في الأرض لا يستطيع ان يمشي خطوة (يعني ان ذلك يحصل كرامة له) وان سمع (أي ما طلب إليه) حصل له خجل عظيم والناس يمرون عليه... وكان له أحوال غريبة .

وفي ص: (١٣٥) ج: (٢) ترجمة رقم (١٩)، قال الشعراني: ومنهم الشيخ علي أبو خودة كان رضى الله عنه من أرباب الأحوال ومن الملاميته وكان رضى الله عنه يتعاطى أسباب الإنكار عليه قصداً فإذا أنكر عليه أحد عطبه (أي أهلكه) وكان رضى الله عنه يهوى العبيد السود والحبش لم يزل عنده العشرة يلبسون الخوذ لكل واحد منهم حمار يركبه فكانوا هم جماعته .

وكان رضى الله عنه إذا رأى امرأة او امرداً راوده عن نفسه وحسس على مقعدته سواء كان ابن أمير او ابن وزير ولو كان بحضرة والده او غيره. ولا يلتفت الى الناس وما عليه من أحد!.

وكان إذا حضر السماع يحمل المنشد ويجري كالحصان .

ونقل الشعراني: انه أراد السفر في مركب فقالوا (يعني الناس) للرئيس ان أخذت هذا غرقت المركب لانه يفعل بالعبيد الفاحشة فأخرجه الرئيس من المركب فقال: يا مركب تسمري فلم يقدر أحد ان يسيرها بريح ولا بغيره... الخ (يعني الشعراني: ان ذلك حصل كرامة له). فأفهم !!!.

قال الشعراني في الترجمة (٣٦) ص: (١٤٣) ج: (٢)، ومنهم الشيخ أبو الخير الكلبياني رضى الله عنه قال: كان رضى الله عنه من الأولياء المعتقدين وله المكاشفات العظيمة مع أهل عصره وكانت الكلاب التي معه من الجن وكانوا يقضون حوائج الناس... وكان اغلب أوقاته واضعاً وجهه في حلق الخلاء في ميضأة جامع الحاكم ويدخل الجامع بالكلاب... الخ

قال الشعراني في ص: (١٠٦-١٠٧)، الترجمة ٣٦٢: (ومنهم الشيخ الحضرمي رضى الله عنه وكان يتكلم بالغرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف ما دام صاحياً، فإذا قوي عليه الحال تكلم بالفاظ لا يطيق أحد سماعها في حق الأنبياء وغيرهم وأخبرني أبو فضل السرسبي: انهم جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة (أي خطبة الجمعة) فطلع المنبر فحمد الله وأثنى عليه ومجده ثم قال: وأشهد ان لا آله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام، فقال الناس: كفر، فسل السيف ونزل وهرب الناس كلهم من الجامع، ثم جاء أهل البلاد المجاورة فأخبر أهل كل بلد انه خطب عندهم وصلى بهم، قال: فعددنا ذلك اليوم ثلاثين خطبة وهو جالس عندنا؟! !!! هكذا يؤمن الشعراني ويريد الناس ان

يؤمنوا!!!

والأمثلة على أولياء الشعراني من أمثال هؤلاء الذين ترجم لهم في طبقاته الكبرى ومكاشفاتهم وخوارقهم كثيرة فأقرأ الجزء الثاني من كتابه هذا ان شئت .

ولنأخذ أمثلة أخرى من شذور الذهب لابن العماد الحنبلي المتوفى (سنة ١٠٨٩هـ).

قال في ج: (٦) ص: (٣٣) (سنة ٧١٤هـ) توفى الشيخ سلمان التركماني الموله قال الذهبي: كان يجلس بسقاية باب البريد وحوله الكلاب وعليه عباءة نجسة ووسخ بين وهو ساكن قليل الحديث له كشف وحال من نوع اخبارات الكهنة وللناس فيه اعتقاد زائد وكان شيخنا إبراهيم الرقي مع جلالة يخضع له ويجلس عنده قارب سبعين سنة وكان يأكل في رمضان ولا صلاة ولا دين .

وقال في ج: (٦) ص: (٣٥) في (سنة ٧١٥هـ) قتل أحمد الرويس الاقباعي بدمشق لاستحلاله المحارم وتعرضه للنبوة وكان له كشف وأخبار عن المغيبات فضل به الجهلة وكان يقول: اتاني النبي ﷺ وحدثني وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة.

وقال في ج: (٥) ص: (٣٦٦) (سنة ٦٨٠) وفيها (يعنى توفى) جيعان إبراهيم بن سعيد الشاغوري الموله مات في جمادى الأولى وكان من أبناء السبعين وعلى قاعدة الموهين من عدم التعبد بصلاة او صيام او طهارة وللعمامة فيه اعتقاد يتجاوز الوصف لما يرون من كشفه وكلامه على الخواطر .

قال نقلاً عن الذهبي في العبر مبطلاً دلالة لحوال هؤلاء ولشغفهم

على الولاية : وقد شاركه في ذلك (يعني الكشف) الكاهن والراهب
والمصروع فانتفت الولاية .

قال ابن العماد ج: (٥) ص: (٢٨٩) وفيها أي (سنة ٦٥٧هـ)
الشيخ يوسف القميني الموله قال الذهبي في العبر: الذي تعتقده العامة انه
ولي الله وحجتهم الكشف والكلام على الخواطر وهذا الشيء يقع من
الكاهن والراهب والمجنون الذي له قرين من الجن وقد كثر هذا في
عصرنا والله المستعان ...

وكان يوسف القميني يتنجس ببوله ويمشي حافياً وكان يأوي الى
القمامين والمزابل وكان يلبس ثياباً طوالاً تكنس الأرض ولا يلتفت الى
أحد ويحكون عنه عجائب وغرائب. وائاً لله وائاً إليه راجعون...

وما نراه ويراه غيرنا من علماء الصوفية وغيرهم: ان خلط سيرة
هؤلاء واعتبارهم أولياء وقدوات كما فعل الشعراني في الطبقات
الكبرى وغيره أساء الى تاريخ التصوف الإسلامي الملتزم، وشوش
مفاهيمه واسقط على تاريخه الذي تمثله أعداد كبيرة من أهل العلم
والفقه والعرفان والالتزام الغبار الذي مثلته سيرة هؤلاء وأشباههم بما
فيها من خبط وخلط وممارسة للسحر واستهانة بالشرع والأخلاق
وإباحية سافرة... وفرق بين ان يسقط التكليف عن إنسان لانه مجنون
وبين ان يقدم كولي وقدوة وتسجل مفارقاته على انها جزء من تاريخ
المتصوفة... وظلم ان يذكر السهروردي والغزالي وابن عطاء
الأسكندري والنفري وهؤلاء المجانين والسحرة في عرض واحد...

النجف الأشرف

عدنان البكاء الموسوي

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم ، ط ١ ، محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٣- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي .
- ٤- تفسير الرازي الكبير (مفاتيح الغيب)، ط ١ ، المطبعة البهية المصرية ، بميدان الأزهر .
- ٥- الباراسايكولوجي سر من أسرار الدولة ، لهنري كرايس ووليم ديك ، رقم ٤ ، وزارة الثقافة والأعلام ، بغداد .
- ٦- مفاتيح الغيب، لصدر الدين (محمد ابن إبراهيم الشيرازي)، مؤسسة مطالعات وتحقيقات، فرهنكي، طهران.
- ٧- أسرار النفس سلامة موسى، مطبعة التقدم، القاهرة، ط ٤ ، ١٩٦٤ .
- ٨- فلسفة الهند في سيرة يوجي، برمهنسا يوجانندا، المطبعة التجارية الحديثة، مصر، ط ١ .
- ٩- عوارف المعارف للسهروردي، مع ج: (٥)، من الإحياء للغزالي، دار الندوة الجديدة.
- ١٠- الطبقات الكبرى ولواقح الانوار، دار الفكر للطباعة والنشر

والتوزيع.

١١- غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية ، للنفري الرندي ،
دار السعادة ، مصر.

١٢- تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة ، محمد عبدالله عنان،
ط ١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

١٣- قصة الحضارة ط ١ إدارة الثقافة في الجامعة العربية مصر.

١٤- مقدمة ابن خلدون، أوفسيت ، دار الفكر العربي ، بيروت .

١٥- شذور الذهب ، لابن العماد الحنبلي ، دار المسيرة-بيروت .

١٦- قصتي العظمى ، هانن سوافر ، تعريب د. رؤوف عبيد ، دار
الفكر العربي.

١٧- السحر وعلم النفس، الدكتور موفق الحمداني، بغداد، ١٩٩٠،
ط ١.

١٨- حواسك الزائدة في خدمتك، هارولد شيرمان ترجمة د. علي عبد
الجليل راضي شركة المعرفة للنشر والتوزيع.

١٩- الدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم، الكشناوي، مطبعة مصطفى
البابي الحلبي بمصر ١٩٨٤ .

٢٠- الخصال للشيخ الصدوق، دار التعارف.

- ٣٤٣..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
- ٢١- التوحيد للشيخ الصدوق، دار المعرفة.
- ٢٢- رسائل أخوان الصفا ، دار صادر ر، بيروت .
- ٢٣- الفتوحات المكية ، لابن عربي أوفسيت ، دار صادر، بيروت .
- ٢٤- فصوص الحكم ، لابن عربي، تعليق وتحقيق د. أبو العلا عفيفي،
دار الكتاب، بيروت .
- ٢٥- حياتي، لأحمد أمين ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- ٢٦- الإنسان ذلك المجهول ، الكسيس كارل ، مكتبة المعارف .
- ٢٧- العقائد الإسلامية، السيد سابق ، دار الكتاب العربي .
- ٢٨- دائرة المعارف، محمد فريد وجدي ، مطبعة دار معارف القرن
العشرين ، سنة ١٩٦٧ .
- ٢٩- رسالة الحدود لابن سينا ضمن كتاب المصطلح الفلسفي عند
العرب ، للدكتور عبد الأمير الأعسم .
- ٣٠- الإنسان روح لا جسد، د. رؤوف عبيد، ط٣، دار الفكر العربي.
- ٣١- ما بعد الحياة لكولن ولسون، ترجمة د. السعدوني، مطبعة الأديب
البغدادية.
- ٣٢- تفسير الميزان ، السيد محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي،
بيروت.

- العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٣٤٤
- ٣٣- نهج البلاغة ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١، ١٤١٥هـ.
- ٣٤- الكتاب المقدس .
- ٣٥- الروحية عند ابن عربي، د. علي عبد الجليل راضي، مكتبة النهضة المصرية.
- ٣٦- الإسلام في عصر العلم ، محمد فريد وجدي ، دار الفكر العربي .
- ٣٧- قصة تجاربي الروحية في لندن، د. علي عبد الجليل راضي، ط١.
- ٣٨- الإمام المهدي وإدعاء البابية والمهدوية، عدنان البكاء، مركز دار الغدير، بيروت-لبنان .
- ٣٩- فتاوي شلتوت ، محمود، الشيخ السابق للأزهر، دار القلم .
- ٤٠- الموتى يعودون ، د. علي عبد الجليل راضي، ط١.
- ٤١- منبع أصول الحكمة ، المكتبة الثقافية ، بيروت .
- ٤٢- لسان العرب ، لابن منظور ، دار صادر ، بيروت .

البحث السادس

الإمام علي عليه السلام

الشاهد التالي للرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإمام علي عليه السلام، الشاهد التالي للرسالة^(١)

الحمد لله بجميع محامده كلها على جميع نعمها كلها ، اللهم صل
على محمد عبدك ورسولك وأمينك و صفيك وحببيك ، وخيرتك من
خلقك ، وحافظ سرك ، ومبلغ رسالاتك .

اللَّهُمَّ وَصَلِّ عَلَى عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَصِيٍّ رَسُولِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ، عَبْدِكَ وَوَلِيِّكَ ، وَأَخِي رَسُولِكَ ، وَحُجَّتِكَ عَلَى خَلْقِكَ ،
وَأَيَّتِكَ الْكُبْرَى ، وَالنَّبَأِ الْعَظِيمِ .

هذه الأوصاف أوردتها الإمام المهدي عليه السلام لعلي عليه السلام في دعاء
الافتتاح^(٢) تتجاوز حدود الأفهام العامة أو ما هو أعلى منها ، فان

(١) القى هذا البحث في حفل النجف العام الكبير في قاعة رئاسة جامعة الكوفة الكبرى
في مولد الامام علي عليه السلام .

ثم القى بنفس المناسبة في عام اخر في الحفل الذي اقامته امانة العتبة العلوية في الصحن
الشريف ، وكان الأمين العام آنذاك العلامة حجة الإسلام الشيخ ضياء الدين زين الدين
(حفظه الله) .

(٢) ابن طاووس : السيد رضي الدين (ت ٦٦٤هـ) : اقبال الاعمال ، قم مكتب الاعلام
الإسلامي ١٤٠٤ هـ ، ج (١) ص (١٣٨) ، والفقرة موضع الشاهد ص (١٤٤) .

بعضها غير معروف يدخل في قوله صلى الله عليه وآله: (لا يعرفك الا الله وأنا)^(١) ،
ويدخل الآخر في ما يتحدد بالوصية والخلافة بالمعنى الأخص ، أو
الشاهد التالي للرسالة ، ونقف نحن في حديثنا عند هذا الحد.

وسنسلك في إثباته والاستدلال عليه منهجي الاتساق الداخلي
والتطابق الخارجي وسنعمد في ذلك على :

القرآن الكريم و على السنة المطهرة وعلى الواقع الخارجي
للنظرية المتمثل في شخصية الإمام علي عليه السلام من حيث كونه الواقع
التطبيقي للنظرية .

وهذا الاستدلال كما ستعرف لا يفسح المجال للمناقشة والشك ولا
للإخراج والإدخال ولذلك فهو ينفي الوضع والتزوير، ولنلقي الضوء
على ذلك بما يقرب من التفصيل :

أيها السادة

إن من ملامح الإعجاز في القرآن الكريم انه لا يناقض الواقع أبداً ،
ولا تتناقض إشارات المعجزة إيجازاً وسعة دلالة اليه، ولا مع ما كان
مفصلاً منه مهما طال المدى بينها وكثرت عدداً، بل هي دائماً متكاملة
ومتداعمة يفسر بعضها بعضاً، ولكننا نحن من نتخلف عنها في العلم أو
الفهم، وقد لا نلاحظ الحيثية ، أو نسبية الحديث تبعاً لذلك ، أو لا
نعرف النسبة بين النصوص، أو نخطئ في التطبيق، هكذا الأمر دائماً ،

(١) الحسن بن سلمان الحلبي (ت ق ٩) ، مختصر بصائر الدرجات ، النجف الاشرف :

٣٤٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
ومثل ذلك في الأحاديث الثابتة النسبة .

ولنأخذ مثلاً نرى فيه الصلة فيما بين النصوص القرآنية من جهة
وبينها وبين الأحاديث الثابتة من جهة ثانية وبينهما - (الآيات
والأحاديث) - وبين الواقع الخارجي من جهة ثالثة ، وليكن هذا المثل
بحكم المناسبة فيما أشارا به لعلي عليه السلام .

ففي قوله تعالى: ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد
منه ﴾^(١) .

أورد عدد من المفسرين منهم القرطبي^(٢) والرازي^(٣) والسيوطي^(٤)
وعدد من الحفاظ والمحدثين منهم ابن المغازلي^(٥) والحسكاني^(٦) وابن
عساكر^(٧) وبأسانيد متعددة بلغ بها بعضهم خمسة عشر اسناداً عن
الرسول وعلي عليه السلام : ان المقصود بمن كان على بينة من ربه هو
الرسول ﷺ وان المعني بالشاهد الذي يتلوه منه هو الإمام علي عليه السلام .

(١) (هود : ١٧) .

(٢) القرطبي : الجامع لاحكام القران (تفسير القرطبي) : ١٦/٩ .

(٣) الرازي : التفسير الكبير ، ١٧ / ٢٠١ .

(٤) السيوطي : الدر المنثور في التفسير بالماثور ، ٣ / ٣٢٤ .

(٥) ابن المغازلي : مناقب علي بن ابي طالب ، ٢٤٨ .

(٦) الحاكم الحسكاني : شواهد التنزيل لقواعد التفضيل ، ١ / ٣٥٩ .

(٧) ينظر السيوطي : الدر المنثور ، ٣ / ٣٢٤ ، قال : (واخرجه ابن مردويه وابن عساكر عن

علي (رض) في الاية ، قال : رسول الله ﷺ على بينة من ربه وانا شاهد منه

وتبدو دلالة الآية واضحة في تأشيرها رغم إيجازه بكلمة (يتلوه منه) الى صلة الشاهد الحميمة بالرسول قرابة وقرباً، مثل ما هي واضحة في ذلك أيضا في التأشير الى قيمة هذه الشهادة واهميتها، بحكم ان رؤية من (يتلوه منه) موصولة برؤيته في اليقين والشمول، وتبعاً لذلك أو - كما هو المفروض - في الامتداد مع الرسالة زماناً ومكاناً وآفاقاً في كل أبعادها النظرية والعلمية والتطبيقية شخصاً أو آثاراً علمية، ولذلك فشهادته ليست مجزأة يمكن ان تتسم بالنقص والمحدودية من جهة أو أخرى كما هي الشهادة الخارجية للبعيد المفصول او الشهادة الجزئية، بل هي شهادة المشارك التابع في الرؤية ومعرفة الرسالة والإحاطة بأبعادها و تمثل مفاهيمها وقيمها.

وهي بعد ذلك ليست بموقف خاص قولي او عملي لجانب معين من الرسالة، بل كما هي شهادة صاحبها ﷺ بجماع شخصيته، بفكره وخلقه وعلمه وعمله وآثاره ، وكل حركة وسكنة ونطق وسكوت، ولكل الرسالة في جميع جوانبها ولكل معنى جاءت به وله، والا فإنه لا يمكن ان يصبح مصداقاً للشاهد الذي (يتلوه منه) ، والآية تقول ، انه كذلك.

وفي آية اخرى هي قوله تعالى: ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾^(١) ، يرفع الله قيمة هذا الشهيد الى حيث تحصل بشهادته الكفاية بعد شهادة الله، وليس من المعقول ابداً أن تكون

(١) (الرعد : ٣١).

٣٥١..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
شهادة كهذه منقطعة عن الرسالة زماناً ومكاناً، أو ضمن العلاقة بأبعاد
الرسالة فتلك مما لا تحصل بها الكفاية على هذا المستوى الذي ذكرته
الآية قطعاً ، وإذن فلا بد أن تكون ممتدة مع الرسالة شاهدة معها ولها في
كل الأبعاد.

وما ذكرته الآية من كون الشاهد (عنده علم الكتاب) بيان آخر
لنفس المعنى الذي أشارت إليه الآية الأولى بكلمة (يتلوه منه) من كون
هذا الشاهد يمتلك الرؤية الشاملة والمعرفة الكاملة بالرسالة، مما تقتضيه
مثل هذه الشهادة لها.

فالعلم وحده هو ما يجعل للشاهد مثل هذه المكانة، ويجعل
شهادته تمتد مع الرسالة طويلاً وعرضاً وزماناً ومكاناً وليس شيئاً آخر،
وذلك لا ينفك قطعاً عن العلم بالكتاب وهو لا يحصل دونما صلة لصق
بمن نزل عليه.

ولذلك ورد بأسانيد عديدة ذكرها الثعلبي في تفسيره^(١)
والحسكاني^(٢) الحنفي (ق ٥) في شواهد التنزيل وغيرهما: ان علياً هو
المقصود بهذا الشهيد الذي عنده علم الكتاب وليس عبد الله بن سلام
كما زعموا، وهو ما تشهد له الآيات والأحاديث الأخرى والواقع
كذلك.

(١) الثعلبي (ت ٤٢٧ هـ) : الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، تفسير الثعلبي : ج ٥ ص
٣٠٣ .

(٢) الحاكم الحسكاني : شواهد التنزيل لقواعد التفضيل : ج ١ ، ص ٤٠٠ .

قال حجة الإسلام الغزالي: (لقد علم الأولون والآخرون ان فهم الكتاب منحصر الى علي عليه السلام، ومن جهل ذلك فقد ضل عن الباب الذي من ورائه كشف الحجاب الذي يتحقق عنده اليقين الذي لا يتغير بكشف الغطاء)^(١).

ولدى الربط بين هاتين الآيتين بما ورد من آيات وروايات مؤشرة لعلي عليه السلام من جهة أو أخرى - طبقاً لما قدمنا من منهج - نجد انها تتماسك جميعاً لتعطي نفس المعنى .

فلنأخذ مثلاً: دلالة الإشارة بكلمة ﴿ وانفسنا ﴾^(٢) للرسول وعلي (صلوات الله وسلامه عليهما) معاً في آية المباهلة، ولنأخذ دلالة الحصر والعطف في الولاية في قوله تعالى: ﴿ انما وليكم الله ورسوله ، والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾^(٣)

ولنتبه للتشخيص الذي لا يسمح بالتعميم في الجملة الحالية ﴿ وهم راكعون ﴾^(٤).

ولنذكر من الأحاديث الثابتة التي روتها الصحاح والمسانيد وكتب المناقب والتاريخ بل بلغت التواتر: قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: (علي مني وانا

(١) رواه المناوي في فيض القدير، ج ٣ ص ٤٦ .

٢ (ال عمران : ٦١) .

(٣) (المائدة : ٥٥) .

(٤) ينظر في شأن التخصيص ، الهيثمي : مجمع الزوائد ١٧/٧ ، والطبراني : المعجم

الوسيط ٢١٨/٦ ، والحاكم النيسابوري : معرفة علوم الحديث ص ١٠٢ .

٣٥٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
من علي^(١) ، او (علي نفسي) او (كنفسي) ، او (انا وعلي من نور
واحد) ، او (طينة واحدة) ، او قوله صلى الله عليه وآله (من كنت مولاه فعلي
مولاه)^(٢) ، او قوله صلى الله عليه وآله (علي مني بمنزلة هارون من موسى)^(٣) ، او
قوله صلى الله عليه وآله (انا مدينة العلم وعلي بابها)^(٤) ، وقوله : (انا وعلي حجة الله
على خلقه)^(٥) او غير ذلك .

نجد انها تتطابق جميعاً مع الآيات الكريمة وتؤكد المعنى الذي أدته
نفسه دونما اختلاف الشاهد الذي (يتلوه منه) الذي (عنده علم
الكتاب) من خلال دججه بالرسول في الآية الأولى والأحاديث بعدها ،
وما في معناه ومن خلاله ، اعطائه نفس الولاية المعطاة للرسول في الآية
الثانية والحديث الثاني ، ومن خلال تنظير وتشبيه بواقع تاريخي ديني
ثابت في الحديث الثالث (هارون من موسى) ومن خلال تمثيل وصورة

(١) سنن الترمذي : ٣٠٠/٥ .

(٢) مسند احمد ، بيروت دار صادر ١/٨٤ و ١١٨ ، وسنن ابن ماجه ، تحقيق محمد
فؤاد عبد الباقي طبعة دار الفكر ١/٤٥ ، وسنن الترمذي تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان
، طبعة دار الفكر ٥/٢٩٧ ، وفضائل الصحابة للنسائي ، بيروت دار الكتب العلمية
ص ١٥ ، ومستدرك الحاكم ، بيروت دار المعرفة ٣/١١٠ و ١١٦ و ٣٧١ .

(٣) السيوطي : الجامع الصغير بيروت : دار الفكر ٢/١٧٧ ، وكنز العمال بيروت : دار
الرسالة ١١/٦٠٣ .

(٤) مستدرك الحاكم : ٣/١٢٦ ، ومجمع الزوائد للهيثمي ٩/١١٤ ، والمعجم الكبير
للطبراني ١١/٥٥ .

(٥) ابن عساكر : تاريخ دمشق دار الفكر ٤٢/٣٠٩ ، وابن مردويه في المناقب : ٦٧ .

الحديث الرابع (الباب والمدينة).

ولكن ما مدى ارتباط ذلك بالواقع التاريخي لعلّي عليه السلام؟!؟

لقد ذكرنا ان الآيات والاحاديث الثابتة لا تتناقض فيما بينها ولا تناقض الواقع التاريخي أبداً ، وهي لا تعطي لأحد ما لا يوجد فيه ولا تصفه بما ليس من أهله، فهي لا تهيب الواقع بل تصفه ، فإذا وردت في أحد فإنما تشير الى واقع ذاته وصفاته وامكاناته واثاره ، ولذلك استعصت على التحريف وامتنعت بعدم الاختلاف فيما بينها ومع الواقع عن السرقة.

فهل يتطابق الواقع التاريخي للإمام علي عليه السلام من هذه النواحي جميعاً (علمياً وعملاً) ومواقف واثاراً ممتدة مع الاسلام مع ما قدمناه من دلالة الآيات والروايات؟

ان المسح الميداني للشواهد الثابتة من تاريخ الامام واثاره التي تمتد على ساحة الرسالة كلها عقيدة وتشريعاً - مما هو ماثل حتى الآن- وفي كل المبادئ والنهايات المتصلة بها والعلوم المنتسبة اليها كفيلاً بأن يجعلك ترى الامام كذلك حقاً - كما هو الرسول - شاهداً يغطي الافق.

لنبء ايها السادة - للتأسيس والتفسير العلمي- بمفردة ثابتة ومسلمة في تاريخ الإمام علي عليه السلام فجر حياته : لقد اختار الله له أن يولد في بطن الكعبة^(١) ، ولا يمكن تصور ذلك الا تكريماً سماوياً فقد

(١) الحاكم النيسابوري : المستدرک علی الصحیحین ٣/٤٨٣ ، ابن المغازلي : مناقب

٣٥٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان

انشق الجدار لأمه الطاهرة حين فاجأها المخاض حتى دخلت ، وما كان ذلك ليحدث الا اعجازاً، وقد كفله الرسول ﷺ طفلاً ورباه وليداً، ولما يبلغ الرابعة من العمر^(١)، منتزعاً له من أبوية كما ليس مألوفاً ، ان الالتفات لهذه الناحية على درجة كبيرة من الأهمية لفهم فرادة الامام علي عليه السلام فهماً علمياً من حيث التكوين النفسي والعقلي وتفسير ما عرف به من تميز في العلم والعمل والمواقف ، ومن ثم لإعطاء اشارة (يتلوه منه) في ضوء هذا الواقع التاريخي معنى يجاوز الحدود النسبية او المصاحبة المعتادة القائمة في غير الأمام الى الصلة بالله معرفة وتوحيداً وطاعة، والى الصلة في الروح والعقل والعلم والخلق، أوفي الطهر وذهاب الرجس مما اشار اليه ضمه اليه وزوجته وابنيه تحت الكساء دون غيرهم اجماعاً لدى نزول آية التطهير^(٢) او جعله واياه وزوجته وابنيه امة من بين الأمة في المباهلة^(٣) ، وهي خصوصية عظيمة الدلالة ، وان الامر ليس اعتبارياً بل هو اختيار الهى سابق قال تعالى: ﴿ ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض

(١) المستدرک علی الصحیحین ٥٧٦/٣ ، الکامل فی التاریخ لابن الاثیر ٥٨ / ٢ ، تاریخ

الطبری : ٥٧/٢ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ١٩٨/١٣ .

(٢) سنن الترمذي : ٣٠/٥ ، والمستدرک علی الصحیحین : ١٠٨/٣ .

(٣) مسند احمد : ١٨٥/١ ، وصحيح مسلم : ١٢١/٧ ، وسنن الترمذي : ٢٩٣/٤ ،

وسنن ابي داوود : ٦٠٦/١ .

والله سميع عليم ﴿١﴾ .

وقال تعالى: ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ (٢) .

كما أكد الرسول ﷺ في احاديث ثابتة كثيرة متواترة معنوياً رواها والحاكم في اشواهد التنزيل (٣) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤) والمتقي الهندي في كنز العمال (٥) وغيرهم : (اختارني الله وعلياً) .

وقال لفاطمة : وقد حزنت عند مرضه، واخبارها بقرب أجله : (يا فاطمة أما علمت ان الله اطلع الى الأرض اطلاعه، فاختر أباك فبعثه رسولاً، واطلع ثانية فاختر علياً وجعله وصياً) (٦) .

(١) (آل عمران : ٣٣ - ٣٤) .

(٢) (الحديد : ٢٦) .

(٣) روى اول الحديث في شواهد التنزيل ٢ / عن ابي جعفر الحضرمي الذي روى الحديث كاملاً في المعجم الكبير ١٥/٣ تحت الرقم (٢٦٧٤) .

(٤) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، حياة الامام الحسين عليه السلام، ص ١٩١ ، قم مجمع احياء الثقافة الإسلامية .

(٥) كنز العمال : ٦٤٣/١٣ .

٦ الهيثمي : مجمع الزوائد ٢٥٣/٨ ، والطبراني : المعجم الأوسط ٣٢٧/٦ ، الا ان لفظه فيهما (واختار بعلك واوحى الي ان انكحك إياه) ، والصدوق : كمال الدين وتمام النعمة ص ٢٥٧ ، الا ان لفظه (وجعله اماماً) ، وفيه ص ٢٥٢ ، في حديث الاسراء (يا محمد اني اطلعت على الأرض اطلاعة... ثم اطلعت الثانية فاخترت منها علياً وجعلته

٣٥٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

وان كفالة الرسول لعلي طفلا مجرد تأشيرة واقعية جاء بها الواقع
المقدر لعلي لا العكس او هي منه.

ان معرفة الشخصية النبوية من جهة وامكانات الوليد كما كشفها
تاريخه من جهة ثانية، تجعل من الممكن فهم الخصائص المميزة للإمام
فهما علميا واقعيا ، بإرجاعها مع الاستعداد الفطري الى آثار ما قدر له
من مقام سابق كان فيه نوره شقيقاً لنور الرسول ﷺ، ثم الى هذه الفترة
المباركة، ثم الامتداد عنها في حياته كلها لصقاً لا ينفك لرسول الله كما
هو ثابت دونما مناقشة.

يقول علي عليه السلام (سلوني عن كتاب الله، فما من آية نزلت في ليل
او نهار في سهل او جبل الا وانا اعلم متى نزلت وفيم نزلت وما
تأويلها) ^(١).

ويبدو واضحاً أن ذلك طبيعي جدا ومفهوم فيمن عاش لصقاً لا
ينفك للرسول ﷺ، بخاصة اذا كان في امكانات وايمان علي عليه السلام، أليس
هو المقصود دون اختلاف في الآية ﴿ وتعيها اذن واعية ﴾ ^(٢) ولذلك كان

وصيك (.

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق ٢٧/١٠٠ ، والبلاذري : انساب الاشراف ٢/٩٩ ،
والمتقي الهندي : كنز العمال ٢/٥٦٥ .

(٢) (الحاقة : ١٢) وينظر في نزولها في علي عليه السلام، ابن حجر : فتح الباري ١٣/٤٣٩ ،
وابن ابي الحديد في شرح النهج ٧/٢٢٠ ، وكنز العمال ١٣/١٣٦ ، والثعلبي الكشف
والبيان في تفسير البيان ١٠/٢٨ .

﴿خير البرية﴾^(١) بعد الرسول ﷺ .

ايها السادة

ان التاريخ الثابت لعلي عليه السلام مع الرسول ﷺ وبعده، خلقاً ومواقف علماء وعملاً، والآثار العملية التي ما زالت ماثلة حتى الآن مما لا مجال للشك في نسبتها اليه تتواصل لتعبر عن هذا الواقع دونما تخلف ولا اختلاف.

وليس بمقدوري ان اعرض بعضاً من حلقات هذا التاريخ المضى بما فيه من شوامخ تتجاوز الحدود العادية ، التي تتناولها الابصار حتى ولو على مستوى التأشير.

ولا استطيع كذلك ان اقدم نماذج من اثاره في الموضوعات المختلفة احاديث وتفسيراً وخطباً وكتباً ووصاياً وعهوداً وجوامع كلم.

ان الباحث ليجزم انه لا يوجد معنى ذو بال جاء به اوله الاسلام يغيب عنه الامام عليه السلام مدلاً عليه - او مبيناً له أو باسطاً لمداه سعة وعمقاً او مستنبطاً منه او مصححاً لتصوره او دافعاً للشبهات عنه، او مذكراً به، او داعياً اليه، او ناهياً عن تركه، وحين ترى ذلك ميدانياً وتتحققه تعرف معنى (الشاهد الذي يتلوه منه) (الذي عنده علم الكتاب) ، عياناً دون شك .

(١) تفسير الطبري ٣٠/٣٣٥ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/٣٧٩ ، وابن حجر لسان

وتعلم معنى ان لا يحتمل رسول الله ﷺ للمسلم ان ينال من علي او يتنكر له فيغضب حين يكون ذلك ويتغير وجهه، روى الطبراني في الاوسط والهيثمي في مجمع الزوائد والمتقي في كنز العمال، ومسند احمد سنن النسائي وغيرهم: ان بريدة الاسلمي حمل كتاباً من خالد ينال من علي وكرر بريدة مضمونه ، قال بريدة فتغير وجه رسول الله ﷺ او رأيت الغضب في وجهه، فقلت : يا رسول الله هذا مقام العائذ بك، بعثني مع رجل وأمرني ان اطيعه، فقال ﷺ (لا تقع في علي فانه مني وانا منه وهو وليكم بعدي) ^(١) .

وفي الهيثمي في مجمع الزوائد فخرج (اي الرسول) مغضباً فقال: (ما بال اقوام ينتقصون عليا من تنقص عليا فقد تنقصني ومن فارق عليا فقد فارقتني ان عليا مني وانا منه خلق من طينتي وخلق من طينة ابراهيم وانا افضل من ابراهيم) يقول بريدة فقلت: يا رسول الله بالصحة الا بسطت يدك فبايعتني على الاسلام جديداً ، قال فما فارقتة حتى بايعته على الإسلام ^(٢) .

وتعلم ايضا معنى ان لا يتقدمه ابو بكر وهو خليفة ذو سن ويقول فيما رواه محب الدين الطبري في الرياض النظرية وابن حجر في الصواعق : (ما كنت لا تقدم رجلا سمعت رسول الله يقول علي مني

(١) المعجم الأوسط ١٦٣/٦ ، مجمع الزوائد ١٢٨/٩ ، كنز العمال ٦٠٨/١١ ، مسند

احمد ٣٥٦/٥ ، سنن النسائي ١٣٣/٥ .

(٢) مجمع الزوائد ١٢٨/٩ .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٣٦٠
بمنزلي من ربي^(١) .

وتعلم ما معنى ان يقول له رسول الله فيما رواه ابن الاثير في اسد الغابة والمناوي في كنوز الحقائق: (انت بمنزلة الكعبة تؤتى ولا تأتي)^(٢)
وعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (يا علي إن فيك مثلا من (قل هو الله أحد) من قرأها مرة فقد قرأ ثلث القرآن ، ومن قرأها مرتين فقد قرأ ثلثي القرآن ، ومن قرأها ثلاثا فقد قرأ القرآن كله .
يا علي ومن أحبك بقلبه كان له أجر ثلث الأمة ، ومن أحبك بقلبه وأعانك بلسانه كان له مثل أجر ثلثي هذه الأمة ، ومن أحبك بقلبه وأعانك بلسانه ونصرك بسيفه كان له مثل أجر هذه الأمة)^(٣) .

ايها السادة

لا اعظم في الدلالة على الامامة العلمية والدينية لعلي بعد آثاره العلمية، من ان يرجع اليه الصحابة جميعا ويرجعون اليه بما فيهم الخليفتان الاول والثاني ولا يرجع هو الى احد، وفي ذلك وقائع تفوت الحد .

ولا اعظم في الدلالة على حقيقة خارجية قائمة من ان تتفق الرؤية

(١) الرياض النظرة ٣/١١٩ ، ابن حجر : الصواعق المحرقة ١٠٦ .
(٢) ابن الاثير : اسد الغابة ٤/٣ ، والمناوي كنوز الحقائق مخطوط ص ١٠٠ ، مكتبة جامعة الملك سعود قسم المخطوطات (٧٦٢٤ ف ٣/١٦٠) .
(٣) المجلسي : بحار الانوار ٣٩/٢٨٨ ، والسيد هاشم البحراني : تفسير البرهان ٥/٧٩٧ .

٣٦١ في الدين والعلم والحياة والإنسان
والوصف لها بين الناس على اختلاف ما بينهم من فواصل وابعاد في
الزمان والمكان والدين والثقافة والذوق والجنس.

وشواهد الاتفاق في الرؤية لعلي كثيرة وهامة وممتعة لا مجال لأن
اعطي منها في هذا الموقف الخطابي حد الوفاء، فلنأخذ أمثلة خاطفة
تشير الى ذلك :

قال ابن عباس رضي الله عنه وقد سأله معاوية ما تقول في علي بن أبي
طالب عليه السلام، فقال :

(رحم الله أبا الحسن ، كان والله علم الهدى وكهف التقى ومحل
الحجى وطود النهى ونور السرى في ظلم الدجى ، داعياً إلى المحجة
العظمى ، عالماً بما في الصحف الأولى ، وقائماً بالتأويل والذكرى ،
وحائداً عن طرق الردى ، خير من آمن واتقى وسيد من تقمص
وارتدى وأفضل من حجّ وسعى ، وأسمح من عدل وسوى ، وأخطب
أهل الدنيا..، لم ترَ عين مثله ولا ترى إلى يوم القيامة واللقاء ، من لعنه
فعليه لعنة الله والعباد إلى يوم القيامة)^(١).

ووصفه الصحابي عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه : (ولا وقع بأمر قط
الا وكان معه من الله برهان وفي يديه من الله سبب)^(٢).

وقال صعصعة بن صوحان : (لم يقل فيه مستزيدلوانه،
ولامستقصرانه، جمع الحلم والعلم والسلم والقراية القريية والهجرة

(١) الهيثمي : مجمع الزوائد ٩/١٥٩ ، والطبراني : المعجم الكبير ١٠/٢٣٩ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ١/١٠٦ ، طبعة الحلبي وشركائه .

القديمة والبصر بالأحكام والبلاء العظيم في الإسلام^(١) .

وقال معاوية لقيس بن سعد الأنصاري: رحم الله أبا حسن فلقد كان هشاً بشاً ذا فكاهاة ، - قاصدا ان يغمز فيه - ، فقال قيس: (نعم كان رسول الله ﷺ يمزح ويتسم الى أصحابه وأراك تسرحسوا في ارتغاء وتعيبه بذلك ، أما والله لقد كان مع تلك الفكاهاة و الطلاقة ، أهيب من ذي لبدتين قد مسه الطوى ، تلك هيبة التقوى وليس كما يهابك طغام أهل الشام)^(٢) .

ليس من العجيب الملفت ان يقول ضرار بن ضمرة الكناني في بعض ما وصف به عليا بإلحاح من معاوية: (كان بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه) ، ويقول (كان والله غزير الدمعة طويل الفكرة ، يقلب كفيه و يخاطب نفسه ، كان والله كأحدنا ، يدنينا اذا اتيناه ويجيبنا إذا سألناه وكان مع تقربه الينا وقربه منا لا نكلمه هيبة له ، فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين ، لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله) ، فيقول معاوية الذي حارب عليا حياته كلها : كذا كان ابو الحسن رحمه الله^(٣) .

أليس من العجيب الملفت ايها السادة ، ان يقول الفقيه والفيلسوف

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق ٩٠/٢٤ .

(٢) ابن ابي الحديد : شرح نهج البلاغة ٢٥/١ .

(٣) ابن عساكر : تاريخ دمشق ٤٠١/٢٤ .

٣٦٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان

والمفسر السيد صاحب الميزان وهو يسوق بعضاً مما ورد عن الإمام علي في التوحيد في ميزانه ثم يقول : (انه ليس بحاجة لان يعقد بحثاً فلسفياً لهذه المسألة لان كل المقدمات التي يمكن ان يبنى عليها البرهان الفلسفي مستوفاة في كلام الإمام علي عليه السلام لا تزيد بشئ) .

ثم يتفق معه على هذا الأحكام في الكلام استيعاباً واستدلالاً كاتب ومفكر مسيحي هو الاستاذ جورج جرداق فيقول : ﴿ لا تفوتها غوار . إذا هو عمل في موضوع أحاط به بعداً فما يُفَلت منه جانبٌ ولا يُظلم منه كثيرٌ أو قليل ، وغاص عليه عمقاً ، وقلَّبه تقلبياً ، وعركه عركاً ، وأدرك منه أخفى الأسباب وأمعتها في الاختفاء كما أدرك أصدق النتائج المترتبة على تلك الأسباب : ما قرُبَ منها أشدَّ القرب ، وما بُعدَ أقصى البُعد ^(١) .

ويقول من خصائص الكلام العلوي ، (هذا التسلسل المنطقي تراه في كلام علي عليه السلام انى اتجهت ، وهذا التماسك بين الفكرة والفكرة ، حتى تكون كل منها نتيجة طبيعية لما قبلها وعلّة لما بعدها) ^(٢) .

قال العقاد رحمه الله وقد وقف عند حكمه : (تحار في أي مزاياها أفضل وأقوم ، صدق المعنى أو الأداء أو جودة الصناعة ،) وذكر حديث الرسول صلوات الله عليه وآله (علماء أمتي كأنبياء بني اسرائيل) وقال (فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام علي في حكمته التي

(١) جورج جرداق : روائع نهج البلاغة ص ١٠ .

(٢) نفس المصدر .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٣٦٤
تقارن بحكم أولئك الأنبياء) وقال - وهو يذكر حكم سليمان للمقارنة
(وتزيد عليها - أي حكم الإمام عليّ عليه السلام - انها أبدع في التعبير وأوفر
نصيها من ذوق الجمال) (١) .

وربما ارتجل عليّ عليه السلام الإجابة لسائل يعرض له ، فاذا هي لدى
الحكماء - فيصل وميزان ، كان الموقف - لدى رجل يتحدد بالوجوه
والأسماء ، فلما رآها متقابلة - في حرب الجمل - تشظى واهتز ،
وأفضى للإمام عليّ عليه السلام بحاله ، فقال له عليّ عليه السلام : (انك ملبوس عليك ، ان
الحق والباطل لا يعرفان بأقدار الرجال ، اعرف الحق تعرف اهله ،
واعرف الباطل تعرف اهله) (٢) .

فإذا هذه الكلمة لدى ابي حامد الغزالي رحمه الله في المنقذ من
الضلال : المعيار الذي يجب ان تقاس به المواقف دائما ، قال : ﴿
والعاقل من يقتدي بسيد العقلاء علي في قوله (اعرف الحق تعرف
أهله) (٣) .

وفي الجزء الثاني من الفتنة الكبرى ينقل طه حسين اجابة
الإمام عليّ عليه السلام ثم يعقب بقوله : (وما أعرف جوابا أروع من هذا الجواب

(١) عباس محمود العقاد : عبقرية الامام علي عليه السلام ، بيروت : المكتبة العصرية ص ٢٠٢

(٢) البلاذري : انساب الاشراف ٢٣٨/٣ .

(٣) الغزالي : المنقذ من الضلال ص ٨١ .

٣٦٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
- الى آخر ما قال-^(١).

والأمثلة في ذلك تفوت العد، فاقراً ما قاله الشريف الرضي في
وصف كلام الإمام وما قاله ابن ابي الحديد ، ثم ما قاله محمد عبده وما
قاله جورج جرداق .

وقال الدكتور المفكر شبلي شميل : (علي نسخة مفردة لم ير لها
الغرب ولا الشرق صورة مطابقة لها لا في القديم ولا في الحديث)
واقراء ما قالته جماعة الوافدات على معاوية من النساء في وصف
علي عليه السلام في العقد الفريد وبلاغات النساء لابن طيفور، فهو من امتع ما
أثر في ذلك ومن أكثره دلالة.

وترى ايضاً معنى ما قاله رسول الله صلى الله عليه وآله فيما رواه ابو نعيم في
الحلية لابي برزه الاسلمي : (يا أبا برزه ان رب العالمين عهد لي في علي
عهدا فقال انه راية الهدى ومنار الايمان وامام اوليائي ونور جميع من
اطاعني، يا ابا برزه علي ابن ابي طالب اميني غداً في القيامة وصاحب
رايتي في القيامة، على مفاتيح خزائن رحمة ربي) وفي الرواية الاخرى
بعدها ﴿وهو الكلمة التي الزمتها المتقين، من احبه احبني ومن ابغضه
ابغضني﴾^(٢).

أيها السادة

(١) طه حسين : الفتنة الكبرى علي وبنوه ص ٤٠ ، مصر ، دار المعارف .

(٢) الحلية ١ / ٦٦ - ٦٧ ، دار الكتاب العربي .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٣٦٦
ختاماً نسأل الله أن يثبتنا على محبته متصلة بمحبة الله ورسوله
والمعصومين من أبنائه حتى نلقاه وفي ما بعد، وان يوسع في آفاق معرفتنا
له وصلتنا به وولايتنا له انه سميع مجيب .

البحث السابع

جوانب من عمل

الإمام الصادق عليه السلام

جوانب من عمل الإمام الصادق عليه السلام ^(١)

لكي نتبين - بوضوح - العوامل المباشرة ، وغير المباشرة التي أملت على الإمام عليه السلام نهجه في العمل ، وحددت له أسلوبه وطريقته في الإصلاح، علينا إن نلم مجملا في الأوضاع العامة للأمة في زمنه ، و تفهم الظروف التي كانت تحيطه بصورة خاصة ، ثم نضع فيه حسابنا بعد ذلك الغاية التي يحيا لها الإمام عليه السلام ويعمل من أجلها ذلك ، لأنه لهذه المسألة أهمية خاصة في معرفة أبعاد حركة الإمام عليه السلام وأعماله ، ووعي الحكمة التي تكمن وراء اختياره هذا الأسلوب أو ذاك دون غيرها حيث سهل عندئذ تفسير المواقف المختلفة للائمة من أهل البيت عليهم السلام تفسيراً صحيحاً بعيداً عن الخطأ الذي وقع به البعض في تفسيرها على أساس اختلاف المزاج أو الذهنية أو غيرهما مما قد يصح بالنسبة لغير المعصومين عليهم السلام :

(١) القيت في الموسم الثقافي الذي نظمته (الجمعية المؤسسة لجامعة الكوفة) باسم الإمام الصادق عليه السلام في مركزها في بغداد . ونشر في السنة الثانية من مجلة النجف التي كان رئيس تحريرها محمد مظفر ، جماد الأولى ١٣٨٨ هـ ، اب ١٩٦٨ م .

واقع الأمة ، وظروف الأمام عليه السلام

كانت الأمة من الناحية العملية بعيدا عن الحياة الإسلامية كما يفهمها الأمام بل أن الواقع النظري للإسلام في ذهنية اغلب الأمة لم يكن أفضل من واقع العملي. ذلك لأن أنت شاري الوضع في الحديث، والفتيا بالرأي من جهة، وفساد الجهاز الحاكم وانحرافه من جهة ثانية، لم يتركا فرصة لتعرف الأمة واقع الإسلام أو تحياه .

ولست بحاجة إلى أن أقدم للتدليل على ذلك نماذج من مظاهر الفساد والبعد في الواقع الفكري للأمة أو في الحياة السياسية أو الاجتماعية أو الأخلاقية أو غيرها ، فلست أخال أن هناك من يلم بطرف منها. وقد أدى هذا الواقع بطبيعته إلى ظهور حركات غريبة، ومبادئ فاسدة هيأت لها الأوضاع أن تستشري زمن الإمام عليه السلام و حتى أصبح وجودها خطرا يهدد وجود العقيدة ووجود التشريع .

هذا كله يضاف إلى ما يعتمل داخل الأمة من صراع سياسي ومذهبي عنيف، جعله الأمة في وضع يسوده التمزق ويشمله الاضطراب ،

فكان لا بد للإمام الصادق عليه السلام باعتبار المسؤول الأول في الأمة أن يواجه كل ذلك ، كان لابد أن يواجه هذا البعد الذي تعيشه الأمة في أوضاعها وفي تصوراتها ، وان يواجه الانحراف في شؤون الدولة والحكم وكان لابد له أيضا أن يقابل التيارات التي تهدد وجود العقيدة و تهدد وجود التشريع ومن السهل على إنسان غير الإمام ممن لا يحمل إزاء الإسلام ما يحمل من المسؤولية أن يختار من جوانب العمل السابقة ما

٣٧١ في الدين والعلم والحياة والإنسان

يلتئم ومزاجه ، ويلتقي واستعداده ثم يعمل له ، ويتجرد من اجله تاركاً النتيجة بالنسبة للهدف بيد القدر، أما الإمام فلن يستطيع ذلك ، لان الأئمة كما يؤكدون وكما يثبت واقعهم لا يعيشون لأنفسهم ولا يعملون لمصالحهم ، ولا تحكمهم الاعتبارات الآنية للخسارة أو الربح ، وإنما يعيشون للمبدأ. والمبدأ هو الذي يحكم خطواتهم ، ويحدد حركاتهم ويملي عليهم ما يسلكونه من اسلوب في هذا الواقع أو ذاك ، فماذا فعل الإمام عليه السلام وهو يعيش في طوق محكم من الرقابة الدائمة والحصار الشديد في أكثر الفترات .

الإمام والحكم

نظر الأمام إلى واقع الأمة فيما هي عليه من وضع فكري وسياسي نظرة دقيقة مستوعبة ، قدر فيها مدى قربها أو بعدها من رسالته ثم وزن ما يملك من قوى وإمكانات حقيقية في هذا الواقع، فرأى أن الاستيلاء على الحكم أو الحفاظ عليه في مثل ظروفه أمر لا يقع في نطاق قدرته، و أن الدخول في صراع مكشوف في مسألة الحكم قضية غير مضمونة النتائج إن لم تكن مؤكدة في الفشل، لهذا أبى أن يدخل طرفاً في مثل هذا الصراع، ورفض أن يتقبل العروض التي يتلقاها من بعض الزعماء رفضاً باتاً و شديداً ، فحين جاءه رسول أبي سلمة الخلال يحمل منه كتاباً يذكر فيه للإمام عليه السلام استعداده للدعوة له وتخليه عن بني العباس ، قال الأمام عليه السلام : ما أنا وأبو سلمة، وأبو سلمة شيعة لغيري. قال: إنني رسول فتقرأ كتابه و تجيبه فدعى أبو عبد الله بسراج ، ثم اخذ كتاب أبي سلمة فوضعه على استخراج حتى احترق ، وقال لي رسول عرف

صاحبك بما رأيت

وكتب إليه أبو مسلم الخراساني يقول: (إني قد أظهرت الكلمة ودعوت الناس عن مولاة بني امية إلى مولاة أهل البيت عليهم السلام فان رغبت فلا مزيد عليك)^(١).

فكتب إليه الإمام عليه السلام (ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني)^(٢).

وبهذا يكشف لنا الإمام عليه السلام أن الدافع لموقفه في رفض هذه العروض كان علمه بعدم واقعيتها، وصدقها من جهة ما أنت من رجالي، ومعرفته بعدم وجود القوة الكافية التي تسند رسالة الإمام عليه السلام في طلب الحكم ولا الزمان زماني، ومما يلقي ضوءاً على واقع أبي سلمة والخرسان وحقيقة حركتها في نظر الإمام جوابه لعبد الله بن الحسن حين جاء إليه يحمل رسالة أبي سلمة قائلاً للإمام عليه السلام: انه يخبره بإجتمع شيعة أهل البيت عليهم السلام بخراسان.

فقال الإمام عليه السلام يا أبا محمد ومتى كان أهل خراسان شيعة لك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان، وأنت أمرته بلبس السواد، وهؤلاء الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو جهت فيهم؟ ن وهل تعرف منهم أحداً^(٣) بل أن الإمام عليه السلام تنبأ على ضوء تقديره لمجريات الأمور وإحاطته بملابسات الأوضاع، بانتهاء الخلافة إلى العباسيين دون

(١) المسعودي، مروج الذهب ٣/٣٥٤ طبعة دار الأندلس.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل ١/٢٤١.

(٣) المسعودي، المصدر السابق.

٣٧٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
غيرهم ممن تصدى لها آنذاك فحين جاءه عبد الله الذي سبق ذكره قال له
: إن الدولة ستتم لهؤلاء القوم ولا تتم لأحد من آل أبي طالب :
ولذلك ، فان من يزعم أن الإمام عليه السلام ، رفض الحكم مع مواتاة
الظروف له لانه يرى أن طبيعة الدين تنافي طبيعة السياسة يرتكب خطأً
واضحاً من الناحية التاريخية في فهم الإمام عليه السلام ، وفهم موقفه من هذه
القضية خاصة ^(١) .

أن كل ما في الأمر كما يصرح الإمام عليه السلام نفسه انه لا يملك قادة
يحملون فكرته ، ويتمثلون رسالته ، وبدون ذلك لا يمكن أن تتوفر
للحركة شروط النجاح : خاصة إذا كانت حركة مبدئية كحركة الإمام
عليه السلام ولن تجدي في هذا المجال الجماهير التي لا ترتبط بالإمام عليه السلام إلا
على المستوى العاطفي الساذج مما يجعلها في أي وقت عرضة للانفصام ،
والبعد والتخلخل ، وهذا ما أوضحه الأمام عليه السلام لبعض الصحابة ()
فعن سدير الصيرفي قال : دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له : والله
ما يسمعك القعود ، فقال عليه السلام : ولم يا سدير ؟ قلت لكثرة مواليك
وشيعتك وأنصارك فقال عليه السلام : يا سدير وكم عسى أن يكونوا ؟ ، قلت
: مائة ألف قال عليه السلام : مائة ألف ؟ قلت : نعم ومائتي ألف ، قال عليه السلام :
مائتي ألف ؟ قلت نعم ، ونص الدنيا ، قال فسكت عني . ثم قال له

(١) انصبت المحاضرة على مناقشة الدكتور صادق مهدي السعيد ، الذي شارك في
الموسم ايضاً ، ثم وبعد أن انهى محاضرتة دعا علماء الدين وبغير مناسبة أن يقتلدوا الامام
الصادق عليه السلام في ترك العمل السياسي ، لان طبيعة الدين .. الخ .

الإمام عليه السلام ، وقد ذهب معه إلى ينبع قال له وهو ينظر إلى قطع من الجداء : و الله يا سدير لو كان الشيعة بعدد هذا الجداء ما وسعني القعود^(١) لقد نظر سدير إلى الجمهور فكان ما ذكره من العدد ، ونظر الإمام عليه السلام إلى الخاصة الذين يستطيعون قيادة التجربة ، وإنجاحها في مستوى التطبيق ، فلم يجد من العدد ما يفي بالحاجة ولذلك رأى أن يظهر الانصراف شخصياً بصورة كاملة عن مسألة الحكم ، ليمارس العمل داخل الأمة ، في نشر مفاهيمه ، وبث مبادئه ، وإعداد القوة اللازمة على المدى لإنشاء هذا الحكم ، أو على الأقل لإبقاء الأسس النظرية لمثله محفوظة لدى الأمة . ولا يهم الإمام عليه السلام كثيراً أن لا يحصل هو على نتيجة سعيه في هذا المجال ، فقد سبقه آباؤه في العمل على هذا المستوى ، مبشرين الأمة أن دولتهم ستظهر يوماً ما ، ما دامت أساسها النظرية محفوظة لدى الأمة .

ولهذا فقد كان بحسب الإمام عليه السلام أن يوجد ركائز تحمل وجهة النظر الإسلامية في مسائل الحياة ، بحسبه أن ينشئ قدوات للأمة من تلامذته تعرف الطريق ، وتدرك الغاية ، وتتابع السير على نفس الخطى ، فما هو الذي مارسه الإمام ، لهذا الغرض ، وما هي مجاملاته .

عمل الإمام عليه السلام ومجالاته

كان عمل الإمام عليه السلام لتحقيق أهدافه السابقة يجري في مجالين بنفس

(١) الكليني ، الكافي / ٢ / ٢٢٣ - ٢٤٢ ، مطبعة دار الكتب الإسلامية ط طهران .

الوقت احدهما سري ، وثانيهما علي

العمل السري

مقاومة الإمام عليه السلام السرية للأوضاع سلكت طريقتين أولاهما :
الطريقة السلبية : و تتمثل بأمره لشيئته والمرتبطين به بمقاطعة الحكم ،
وتجنب التعامل معه والتعاون وإياه .

ففي موثقة مسعدة بن صدقة قال : سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن
قوم من الشيعة يدخلون في أعمال السلطان يعملون لهم ، ويجبون لهم ،
ويوالونهم ، قال : (ليس هم من الشيعة ولكنهم من أولئك) .

ثم قرأ عبد الله هذه الآية : (لعن الله الذين كفروا من بني إسرائيل
على لسان داود وعيسى ابن مريم إلى أن قال : ثم احتج الله على
المؤمنين الموالين للكفار ، فقال : ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا
لبئس ما قدمت لهم أنفسهم إلى قوله ولكن كثيراً منهم فاسقون) ، فنهى
الله عز وجل أن يوالي المؤمن الكافر تقية^(١) .

وقال عليه السلام : (لا تعنهم على بناء مسجد)^(٢) .

وقال عليه السلام : (إياكم أن يخاصم بعضكم بعضاً إلى أهل الجور) ، وقال
عليه السلام : (ايام مؤمن قدم مؤمناً في خصومة إلى قاض أو سلطان جائر
ففضى عليه بغير حكم الله فقد شركه في الإثم) .

(١) الخميني ، المكاسب المحرمة ٢/ ١١١ ب ٤٥ عن الوسائل باب التجارة .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٢ عن الوسائل أيضا ، كتاب التجارة ب ٤٢ .

وقال عليه السلام : (أما رجل كان بينه وبين أخ له ممارسة في حق فدعاه إلى رجل من إخوانكم ليحكم بينه وبينه فأبى إلا أن يرفعه إلى هؤلاء كان بمنزلة الذين قال الله عز وجل فيهم ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم امنوا بما انزل إليك ، وما انزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به)^(١) ، وسئل عن قاض بين فرقتين يأخذ من السلطان على القضاء الرزق ، فقال عليه السلام : (إن ذلك سحت)^(٢) .

وكان يوضح لهم أن الحكم من حقه وحده .

قال عليه السلام : اتقوا الحكومة ، فان الحكومة للإمام العالم بالقضاء العادل بالمسلمين كني أو وصي نبي وبهذا يؤكد الإمام عليه السلام حقه في الحكم ، ويثبت وجهة نظره في الأوضاع ، وينجح في صيانة أصحابه عن الاندماج في جسم الوضعية القائمة ، أو التأثر بها ، لقد عبأهم نفسياً بهذه العملية ضد الوضع الراهن في وقته ، فكانت اسلوباً للبناء ، بالنسبة لهم واسلوباً للهدم ، بالنسبة للحاكم القائم .

وثانيها الطريقة الايجابية (السرية) وتمثل بجانبين :

الجانب الأول

تأييده عليه السلام للحركات المخلصة ، التي قادها أهل بيته أمرا بالمعروف

(١) ابن بابويه ، من لا يحضره الفقيه ٣/٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤ .

٣٧٧..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

ونهيًا عن المنكر ، فحين نهض زيد ضد الدولة الأموية سنة كان الإمام عليه السلام من ورائه يدفع الناس إليه ، ويحضهم على الوقوف معه وعندما بلغه قتله (بلغ ذلك منه كل مبلغ وحزن له حزناً شديداً عظيماً حتى بان عليه وفرق من ماله على عيال من أصيب مع زيد من أصحابه ألف دينار^(١) وقال فيه (رحم الله عمي زيدا لو ظفر لوفى إنما دعا إلى الرضا من آل محمد وأنا الرضا)^(٢) .

و حين خسرت حركة بني الحسن عليه السلام تألم الإمام لذلك وبكى ، وحمل الناس مسؤولية التقصير إزاءهم .

روى الحسين بن زيد بن علي عليه السلام : أن الإمام عليه السلام لما نظر إلى عبد الله بن الحسن ، وإبراهيم بن الحسن وبقية أهلهم مقيدين وهو في مسجد رسول الله صلوات الله وآلائه هملت عيناه حتى جرت دموعه على لحيته ثم اقبل علي فقال : يا أبا عبد الله : والله لا تحفظ لله حرمة بعد هذا والله ما وفت الأنصار لرسول الله صلوات الله وآلائه ، أعطوه من البيعة على العقبه على أن يمنعوه وذريته مما يمنعون منه أنفسهم وذرايرهم^(٣) .

ويقول أبي عمير الكندي : (دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال : هل لكم على بآل الحسن ؟ وكان قد اتصل بنا خيرهم فلم نحب أن نبدأه به ، فقلنا أرجو أن يعافيه الله ، فقال عليه السلام : وأين هم من العافية

(١) الأمين العامي ، أعيان الشيعة ١١٣/٣٣ نقلا عن الإرشاد للمفيد .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣ .

(٣) رمضان لاوند ، الامام الصادق علم وعقيدة ص ٩٠ عن مقاتل الطالبين للاصفهاني .

؟ ثم بكى حتى علا صوته وبكىنا^(١) .

ثم قال حدثني أبي عن فاطمة بنت الحسين . قالت سمعت أبي يقول : يقتل منك ، أو يصاب منك نفر بشرط الفرات ما سبقهم الأولون ولا يدركهم الآخرون ، وانه لم يبق من والدها غيرهم .

فهذا الثناء من الإمام عليه السلام على القائمين بأمر هذه الحركات وهذا الألم والبكاء عليهم لا يمكن أن يلتئم مع وجهة نظر الامامية إلا على أساس كونها واجهات ظاهرة لعملهم ترتبط بهم بشكل أو بآخر أو هي كما قيل في شأن زيد لا تعمل إلا من اجل انتزاع الأمر للرضا من آل محمد ، ولو كانت تدعو لنفسها في عرض الإمامة لما جاز الثناء عليهم أو البكاء لهم ، ولما اختلف حسابهم عن الأخير من بني أمية أو بني العباس من مغتصبي الحكم .

الجانب الثاني من عمله الايجابي السري

ممارسة الإمام عليه السلام للقيادة في حدود الارتباط الخاص بينه وبين شيعته ، حيث كان يعمل بجد من اجل توجيههم فكرياً ، وسلوكياً ليصنع منهم قاعدة لحركته تمتد داخل الأمة ، وتنتشر في أوساطها ، وتؤثر على مجرى الأفكار والأحداث فيها بسبيل تحقيق الهدف الأكبر الذي يعمل الإمام من اجله ، وتصحيح الانحرافات المختلفة التي حدثت في إطار الواقع السياسي والاجتماعي آنذاك إلى حيث يعود هذا الواقع

(١) المجلسي ، البحار ٤٧/٣٠٢ طبعة طهران الجديدة .

٣٧٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان

منسجماً مع الخط الفكري الذي يحملة أهل البيت عليهم السلام وقد كان يقيم أحكام الله (تعالى) داخل هذا الكيان الخاص من شيعته ، ضمن اطار التقية ، فكان يتسلم الضرائب المالية من الخمس والزكاة ، ويوزعها وينفق في شؤون عمله منها ، وقد جلبه المنصور عدة مرات بموجب هذه التهمة .

وكان ينصب القضاة لأصحابه ، ويأمرهم بالرجوع إليهم ، وتقبل ما يأمر به وما يقضون .

قال عليه السلام : (انظروا إلى رجل منكم يعلم شيئاً من قضايانا ، فاجعلوه بينكم قاضياً فاني قد جعلته قاضياً ، فتحاكموا إليه)^(١) .

وقال عليه السلام في حديث آخر : (انظروا إلى من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا ، وحرامنا ، وعرف أحكامنا افرضوا به حكماً ، فاني قد جعلته حاكماً فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه ، فإنما يحكم الله استخف وعلينا رد)^(٢) .

وقد حرص على أن يصوغ شخصيات شيعته بحيث يصبحون من الناحية الفكرية نموذجاً مجسداً للفكرة ، ويؤثرون فيمن اتصل بهم ، أو تعرف عليهم قال عليه السلام : (أوصيكم بتقوى الله ، واجتناب معاصيه وأداء الأمانة لمن ائتمنكم وحسن الصحابة لمن صحبتموه وان تكونوا لنا دعاة

(١) محمد جواد مغنية ، فقه الامام الصادق عليه السلام ٦/٧١ .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٠ .

كان عمله هذا غير ذلك من أحاديث الوجهة كثير ، كله وراء علم الحكم آنذاك فقد أمر أصحابه أن يحيطوا ارتباطهم به وهدف لقائهم معه ، وعملهم وإياه بسياج من الكتمان اتقاء من الحكم الذي كان يراقبه بدقة ، واستمرار قال عليه السلام: للمعلى بن خنيس (يا معلى اكنم أمرنا ولا تذعه)^(٢) ، وله أحاديث أخرى بهذا المضمون .

وقد استمر هذا العلم بالنسبة لأهل البيت عليه السلام جميعاً ، ورغم أن الدولة تعلم بوجوده أساساً فإنها لا تعلم بحدوده ، ومدى خطورته ، ومن هنا كان الإمام عليه السلام ومن قبله آباؤه عليه السلام يتعرضون للملاحقة والمراقبة والاضطهاد وقد كان المنصور مرات عديدة ران يفتك بالإمام عليه السلام لو لا انه كان يتخلص منه بما أوتى من حكمة ، وحسن اسلوب .

العمل العلني

أتاحت العمل العلني للإمام عليه السلام في المجالات التي سنتحدث عنها وقد كان حتى هذا القدر محرماً على آباءه عوامل ذكرها مؤرخو حياته لا يدخل في حسابنا التحدث عنها ، وإنما يعيننا أن نفهم ما استفاده الإمام عليه السلام لهدفه من هذا العمل .

لقد ذكرنا سابقاً ، إن جهل الأمة بالإسلام عقيدة وأحكاماً ،

(١) أسد حيدر ، الامام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة ٤/٧١ .

(٢) الحر العاملي ، وسائل الشيعة ٤٦٥/١١ م ٦ ، طهران .

٣٨١..... في الدين والعلم والحياة والإنسان

وانتشار الشبهات التي تبثها الحركات الناشئة الغربية هي المشكلة الكبرى التي كانت تواجه الإمام عليه السلام وتباعد بينه وبين هدفه ولذلك اتخذ عمله مجالين .

الأول : نشر الإسلام ، وبث الوعي بتعليم مفاهيم العقيدة وأحكام الشريعة .

الثاني : مقاومة العقائد والنظريات المخالفة .

ولا شك أن عمله في هذين المجالين كان يقربه من الهدف فيما يفرضه من إمامته العلمية وبما يهيئه من سلطان لمبادئه وقوة لأفكاره وبما يشيعه في أوساط الأمة ، من مناخ ملائم لدعوته .

١- نشر مفاهيم العقيدة ، وأحكام الشريعة

الطريق الذي سلكه الإمام عليه السلام في ذلك ، قيامه على مدرسة كبيرة انخرط فيها بغاة العلم وطالبو الحديث والفقهاء من شيعته ، وغيرهم وكان جملتهم أئمة المذاهب الإسلامية السنية كمالك بن انس ، وسفيان الثوري . وابن عيينة ، وأبي حنيفة و كمحمد بن الحسن الشيباني ويحيى بن سعيد وغيرهم من العلماء والمحدثين والفقهاء أمثال أيوب السجستاني وشعبة بن الحجاج وعبد الملك بن جريج وغيرهم^(١) .
وقد بلغ مجموع تلامذة الإمام عليه السلام أربعة آلاف تلميذ^(٢) .

(١) أسد حيدر ، الامام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة ٢٨-٢٧ / ٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٦ .

وقد ذهب الإمام عليه السلام للحيرة زمن السفاح ، وهناك ازدحام عليه مئات التلامذة حتى كان قد يحضره في المجلس الواحد ، أكثر من ألفي طالب يقول معروف بن محمد الهلالي : مضيت إلى الحيرة إلى جعفر بن محمد عليه السلام فما كان لي فيه حيلة من كثرة الناس فلما كان اليوم الرابع رأني ، فأدنانني منه ، وتفرق الناس عنه ، ومضى يريد إلى قبر أمير المؤمنين عليه السلام فتبعته وكنت اسمع كلامه ، وأنا معه امشي ^(١) .

وكان من نتاج هاتين السنتين المعطاءتين مئات من العلماء يواصلون دورهم في خدمة الرسالة ، ضمن حدود الجامعة الإسلامية الخالدة جامعة الكوفة .

يقول الحسن بن علي الوشاء (أدركت في هذا المسجد تسع مائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد) ^(٢) .

الإمام عليه السلام يفتح باب التخصص

وقد فتح الإمام عليه السلام باب التخصص في العلوم تقديراً للحاجة التي تملئها ظروف المجتمع وأوضاعه فبرز من تلامذته متخصصون حذقوا فيما تخصصوا به من فروع المعرفة ، وتركوا في مجالاتهم آثاراً خالدة في التراث الإنساني .

فقد تخصص المفضل بن عمرو ومؤمن بن طارق وهشام بن سالم في

(١) المجلسي ، البحار ٩٣/٤٧ ، طبعة طهران الجديدة .

(٢) الكشي ، الرجال ١٢٢/٣ .

٣٨٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
الفلسفة وعلم الكلام ، وتخصص جابر بن حيان بالرياضيات والكيمياء
، وتخصصت الغالبية العظمى في الفقه وأصوله ، والتفسير كزرارة
ومحمد بن مسلم وجميل بن دراج وحران بن أعين وأبي بصير وعبد الله
ابن سنان ، وكأئمة المذاهب السنية الذين ذكرناهم سابقاً .

وقد روى عنه أبان بن تغلب وحده ثلاثين ألف حديث ومحمد بن
مسلم ستة عشر ألف حديث وغيرهما ممن قاربهما أو جاوزهما كثير^(١)

الإمام عليه السلام يأمر أصحابه بالتدوين والتأليف

وقد أمر أصحابه أن يكتبوا ما يتلقونه عنه صيانة له من الضياع
والتحريف ، فقال عليه السلام : (اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبون) .

وقال عليه السلام للمفضل بن عمر : (اكتب وبث عملك في إخوانك فان
مت فورث كتبك بنيك ، فانه يأتي زمان هرج ما يأنسون فيه إلا بكتبهم
(٢) .

وقد امتثل له أصحابه ، فألفوا في مختلف فروع المعرفة^(١) وكان مما

(١) المظفر ، الإمام الصادق عليه السلام ١٥٧ / ١ طبعة النجف .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٥ .

(١) ذكر ابن النديم في الفهرست والشيخ الطوسي في رجاله ١٧ مؤلفاً لهشام بن الحكم ،
و٦ مؤلفات لمؤمن الطاق في مختلف فروع المعرفة ، وذكرت كتب كثيرة للكثير من
أصحابه (اقرأ أسد حيدر في ج ٣ من كتابه الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة ،

ألف في الحديث ، وعلوم الدين أربعمائة كتاب سميت بالأصول الأربعمائة وقد جمعت في الكتب الأربعة المعروفة الكافي ، للكليني ، والاستبصار ، والتهذيب للطوسي ، ومن لا يحضره الفقيه ، لابن بابويه القمي^(١) ، وقد عرض بعض أصحاب الإمام عليه السلام ما ألفه عليه ، فاستحسنه وصحح بعضه فعند ما صنف عبيد الله الحلبي كتابه المعروف في الفقه عرضه على الإمام عليه السلام فاستحسنه وصححه ، وقال عند قراءته له : أترى هؤلاء مثل هذا^(٢) .

وقال لأصحابه وهو يوصيهم ان يحرصوا على مؤلفاتهم هذه (احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها)^(٣) .

الإمام عليه السلام يضع القواعد

ومن أهم ما عمله الإمام عليه السلام وتبعيده لكثير من مسائل الأصول والفقه ، وأمره لأصحابه بالتفريع عليها ليربي فيهم ملكة الاجتهاد وينير لهم سبله ، فمن القواعد الأصولية التي وردت عن الإمام عليه السلام ، قاعدة البراءة والتخير ، والاستصحاب ، ووردت عنه أيضا مرجحات الرواية عند التعارض ومن القواعد الفقهية التي جاءت عنه ، قاعدة الفراغ ،

ومحمد حسين المظفر في ج ٢ من كتابه السابق .

(١) أسد حيدر ، الامام الصادق والمذاهب الاربعة ٤٧-٤٨ / ٣ .

(٢) المظفر ، الامام الصادق ١٧١-١٧٢ / ٢ .

(٣) المظفر ، المصدر السابق ١٥٥ .

٣٨٥..... في الدين والعلم والحياة والإنسان
والتجاوز ، وقاعدة اليد ، والضمان وغيرها^(١) .

وكان من نتائج جهد الإمام عليه السلام وعمله في هذا المجال ثلاثة أمور
مهمة :

الأول بناؤه ركيزة قوية للعقيدة الإسلامية وقاعدة متينة للتشريع
الإسلامي تضمن له البقاء والاستمرار وسط التيارات المختلفة وتمكنه
من تلبية حاجات المجتمع للقوانين والأنظمة في مختلف الظروف
والأزمان .

والثاني تصحيحه للمفاهيم الخاطئة ، أو الأحاديث المكذوبة لدى
من كان يتصدى للإفتاء في زمنه من الفقهاء ، وتقريبهم بما حملوا عنه من
مدرسته الفقهية و آرائه .

الثالث إيضاها لمرجعية الإمام عليه السلام من ناحية العلمية والفقهية ،
وفرض إمامته من هذه الناحية ، بحيث لا يملك كبار العلماء من
المذاهب الإسلامية الأخرى إلا أن يعترفوا بذلك ، وهذا أمر لا يخفى
على احد أثره في تدعيم دعوة الإمام عليه السلام ، وتسهيل مهمته .
اقرأ ما يقول مالك بن انس .

اختلفت إلى جعفر بن محمد زماناً ، فما كنت أراه إلا على إحدى
ثلاث خصال إما مصلياً أو صائماً وإما يقرأ القرآن وما رأيت قط يحدث
عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة ، ولا يتكلم بما لا يعنيه وكان من

(١) تراجع ، الانصاري ، في فرائد الاصول ، ومحمد تقي الفقيه في قواعد الفقيه .

العلماء العباد والزهاد الذين يخشون الله^(١) .

واقراً ما يقول أبو حنيفة : (يا أبا حنيفة : ما رأيت أفتقه من جعفر بن محمد لما أقدمه المنصور بعث إلي فقال : يا أبا حنيفة إن الناس قد افتنوا بجعفر بن محمد فهبي له من المسائل الشداد ، فهيات له أربعين مسألة ، ثم بعث إلي أبو جعفر المنصور وهو بالحيرة فدخلت عليه ، وجعفر بن محمد جالس عن يمينه ، فلما بصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر ما لم يدخلني لأبي جعفر المنصور فسلمت و أوماً فجلست ثم التفت إليه قائلاً : يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة . فقال : نعم اعرفه . ثم التفت المنصور فقال : يا أبا حنيفة : الق على أبي عبد الله مسائلك . فجعلت القي عليه فيجيبني فيقول : انتم تقولون كذا ، وأهل المدينة يقولون كذا ، ونحن نقول كذا ، فربما تابعنا وربما تابعهم وربما خالفنا حتى أتيت على الأربعين مسألة ما اخل منها مسألة واحدة . ثم قال أبو حنيفة اعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس)^(٢) .

واقراً ما نقله نوح بن دراج عن ابن أبي ليلى قال : قلت له : أكنت تاركاً قولاً قلته وقضاء قضيته لقول احد . قال لا ، إلا لرجل

(١) محمد ابو زهرة ، الامام مالك ص ٢٨ ، نقلا عن المدارك للقاضي عياض ص ٢١٢ .

(٢) اسد حيدر ، الامام الصادق والمذاهب الاربعة ٩٢-٩٣ / ٤ ، نقلا عن مناقب أبي

حنيفة للمكي ١/١٧٣ ، وجامع اسانيد أبي حنيفة ١/٢٥٢ ، وتذكرة الحافظ للذهبي

٣٨٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

واحد قلت : من هو ؟ قال : هو جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ^(١) .

وما قاله زيد بن علي : في كل زمان رجل منا أهل البيت يحتج الله به على خلقه وحجة زماننا ابن أخي جعفر لا يضل من تبعه ، ولا يهتدي من خالفه ^(٢) .

ومن الواضح أن هذا الاعتراف بإمامة الصادق عليه السلام ، ما كان ليحدث ، لولا نشاطه العلمي والتدريس ، وبروزه على صعيد المعارف على المستوى الذي تحدثنا عنه .

٢ - مقابلة الإمام عليه السلام للتيارات الغربية الفاسدة

مر علينا أن الأوضاع السياسية الفاسدة في العهد الأموي والعباسي وما يرتبط بها من الصراع المذهبي والقبلي والقومي ، ونتيجة لظهور الفكر الأجنبي في العصر العباسي بترجمة الكتب الإغريقية ، والفارسية ، والهندية ، وما تعانيه عامة الناس من جهل بالإسلام وبعد عنه .

أن هذا كله أدى إلى ظهور فئات خطيرة مختلفة كان لعملها أسوأ الأثر على بناء الأمة من الناحية الفكرية والاجتماعية من هذه الفئات فئة للغلاة والزنادقة ، و الوضاعين وأهل الرأي ، والمتصوفة .

وقد قاوم الإمام الصادق عليه السلام هؤلاء جميعاً وصارعهم على صعيد

(١) ابن شهر اشوب ، ٤/٢٤٩ ، طبعة قم ، والمجلسي ، بحار الانوار ٤٧/٢٩ ، طبعة طهران الجديدة .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٧ .

العلم ، وكشف خطورة اتجاهاتهم للأمة ، وعقيدتي إلا انه لو لا موقف الإمام هذا ، لكان لها في التاريخ شأن آخر .

الإمام عليه السلام والغلاة

برز الغالية مرة أخرى زمن الإمام الصادق عليه السلام يؤلهونه ويغالون فيه ، ويقومون بنشاط واسع ، في بث فكرتهم والدعوة إليها ، وكان من هؤلاء أبو الخطاب ، بزيع الحائك ، وبشار الشعيري ، والمغيرة بن سعيد ، وأبو منصور وغيرهم .

ويبدو لي إن الحكام قد فسحوا لهم المجال ، متعمدين لتكون دعوتهم ذريعة في تشويه حركة أهل البيت عليهم السلام ومبرراً لموقف الحاكمين من شيعتهم ، إلا أن الإمام الصادق عليه السلام لم يترك هؤلاء فرصة لوصل أنفسهم به ، أو إسناد دعوتهم إليه ، فقد كان يحاربهم بعنف ، وينفيهم بإصرار ، ويأمر شيعته بحربهم والابتعاد عنهم .

قال ميسرة (ذكرت أبا الخطاب عند أبي عبد الله عليه السلام وكان متكئاً فاعتدل ورفع إصبعه إلى السماء ثم قال : على أبي الخطاب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فاشهد بالله انه كافر فاسق مشرك ، وانه يحشر مع فرعون في اشد العذاب) .

وقال المفضل بن يزيد : قال لي ، أبو عبد الله عليه السلام وذكر أصحاب أبي الخطاب والغلاة : يا مفضل لا تقاعدهم ولا تواكلوهم ، ولا تشاربوهم ولا تصافحوهم ، ولا توارثوهم .

وقال أبو بصير : قال لي أبو عبد الله عليه السلام : (يا أبا محمد ابرأ ممن يزعم إننا أرباب . قلت : بريء منه) .

وقال عليه السلام : (إن المغيرة كذب على أبي ، وإن قوماً كذبوا علي ما لهم أذاقهم الله حر الحديد فوالله ما نحن إلا عبيد خلقنا الله ، واصطفانا ما نقدر على ضر ولا نفع إلا بقدرته ، إن رحمتنا فبرحمته ، وإن عذبتنا فبذنوبنا ، ولعن الله من قال فينا ما لا نقول في أنفسنا ، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا وإليه مآبنا و معادنا ، وبيده نواصينا) .

وقال اسحق بن عمار : قال أبو عبد الله عليه السلام لبشار الشعيري : اخرج عني لعنك الله لا والله لا يظني وإياك سقف أبدا ، فلما خرج قال أبو عبد الله عليه السلام ويله إلا قال بما قالت اليهود ، إلا قال ، بما قالت النصارى ، إلا قال ، بما قالت المجوس ، أو بما قالت الصابئة والله ما صغر الله تصغير هذا الفاجر احد انه شيطان ابن شيطان خرج من البحر ليغري أصحابي فاحذروه ، وليبلغ الشاهد الغائب إني عبد الله ابن عبد الله ، ضمتني الأصلاب والأرحام ، واني لميت ، و مبعوث ثم مسؤول ، والله لأسألن عما قال في هذا الكذاب وادعاه ، ماله غمه الله فلقد امن على فراشه وأفزعني ، وأقلقني عن رقادي وأعلن الإمام عليه السلام لشيئته أن ما قد يوجد من أحاديث مغالية ، إنما هو من هؤلاء ، ودسهم .

فقد روي عن يونس عن هشام بن الحكم انه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول : كان المغيرة بن سعيد يتعمد الكذب على أبي ، ويأخذ كتب أصحابه وكان أصحابه المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتب فيدفعونها إلى المغيرة وكان يدس فيها الكفر والزندقة ، ويسننها إلى أبي ، ثم يدفعها إلى أصحابه ثم يأمرهم أن يبثوها في الشيعة فكل ما كان في

كتب أبي من الغلو فذاك مما دسه المغيرة بن سعيد في كتبهم^(١) .

وبذلك استطاع عليه السلام أن يضع حدا فاصلا بين مجرى الغاية ، وبين التشيع ، فقطع بذلك الطريق ، على أولئك الذين كانوا يريدون الحيلولة دون امتداد حركة الإسلام، بقيادة أهل البيت بالتشويه ، المتعمد والتشكيك الباطل

الإمام عليه السلام والزنادقة

ظهرت في عصر الإمام الصادق عليه السلام فئات من الزنادقة نشطت نشاطا واسعا في إثارة الشبه حول مسائل العقيدة وأحكام الشرع ، ومارست الدعوة إلى الإلحاد ، وإلى الثنوية فقد انتشرت كتب ماني وابن ديسان ومرفيون مما ترجمه عبد الله بن المقفع وغيره من الفارسية والفهلوية وانتشرت مصنفات ، ابن أبي العوجاء ، وحماد عجرد ويحيى بن زياد ، ومطيع بن إياس ، التي كانت تؤيد أفكار تلك المذاهب ، فكثر بذلك كما يقول المسعودي الزنادقة ، وظهرت أدواؤهم في الناس مما دعا الإمام عليه السلام أن يهتم بمقابلتهم ، والرد عليهم لينقذ الناس من التشكيكات الخبيثة التي كانوا يبرعون في إثارتها وبثها ، ومن الأفكار الباطلة التي كانوا يبشرون بها . وينشرونها بين الناس .

فحين جاءه المفضل وقد بان عليه الأذى والانكسار من محاورة

(١) راجع هذه الروايات في كتاب الامام الصادق والمذاهب الاربعة لأسد حيدر ١٥٠-

٣٩١ في الدين والعلم والحياة والإنسان

دارت بينه وبين ابن أبي العوجاء ، وبعض أصحابه من الزنادقة قال له الإمام عليه السلام : لألفين إليك من حكمه للباري جلا وعلا في خلق العالم والسباع والبهائم والطير والهوام ، وكل ذي روح من الأنعام والنبات والشجرة والمثمرة وغير ذات المثمر والحبوب والبقول المأكول وغير المأكول ما يعتبر به المعتبرون ويسلك إلى معرفته المؤمنون ، ويتحير فيه الملحدون ، فبكر علي غداً^(١) .

وكان من نتاج ذلك الامالي التي عرفت بتوحيد المفضل ، وقد أدار الإمام عليه السلام مرات عديدة مع كبار الزنادقة محاورات رائعة كثيرة يمكن أن تراجع في الكتب المطولة ، أخرجهم بها وفضح عجزهم ، ورد عليهم شبهاتهم حتى اهتدى بعضهم نتيجتها^(٢) .

وقد كان هؤلاء يحترمون جانب الإمام الصادق عليه السلام ويقدرون سعة علمه وسمو شخصيته ، ويهابون الاحتكاك به قال ابن المقفع لان أبي العوجاء وجماعة من أصحابه وهم جلوس في المسجد الحرام . ترون هذا الخلق وأوماً بيده إلى موضع الطواف ما منهم احد اوجب له اسم الإنسانية إلا ذلك الشيخ الجالس (يعني الصادق عليه السلام فأما الباقيون فرعاع وبهائم . فقال له ابن أبي العوجاء لا بد من اختيار ما قلت فيه منه فقال له ابن المقفع : لا تفعل فاني أخاف أن يفسد عليك ما في يدك ، فقال ليس ذا رأيك ولكن تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك

(١) المظفر ، الامام الصادق ١/١٦٧ طبعة النجف .

(٢) المصدر نفسه من ص ١٠٧ ، اقرأ الكليني ، ٧٢-٨٢ / ١ .

إياه الذي وضعت فقال ابن المقفع : أما إذا توهمت علي هذا فقم إليه وتحفظ ما استطعت من الزلل ولا تثني عنانك إلى استرسال فيسلمك إلى عقل الخ .

فقام ابن أبي العوجاء وما لبث أن عاد يقول : ويلك يا ابن المقفع ما هذا ببشر وان كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهراً ويتروح إذا شاء باطناً فهو هذا .

فقال ، وكيف ؟ قال جلست إليه فلما لم يبق عنده غيري ابتدأني فقال : إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء وهو ما يقولون (يعني أهل الطواف) فقد سلموا وعطبتهم ، وان يكن الأمر على ما تقولون ، وليس كما تقولون فقد استويتم وهم .

وحاول ابن أبي العوجاء أن يظهر الإنكار قال فقلت له برحمك الله وأي شيء نقول ؟ وأي شيء يقولون ؟ ما قولي وقولهم إلا واحد ، فقال وكيف يكون قولك ، وقولهم واحداً وهم يقولون : إن لهم معاداً وثواباً وعقاباً ويدينون بان للسماء إلهاً ، وحين تسائل ابن أبي العوجاء عن هذا الإله عدد له الإمام عليه السلام من دلائل وجوده في نفسه ما أذهله ، قال ابن أبي العوجاء لابن المقفع (وما زال يعدد على قدرته التي هي في نفسي التي لا ادفعها حتى ظننت انه سينظر فيما بيني وبينه)^(١) .

وبأمثال هذه المواقف وبمن أعده من تلامذته لهذه المجالات ، وأشباهاها كهشام بن الحكم ومؤمن الطاق ، والمئات غيرها وأوقف

(١) الكليني ، الكافي ٧٤-٧٦ / ١ طبعة طهران .

٣٩٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
عليه السلام سورة المد الإلحادي ، وقلل من أخطاره ، وأنقذ الكثير ممن
جدفتهم شبهاته و تشكيكاته ، ولا تزال محاوراته وان كانت قد أخذت
في اعتبارها ذهنيات مخاطبيها عاملا من عوامل الهداية ، وسبباً من
أسباب الرشد .

الإمام عليه السلام والوضاعون

استشرى أمر الوضع في زمن الإمام عليه السلام ، وتراكت الأحاديث
المكذوبة على رسول الله ﷺ وآل البيت عليهم السلام وتلقفها الناس ديناً
يؤمنون به ، ويعملون على أساسه وحسبك أن زنديقاً واحداً اعترف
لدى تقديمه للقتل انه دس أربعة آلاف حديث حلل فيها الحرام وحرم
فيها الحلال^(١) .

وقد حملت هؤلاء على الوضع دوافع مختلفة شخصية تتصل
بالمكانة التي يحل المجتمع فيها المحدثين ، باعتبار الحاجة إليهم أو دينية
تتعلق بدعم مذهب أو عقيدة معينة أو هدمها .

أو سياسية يحمل عليها وضع الحكم آنذاك ، وحاجته إلى تثبيت
دعائمه أو تبرير تصرفاته^(١) ، وربما جاوز الأمر تبرير تصرفات الحكم إلى
تصرفات الحاكم الشخصية من هوايات و اولاع .. ومن الواضح أن
الحكم وهو يحتاج الوضع من هذه الناحية سيضطر للسكوت عنهم عند

(١) لسان الميزان ، ٥١-٥٢ / ٤ نقلا عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة ٢٢٨ / ٤ .

(١) محمد تقي الحكيم ، مناهج البحث في التاريخ ، مجلة النجف ، السنة الاولى .

وضعهم بدافع من الناحيتين الأوليين .

فحين روى غياث بن إبراهيم والمهدي عن أبي هريرة (لا سبق إلا في حافر أو نصل أو جناح) أمر له المهدي بعشرة آلاف درهم .

فلما قام غياث ليخرج اتبعه المهدي بصره ثم قال : (اشهد انه قفت كذاب على رسول الله ﷺ ما قال ﷺ جناح ولكنه أراد أن يتقرب إلي) ^(١) .

أرايت ؟ ، انه يعلم يكذب ، ومع ذلك يكرمه ويجزيه لانه برر له هواية شخصية) .

وبذلك راحوا يمنعون في الكذب دون رادع ، وبمماية من الحكم ، ومن المكانة التي حصلوا عليها بين العامة من الناس ، أصبحوا بدرجة من القوة ، لا يمكن معاها الإنكار عليهم أو مناقشتهم .

ولسنا بحاجة لبيان ما تؤثره أمثال هذه الأحاديث الموضوعية في إرباك المفاهيم الإسلامية في أذهان الناس ، أو في إدخال أحكام ليست من الإسلام في الإسلام ، لهذا وقف الإمام ﷺ وتلامذته يعملون على تنبيه الناس إلى هذه الأحاديث المكذوبة ، ويكشفون مواطن المفارقة ، في ما تعطيه من مفاهيم أو أحكام وكان من أروع ما فعله الإمام الصادق ﷺ تنبيهه إلى بعض هؤلاء الوضاع ، وتحذيره منهم ﷺ ثم ما وضعه من مقاييس ومرجحات نعرض عليها الأحاديث ، ونحاكمها

(١) الخطيب ، تاريخ بغداد ١٩٣ / ٢ .

٣٩٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
على أساسها ، كالمرجعات الصدورية مثل موافقة المشهور وصفات
الراوي ، أو المرجحات الجهتية كمخالفة العامة^(١) أو المرجحات
المضمونية كموافقة الكتاب والسنة أو أحاديثهم المتقدمة^(٢) .
وعلى هذا الأساس ، أمكن علماءنا من غربلة الأحاديث ،
المختلفة وتمييز الغث منها بما يجعلنا نطمئن إلى القدر الباقي مما قبله
المقاييس المتقدمة .

الإمام عليه السلام وأصحاب المذاهب و الرأي

ظهرت في عصر الإمام عليه السلام جماعة من الفقهاء تعتمد الرأي مصدراً
من مصادر الأحكام ، مقابل الكتاب والسنة ، والإجماع ، والتبرير الذي
يذكر لذلك أن ما ورد في الكتاب والسنة ، وما قام عليه إجماع الأمة ، لا
يفي بحاجة الناس ولا يستوعب شؤونهم مما يجعل الحاجة ماسة للرجوع
إلى الرأي ليستطيع الفقيه بواسطته تلبية مطالب الحياة المتجددة للأحكام

وكان على رأس هذه الجماعة في عصر الصادق عليه السلام أبو حنيفة
الذي عرف بتأصيله للقياس واعتماده عليه والذي يبدو أن أبا حنيفة
كان يشك -نتيجة لتفشي الوضع - في كثير من الأحاديث التي ترده ،
من هنا فقد كان أعظم اعتماده على القياس وربما حدث أن قدمه على

(١) ينظر في معنى العامة ، محمد تقي الحكيم في كتاب الاصول العامة ص ٣٦٩ .

(٢) المظفر ، أصول الفقه ٢١٥-٢٢٣ / ٣ الطبعة الاولى .

بعض الأحاديث الأمر الذي حمل كبار الفقهاء أن ينكروا عليه ذلك ، قال الاوزاعي : (إننا لا ننقم على أبي حنيفة انه رأى كلنا يرى ولكننا ننقم عليه انه يجيئه الحديث عن النبي ﷺ فيخالفه إلى غيره)^(١) .

وقال وكيع الجراح (وجدت أبا حنيفة خالف مائتي حديث عن رسول الله ﷺ)^(٢) .

وقال الإمام مالك (ما ولد في الإسلام مولود اضر على الإسلام من أبي حنيفة) .

وكان مالك يعيب الرأي ويقول قبض رسول الله ﷺ ، وقد تم هذا الأمر ، واستكمل وإنما ينبغي أن نتبع آثار رسول الله ﷺ وأصحابه ولا نتبع الرأي ، وانه متى اتبع الرأي جاء رجل آخر ، أقوى منك فاتبعته ، فأنت كلما رجل غلبك اتبعته ، أرى هذا لا يتم^(٣) ولغير هؤلاء من الفقهاء والمحدثين ما يشبه هذا الكلام فيه ، إلا انه لم يحدث لواحد منهم أن جاوز إعطاء رأيه إلى ملاقة أبي حنيفة نفسه ، ومناقشته وحجية ما ذهب إليه من القياس غير الإمام الصادق عليه السلام فقد ذكرت له معه محاورات عديدة ، أوضح فيها بطلان القياس في الشريعة لعدم إدراك

(١) ابن قتيبة ، تأويل مختلف الحديث ص ٦٣ ، نقلا عن كتاب الامام الصاق والمذاهب الاربعة ١/٣١٤ .

(٢) ابن عمر ، الانتقاء ص ١٥٠ ، نقلا عن كتاب الامام الصاق والمذاهب الاربعة ١/٣١٥ .

(٣) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ١٣/٣٩٦ .

الإنسان وجوه الحكمة في مسائلها و أحكامها .

يقول ابن جميع : دخل على جعفر بن محمد عليه السلام أنا وابن أبي ليلى ، وأبو حنيفة ، فقال لابن أبي ليلى : من هذا معك ؟ قال : هذا رجل له بصر ونفاذ في أمر الدين ، قال عليه السلام : لعله يقيس أمر الدين برأيه إلا أن يقول - والحديث طويل نقتصر منه على موضع الحاجة - : يا نعمان حدثني أبي عن جدي : أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : (أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس ، قال (تعالى) له : اسجد لأدم ، فقال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس ، لأنه اتبعه بالقياس)^(١) ، ثم قال له جعفر عليه السلام - كما في رواية : ابن شبرمة - (أيهما عظم قتل النفس أو الزنا ؟) ، قال : قتل النفس . قال عليه السلام : فان الله عز وجل قبل في قتل النفس شاهدين ، ولم يقبل بالزنا إلا أربعة ، ثم قال عليه السلام : أيهما أعظم ، الصلاة أم الصوم ؟ قال : الصلاة ، قال عليه السلام : فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة ، فكيف ويحك يقوم لك قياسك ؟ اتقي الله ولا تقس الدين برأيك^(١) .

وله معه مواقف محاورات أخرى تكشف فيها أبو حنيفة أمام الإمام عليه السلام عن عجز كامل في قضية الدفاع عن رأيه والمنافحة عن مدرسته ،

(١) ابو نعيم الأصبهاني ، حلية الأولياء ٣/١٩٧ ، نقلا الاصول العامة للفقهاء المقارن

للسيد محمد تقي الحكيم ص ٣٢٩ .

(١) المصدر نفسه .

ومن الواضح أننا لا نستطيع التفكيك بين موقفه عليه السلام وبين موقف الألو ف من تلامذته المؤمنين بإمامته ، بل إننا نجد أن من حضره من أئمة المذاهب الأخرى قد تتأثر فيه فاندفع يحارب مدرسة القياس وأصحابها بعنف كمالك وسفيان بن عيينة والاوزاعي وغيرها .

وعقيدتي انه لو لا هذا الموقف من الإمام عليه السلام وتلامذته المتأثرين به لكانت مدرسة الرأي أكثر امتداداً وسعة مما كانت حتى الآن .

ولا يبعد أن يكون أبو حنيفة قد تغير في سنيه الأخيرة من موقفه إزاء هذه المسألة يلمس ذلك مما صرح به من أن تلمذته على الإمام الصادق عليه السلام أنقذته من الهلاك كما في قوله المشهورة (لو لا السنتان لهلك النعمان)^(١) يقصد السنتين اللتين تتلمذ فيهما للإمام عليه السلام .

والهلاك المذكور هنا ، لا يمكن ان يحمل إلا على مفارقة الحق ، في آراء كان يتبناها قبل لقائه بالإمام عليه السلام ، والمشهور أن ما أنكره عليه الإمام عليه السلام وغيره وحاوره فيه هو القياس ، حتى نقل عنه بعد ذلك ما يدل على تسليمه المطلق بإمامة الصادق عليه السلام بدرجة أن كلمة إمام لا تصدق عنده إلا عليه ، فحين سألت رجل : عن رجل وقف ماله للإمام عليه السلام فمن يكون المستحق ؟ أجابه أبو حنيفة : المستحق هو جعفر الصادق عليه السلام لانه هو إمام الحق^(١) وليس من المستساغ أن يقال انه

(١) محمود شكري الآلوسي ، مختصر التحفة الاثني عشرية ص ٨ ، طبعة مصر سنة

١٣٣٣ ، المطبعة الالفية .

(١) محمد أمين غالب ، تاريخ العلويين ص ١٤٠ ، وراجع لمعرفة المصادر في ذلك

٣٩٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
كان يعطيه هذه المكانة ويحله هذه المنزلة ثم يبقى مصراً على مخالفته له ،
ومعاندته إياه دونما حجة .

الإمام عليّ عليه السلام والمتصوفة

ظهر التصوف لأول مره كاتجاه مبالغ فيه من الزهد وكرد فعل
للترف المفرط الذي كان يمارسه الخلفاء ، وتعيشه الأسر الثرية ، ثم تأثر
بعد ذلك بالفكر المسيحي ومسالمة الرهبانية ، وبذلك مجرى مفارقا
للاتجاه الإسلامي حيث بدا هؤلاء ينكرون على الناس التمتع بالطيبات
من الرزق ويحرمون عليهم زينه الله التي اخرج لعباده ويبالغون في
دعوى الالتزام حتى بعضهم لترك الحلال خوفا من الوقوع في الحرام
فراى الإمام عليّ عليه السلام أن هذا فهم مزور معنى الزهادة في الإسلام ، انحراف
له أخطاره في موقف الإسلام من الحياة فقابلهم وكشف للناس وجوه
المفارقة للإسلام في آرائهم وسلوكهم ، وقد ذكرت الكتب الموسعة له ،
مجالس رائعة معهم ، قال في احدها وهو يخاطب عباد بن كثير (ويلك
من حرم زينه الله التي اخرج لعباده ، والطيبات من الرزق أن الله عز
وجل إذا انعم على عبد أحب أن يراها عليه)^(١) .

وقال له سفيان الثوري مرة وهو يشير إلى ملابسه : (يا ابن رسول

والأحاديث الواردة بهذا الخصوص عنه ، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة لأسد حيدر ج

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٤٠٠

الله ﷺ والله ما لبس رسول الله ﷺ مثل هذا اللباس، فقال أبو عبد الله عليه السلام : كان رسول الله ﷺ في زمان قتر مقتر وكان يأخذ لقتله وقتاره وان الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها فأحق أهلها بها أبرارها ثم تلا قل من حرم زينه الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق)، وله محاورات طويلة مفصلة معهم نقض عليهم فيها ما ضرب من أمثله بداود النبي وسليمان واستشهد بما يمس ذلك من كتاب وسنه فلتراجع في مضانها فقد أوضح فيها موقف الإسلام بصوره دقيقه من هذه القضية خاصة ، فصح بذلك ما كان يحدث من فهم خاطئ على أساس انتزاعات باطله من السيرة تأثرت بالاتجاه الرهباني المسيحي .

كلية الفقه عدنان البكاء

مراجع البحث

- ١- المسعودي ، مروج الذهب .
- ٢- الشهرستاني ، الملل والنحل .
- ٣- رمضان لانود ، الإمام الصادق عليه السلام .
- ٤- الكليني ، الكافي .
- ٥- الخميني ، المكاسب المحرمة .
- ٦- ابن بابويه القمي ، من لا يحضره الفقيه .
- ٧- الأمين العاملي ، أعيان الشيعة .
- ٨- المجلسي ، البحار .
- ٩- محمد جواد مغنية ، فقه الإمام الصادق عليه السلام .
- ١٠- أسد حيدر ، الإمام الصادق عليه السلام والمذاهب الأربعة .
- ١١- الحر العاملي ، وسائل الشيعة .
- ١٢- الكشي ، الرجال .
- ١٣- المظفر : محمد حسين ، الإمام الصادق عليه السلام .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٤٠٢

١٤ - الأنصاري ، فرائد الأصول .

١٥ - محمد أبو زهرة الإمام مالك .

١٦ - ابن شهر آشوب ، المناقب .

١٧ - محمد تقي الحكيم : مناهج البحث في التاريخ : مجلة النجف السنة

الأولى .

المبحث الثامن

حرب التحرير العربية الفلسطينية الشعبية وما
يمكن ان يقوم به علماء الإسلام من دور خلال
النصوص الفقهية

عدنان علي البكاء

عميد الكلية

مستل من مجلة كلية الفقه

حرب التحرير العربية الفلسطينية الشعبية وما يمكن ان يقوم به علماء الإسلام من دور من خلال النصوص الفقهية

إن الإمكانية الكبيرة الفاعلة التي تعطي العلماء المسلمين القدرة على خدمة قضايا امتنا في ميادين التحرير تقوم على دعامين : أولهما الرؤية النيرة التي يحتمها واقع كونهم علماء والمكانة التي يحلهم إياها موقعهم كمراجع في مفاهيم الإسلام ، وشريعته ومن الحجم البشري الذي يمثلونه من سكان العالم وسعة المساحة التي يمكن أن يتحركوا خلالها ، ويؤثروا فيها وبها . إن العدد الهائل الذي يشكله المسلمون من الناحية الكمية ، وانتشارهم في مختلف القارات ومختلف الدول والشعوب يفسح أمام العلماء المسلمين إذا ما وحدوا منطلقهم وآراءهم في قضية ما مدى غير محدود من الإمكانيات لخدمتها .

ثانيهما من طبيعة المفاهيم والقيم والتشريعات الإسلامية التي تربط الأمة الإسلامية أفراداً أو جماعات بمسؤوليات مشتركة يعتبر التفريط بها تفريطاً في الدين نفسه والتي تملك من عناصر الحياة وروح المعاصرة ما يوفر الشروط اللازمة للانهاض والتشوير والاندماج بمسار حركة التحرير في امتنا ... وإذا كان هناك كثير من المشاكل التي يواجه علماء المسلمين مهمة الإسهام في التصدي لها بما يملكون من علم ووعي وموقع موجه فاعل ، إلى امتداد الوطن العربي والإسلامي كمشكلة الاستلاب الحضاري ومشكلة التسلط السياسي الأجنبي ومشكلة النهب

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٤٠٦
الاقتصادي لثروات المسلمين من قبل الشركات الاحتكارية الأجنبية فان
قضية فلسطين وما يتصل بها تحتل بكل الاعتبار الشرعية والإنسانية
والسياسية المركز الأول .

ذلك لأنها ميدان المواجهة المصيرية المسلحة بين الإسلام حضارة
ومقدسات وإنسانا وأرضا وبين أشرس هجوم استعماري مثل رأس
الحربة فيه أخبث عدو عرفه التاريخ وجوداً وتعاملاً وغايات . إن التاريخ
الإنساني لم يعرف نظير الصهيونية استعماراً استيطانياً متوحشاً توسعياً
يغتال هوية الأرض ويمحق الحضارة ويقتل الإنسان دونها تقييد بقيم
خلقية أو عرف إنساني أو قرارات دولية انه لا يعرف شيئاً غير لغة الدم
وأسلوب الاغتصاب والتعامل بمنطق الخداع والقوة تلك خيرتنا التي
تأكدت خلال أكثر من ربع قرن رافقتنا فيها بداية المأساة .

وذلك ما لا يبالي من الجهر به كبار قادتهم أيضاً ، قال ابن غوريون
في خطاب نشرته (الجويش اوبزيرفر اول أيار سنة) (إن تعديل
حدود إسرائيل لن يتم إلا بواسطة حرب حياة أو موت أما بالنسبة
لقرارات الأمم المتحدة فان هذه القرارات تعتبر ميتة ، ولن تقوم لها
قائمة أبداً^(١) .

وإذا كان كذلك فان الفقهاء والعلماء في ميدان معركة العرب
والمسلمين لتحرير فلسطين في هذه المرحلة دوراً واسعاً وهاماً وهو
يتحدد فيما يبدو لي بما يلي :

(١) الكيالي ، عيد الوهاب ، المطاعم الصهيونية ص ١٣٠ ، دراسات فلسطينية عدد ٣ .

٤٠٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

أولاً : وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم بالنسبة للمشكلة الفلسطينية

ثانياً : إيضاح حقيقة الصراع ومداه وأطرافه في المشكلة

ثالثاً : تحديد أساليب المواجهة وهي فيما أراه تنطوي في ثلاثة جوانب :

أ- التحريض على ضرب مراكز النفوذ والمصالح الاستعمارية التي تشكل دعماً للوجود الإسرائيلي .

ب- مقاومة تأثير الإعلام المعادي داخل الأمة التي يستهدف هزيمتها نفسياً .

ج- توثيق الصلة والتعاون مع القوى التي يجمعنا وإياها موقف العداء للاستعمار . وستحدث بإيجاز عن كل واحدة من هذه النواحي .

الأول :

وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم بالنسبة للمشكلة الفلسطينية

حين نذكر التضامن الإسلامي ، ونشير إلى الارتباط الحضاري والتاريخي وما يجب أن ينتج عنه من صلة وجدانية تنعكس على واقع التعامل بين المسلمين بشكل طبيعي وتلقائي في قضاياهم الخاصة و المشتركة إنما نقدر واقع المنظور الإسلامي لصورة هذه العلاقة من الناحية النظرية بمعنى أننا لا نعتد إطار علاقات تاريخية جمعتنا يوماً من جهة أو أخرى في تقرير مدى الصلة والاشترار في المسؤولية بيننا

فحسب وإنما نقيم ذلك على نصوص دينية ما زالت تحمل صفة الإلزام بالنسبة لكل مسلم كجزء من العقيدة وكجزء من التشريع فوراً قوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة)^(١) ، وقوله ﷺ (المسلمون كالجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعياته له سائر الجسد بالسهر والحمى)^(٢) ، وقوله ﷺ (من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم ومن سمع ومن سمع رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم)^(٣) ، ما ذكر الفقهاء رضوان الله عليهم من أحكام عملية تحدد المسؤوليات المشتركة التي يحملها المسلمون على هذا الأساس ازاء بعضهم تكافلاً وتعاوناً وتناصراً في المجالات الحياتية المختلفة بخاصة ما يتصل بحماية حرمتهم وارضهم وحضارتهم مما يوضح لنا عمق هذه العلاقة وخطورة ما يمكن ان يترتب في التأكيد عليها من نتائج ايجابية لصالح قضايانا المصيرية عامة قال الفقيه الكبير الشيخ محمد حسن النجفي (رحمه الله) صاحب الجواهر وهو يتحدث عن اقسام الجهاد ، ومنها ما إذا دهم المسلمين عدو يريد الاستيلاء على بلادهم ، واسرهم واخذ اموالهم ، قال : (وهذا واجب على الحر والعبد والذكر والأنثى والسليم والمريض والأعمى والأعرج ان احتيج إليهم) ، ثم قال : (ولا يختص بمن قصده من المسلمين إذا لم

(١) الحجرات ، اية ١٠ .

(٢) صحيح البخاري (باب الادب) صحيح مسلم (باب البر) نقلاً عن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف (جسد) .

(٣) الحر العاملي ، وسائل الشيعة ٢٥٩-٢٦٠ / ٦ .

٤٠٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
يعلم قدرة المقصودين على المقاومة^(١) وورد نفس المضمون في
المسالك للشهيد الثاني .

وقال الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء (رحمه الله) وهو يذكر
أقسام الجهاد ايضاً :

ثانيهما دفع الأعداء عن التسلط على دماء المسلمين وأعراضهم
ويجب على من غاب أو حضر مع عدم قيام الحاضرين به .

وبعد ان ذكر القسم الثالث : تحدث عن القسم الرابع قائلاً : وهو
الجهاد للدفع عن بلاد المسلمين وقراهم وأراضيهم وإخراجهم منها بعد
التسلط عليها والسعي في نجات المسلمين ويجب على المسلمين الحاضرين
والغائبين ان يتركوا عيالهم واطفالهم واموالهم ويهاجروا إلى دفع اعداء
عن الله اولياء الله ان لم يكن في الثغور من يقوم بدفعهم عن اراضيهم .
ثم يوسع دائرة وجوب المشاركة فلا يقف بها عند حدود العمل المسلح
ان توفر في مجاله ما يحق الكفالة قال (فمن كان عنده جاه بذل جاهه أو
مال بذل ماله أو سلاح مؤثر بذل سلاحه ، أو حيلة أو تدبير صرفها في
هذا المقام لحفظ بيضة الإسلام واهل الإسلام قال : وهذا القسم افضل
اقسام الجهاد واعظم الوسائل لرب العباد^(٢) .

وجاء في الكتاب وفي الدار المختار في الفقه الحنفي نفس المضمون
(وان هجم العدو على بلد وجب على جميع المسلمين الدفع تخرج المرأة

(١) النجفي ، محمد حسن ، جواهر الكلام كتاب الجهاد طبعة حجر طهران .

(٢) الشيخ جعفر ، كاشف الغطاء (باب الجهاد) طبعة حجر .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٤١٠
بغير اذن زوجها والعبد بغير اذن المولى (١) وجاء في المنهاج في الفقه
الشافعي (الثاني) : (يدخلون بلدة لنا فليزِم اهلها الدفع بالممكن فان
امكن تاهب لقتال وجب الممكن على الفقير وولد ومدين وعبد بلا اذن
(٢) .

وجاء في المغنى في الفقه الحنبلي والمقارن (وواجب على الناس إذا
جاء العدوان ينفروا المقل والمكثر) (ذلك بان النفي يعم جميع الناس
(٣) .

وماذا بعد ؟ .

لا : اخال ان هناك نصوصاً دينية أو غير دينية قديمة أو معاصرة
تجاوز هذا المدى في تقرير الحرب الشعبية الشاملة أو الحشد لها لتحرير
الإنسان المسلم أو ارضه وثوراته ورفض الاستسلام لقوى الاحتلال و
الاستعمار والتنصل من عبء المسؤولية تحت اي ظرف واي عذر
فيجب على الذكر والانثى والسليم والمريض والاعمى والاعرج ولا
يختص بمن قصدوه من المسلمين ويجب ان يتركوا عيالهم واطفالهم

(١) الميداني ، اللباب في شرح الكتاب ٤/١١٥ الدر المختار وحاشية رد المختار
(حاشية ابن عابدين) نفس المضمون ٤/ ١٢٧ .
(٢) الشربيني ، مغنى المحتاج ٤/ ٢١٩ .
(٣) ابن قدامة ، المغنى م ٩ ص ٢٩٦ . توجد نصوص بهذا المضمون في كتب الفقه
الأخرى ومنها السيد علي الطباطبائي في كتاب الرياض والجزائري في قلائد الدرر فمن أراد
التوسع فيراجع باب الجهاد في هذه المصادر .

٤١١ في الدين والعلم والحياة والإنسان

واموالهم ، وينهضوا للدفع عن ارض المسلمين واموالهم الخ .

فماذا يمكن ان يفعل الإسلام في مجال التشريع أكثر من ذلك ؟
وماذا بقي بعد ليفعله ؟ وما هي الحجة التي يذرع بها المسلم المتدين حقاً
في الابتعاد عن ساحة المعركة .

ان ملاحظة واقع موقف كثير من المسلمين من معارك التحرير
بمفهومها الواسع بعامة ، ومن قضية احتلال الأرض العربية الفلسطينية
بخاصة يحتم علينا ان نتصور افتراضات ثلاثة :

اولاها : جهل المسلمين بالحكم الشرعي في مجال مقاومة الاحتلال
وانهاء سيطرة القوى الأجنبية بأي شكل وفي اي مجال .

ثانيها : التقصير في الالتزام بأحكام الدين من هذه الناحية

ثالثها : الوقوع تحت تضليل دعائي مسخ في نظر البعض طبيعة
المعركة والقوى التي تقودها بشكل أو بآخر وشوه منطقها واهدافها .
وهذا ما سنتحدث عنه . وكل ذلك مما لا يجوز اقراره والسكوت عليه
بجال لتأثيره مباشرة على مجرى ونتائج نضالنا في هذه المرحلة ومن ترى
يستطيع ان يتصدى لذلك في مجالاته جميعاً ؟ من المؤهل لذلك موقعا
وعلماً ووظيفة غير علماء المسلمين .

لقد كانت الأمة العربية الإسلامية عند قمة وعيها والتزامها بحروب
التحرير الشعبية الشاملة قوة لا يقوم أمامها شيء اكتسحت جبروت
الإمبراطوريات الكبيرة وخضدت شوكة الزحف الصليبي الاستعماري
وحققت النصر في مواقع لا يمكن ان تحقق النصر فيها بالحسابات
المنظورة وما زالت امتنا تملك هذه الامكانية : قد يقال : ان الظروف

السياسية الراهنة والاضاع الجديدة وطبيعة المواجهة العسكرية في هذا العصر قد تغيرت بحيث عاد مثل هذا النفير البشري غير ممكن من ناحية ، وغير مجد من ناحية اخرى . هذا إلى ان الأمة العربية المسلمة في حجمها الكمي في غير ما حاجة إلى مدد بشري في مجال المواجهة العسكرية مع اسرائيل وهذا صحيح لو لم يوجد العمل الغذائي عنوان حياة امتنا وحضورها في هذا العصر فهو حرب شعبية مفتوحة للمشاركة صحيح إذا فهمنا المعركة في حدود حجمها المنظور (مواجهة اسرائيل الدولة) كما يفهمه العامة والسطحيون . صحيح إذا فهمنا المواجهة في حدود الاصطدام المسلح معزولة عن جوانبها الاخرى التي قد تكون أكثر خطورة ، واهم نتائج ، جوانبها السياسية والاقتصادية والنفسية والاعلامية فهل معركتنا تقوم مع الصهيونية حقاً في كيانها المادي المحدود (دولة اسرائيل) . وهل مواجهتنا لها محصورة ضمن الاصدام المسلح بها . لتتخذ الاوضاع الجديدة ذريعة للابتعاد ذلك ما يفرض علينا بحث :

الثاني :

حقيقة الصراع في مشكلة الحرب العربية الاسرائيلية

ان فهم المشكلة الفلسطينية وجوداً واستمراراً في اطار التحالف بين الحركة الصهيونية والامبريالية وادراك ابعاد الاهداف المشتركة والمصالح المتبادلة بينهما في المنطقة وتقدير خطورتها على هذا الاساس ثم تشخيص اساليب مواجهتها تشخيصاً علمياً هو الفهم الواقعي السليم

٤١٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان
وعندها لا تعود إسرائيل رغم رأس الحربة هي الطرف الذي نواجهه
نحن العرب والمسلمين في ميدان الصراع حسب وانما الاستعمار العالمي
بكل قواه وفي جميع قواعد وركائز نفوذه ، وساحات تحركه .

ان احتلال الأرض العربية الإسلامية في فلسطين إذا كان يمثل
بالنسبة لإسرائيل انتصاراً بدأ عنده حلم الصهيونية الكبير كما بدأت به
نكبة الأمة العربية الإسلامية فانه يمثل بالنسبة للاستعمار العالمي موقعاً
ومنطلقاً ومركزاً استراتيجياً لحماية مصالحه في منطقة الشرق الأوسط
كلها . وإذا كانت للصهيونية مطامحها الخاصة القريبة والبعيدة فانها
تدرك تماماً ان تحقيق هذه المطامح لا يمكن الا من خلال كونها اداة
للامبريالية العالمية وكان ذلك بالفعل هو المنطلق الذي تحركت وتعاملت
على اساسه .

جاء في مذكره رفعها زعماء الحركة الصهيونية إلى الامبراطور
الاماني غليوم الثاني، حين احسوا بمطامحه لان يصبح حامياً لبلاد
الشرق الادنى ، قولهم : (نحن نريد ان نقيم على شواطئ الشرقية للبحر
الابيض المتوسط حضارة عصرية مركزاً تجارياً يكونان دعامة للسيادة
الامانية مباشرة أو غير مباشرة وستكون فلسطين عن طريق الهجرة
اليهودية قاعدة سياسية وتجارية بل صخرة المانية تركية ، كصخرة جبل
طارق على حدود المحيط الإنكليزي - العربي)^(١) .

ويقول الدكتور اسعد مرزوق ، (لقد لجأ الصهيونيون في كسب

(١) الدكتور اسعد مرزوق ، نظرة في أحزاب إسرائيل ص ١٠٠-١٠١ .

التأييد لدعوتهم الاستعمارية إلى ملاقاتها على الدوام بمصالح الاستعمار اينما وقعوا على مطامعه في المانيا وفرنسا وانكلترا وروسيا القيصرية ، وسلاطين بني عثمان وامريكا^(١) .

ويقول الدكتور عبد الوهاب الكيالي في كتابه (المطامع الصهيونية التوسعية) يتضح من محاضر الصهيونية ومقرراتها وخططها ومن نشاط قادة الحركة الصهيونية وافكارهم ومذكراتهم واعمالهم ان العوامل التالية كانت تتحكم في تفكيرهم ونذكر منها : (ان دولة اسرائيل يجب ان تكون قادرة على اسداء خدمات للدولة الامبريالية التي ترعى قيامها كنوع من المكافأة مقابل الخدمات المبذولة لتمكين اليهود من اقامة دولتهم ، وقد قويت فكرة وحماية اسرائيل المنشودة لقناة السويس والطريق البحري إلى الهند مع توثيق التحالف بين بريطانيا والحركة الصهيونية^(٢) .

ولكي تتضح الابعاد الحاضرة والمستقبلية للاخطار الناجمة عن ذلك علينا ان نضع امام شعوب المنطقة كلها (حدود القاعدة الاسرائيلية) كما تخطط لها اسرائيل فالصهيونية والاستعمار من ورائها ترى انها ما تزال في طريق الغاية ، وليست عندها فلكي تبلغ احلامها وتؤدي رسالتها في خدمة مصالح الدول الاستعمارية الكبرى وتلعب دوراً اهم مما تقوم به فعلا لا بد من ان تنمي حجمها وتمتد ارضاً وإنساناً على

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٦ - ٥٨ .

٤١٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان

حساب امتنا وعلى حساب استقلال شعوب المنطقة ، وهراء كل ما طرحه . واسيادها من حلول للسلم وهراء كل ما يوضع من جداول للمباحثات لان اسرائيل نفسها لا تريد ولا تفكر بالسلم فعلا إذا وجد من يفكر به في الطرف الاخر الا في حدود مرحلية تستعد فيها لبداية جديدة في رسم خارطتها المنشودة .

قال ميناخيم بيغن (لن يكون سلام لشعب إسرائيل ولا لارض اسرائيل حتى ولا للعرب ما دمنا لم نحرر وطننا بأجمعه بعد حتى ولو وقعنا معاهدة صلح) .

اما اين وطنهم وما حدوده فانهم منذ هيرتزل ودافيد تريتش حتى الان يتفقون على انه يجب ان يتجاوز بمبرر أو اخر حدود فلسطين المعروفة قال هيرتزل معلقاً في نيسان سنة على عرض الوزير البريطاني تشمبرلين ارض اوغندة (ان قاعدتنا يجب ان تكون فلسطين أو بالقرب منها وبعد ذلك سيكون بإمكاننا ان نقيم جاليات في اوغندة وذلك لان جماهيرنا مستعدة للهجرة ولكن يتوجب علينا ان نبحث على اسس قومية والجانب السياسي هو الذي يشدنا إلى مشروع العريش وقال : ان سيناء والعريش ارض اليهود والعائدين إلى وطنهم) .

وقال عند مقابلته لمستشار الامبراطور الالماني هو هنلوهي : (وسألني ايضاً عن الأرض التي نريد ، وما إذا كانت تمتد شمالاً حتى بيروت أو ابعد من ذلك وكان جوابي سنطلب ما تحتاجه تزداد المساحة المطلوبة بازدياد عدد المهاجرين) .

وقال دافيد تريتش (ان قبرص جزء من فلسطين الكبرى) وزعم

ارون ماركوس لهيرتزل انه يجد في التلمود (ان قبرص جزء من فلسطين) وقال ماكس نورد في المؤتمر الصهيوني الخامس يدعي خصومنا ان فلسطين غير قادرة على استيعاب اليهود بل انها قادرة على استيعاب اثني عشر مليوناً من البشر على ان يكون من الواضح ان فلسطين تشمل الاراضي المجاورة)

وقال وايزمان الرئيس السابق للدولة الصهيونية (اني اعلم بان الله قد وعد ابناء إسرائيل بفلسطين ولكني لا اعرف الحدود التي رسمها اني اعتقد بانها اوسع من الحدود المقترحة الان وربما ضمنت شرق الاردن) وادخل بن غوريون وبن زفي في حدودها سيناء والعريش وسهل حوران وجبل الشيخ ومنطقة دمشق وادخل بعضهم دمشق ذاتها ، والرقعة الواقعة بين دمشق والحدود اللبنانية ومجرى نهر الليطاني ومنابع مياه الأردن وجزءاً من شمال الحجاز حتى المدينة المنورة والنص المأثور الذي رده هيرتزل من نهر مصر إلى الفرات مازال يتردد ايضاً كحلم ترسم الخطط لتنفيذه قال الحاخام يهودا ميمون وزير الأديان وهو يلقي كلمة الحكومة بالنيابة في (الكيرين كميث) قال : (ما تزال امام الكيرين كميث اعمال عظيمة ان من اهمها دولة اسرائيل كما وان حدود تلك الدولة من الفرات إلى النيل) اما أسلوب إسرائيل وأسيادها في تحقيق أهدافها التوسعية فهو لم يتبدل في الفترة الراهنة عنه منذ تنفيذ مؤامرة زرع الوجود الاسرائيلي في الجسم العربي . الضربة الخاطفة ثم التسوية والمناورة وكسب الوقت من خلال طرح خطط تسوية ثم اصطناع مشاكل ريثما تنهيا الفرصة لضربة اخرى تنتج معطيات جديدة تطرحها الصهيونية واسيادها للمساومة بينما يكرس الوضع السابق كأمر واقع

٤١٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان
اعتماداً على ما الفوه من مستوى الضعف والتردد الذي بررناه باسم
المرونة مما جعل ابا ابيان يقول دونما اباليه سنة في تصريح لمجلة
فورين افيرز الامريكية (ليس من السخف ان نتصور قادة العرب
يطالبون في المستقبل بالحاح بالعودة إلى حدود عام أو عام
تماماً كما يطالبون الان بالرجوع إلى حدود تلك الحدود
التي رفضوها في الماضي) ومن المحزن انهم استطاعوا تحقيق هذه النبوة
المخطط لها^(١) ولم تكن مطامح اسرائيل في التوسع وفيما تضعه وتنفذه
من خطط مرحلية لبلوغ اهدافها منفصلاً عن اهداف الاستعمار
وغاياته وبالتالي مشاركته واسناده فاذا ذكرت اسرائيل حقها في حدود
آمنة يمكن الدفاع عنها رددته وكرسته الدول الامبريالية كضرورة لا مجال
للاعتراض عليها وإذا رفضت اسرائيل الانسحاب من امتداداتها
الجديدة في كل مرحلة بمبرر أو اخر وقفت الامبريالية تعيد هذه المبررات
وتضيف اليها ، وإذا فسرت اسرائيل قرار الامم المتحدة تفسيراً يلائم
مزاجها ايدها بريطانيا وامريكا وإذا تدخلت اسرائيل في شؤون الدول
الاخرى فيما يتصل بشؤون مواطنيها لمجرد انهم يعتنقون اليهودية
ساندتها الامبريالية وجعلت من ذلك حقاً مشروعاً ولا ادل ولا اوضح
من اضلاع الامبريالية في جريمة مطامع الصهيونية في التوسع من ربط
امريكا لعلاقتها التجارية بالاتحاد السوفيتي بشرط السماح لليهود
بالمهجرة إلى اسرائيل . ثم كان اصدقاء امريكا من العرب والمسلمين لا

(١) الكيالي ، المصدر السابق ص ٥٦ - ٥٨ .

يرون ولا يسمعون (هذه حقيقة الصراع في المشكلة الفلسطينية ومداهها وهذه هي الاطراف الاخرى فيها انها تضعنا امام ابعاد مرعبة في الحاضر والمستقبل وتفتح اعيننا على خطورتها التي تتجاوز الجريمة المنظورة للارض المحتلة فعلاً رغم اهميتها و مأساويتها ودلالاتها فهي تمتد من هذا الوجه لتشمل كل شعوب افريقيا واسيا مسلمة وغير مسلمة بل و تشمل من وجه كل الشعوب التي هدد الاستعمار امنها وحريتها ، وبعد هذه الرؤية نقف امام جسامة مسؤوليتنا نحن العرب والمسلمين وتنشخص لنا اساليب المواجهة لا في حدود الصدام المسلح فالجندي العربي المسلم في حجم مهمته وفي حجم الامل من هذه الناحية بل في مدى الساحة الكبيرة للمواجهة ومن جبهاتها العريضة المختلفة على امتداد الأرض العربية و الإسلامية بل على امتداد العالم كله ذلك يتطلب منا ولا شك تحديد اساليب المواجهة بالقدر الذي يستطيع (علماء المسلمين) من موقع التوجيه الإسهام فيه سلباً وإيجابياً .

الثالث تحديد اساليب المواجهة

ان هناك وهذا ما هو معلوم جوانب من المعركة تسبق أو توازي الجانب العسكري اهمية ونتائج بل ان الاصطدام المسلح لا يمكن ان يحقق اهدافه ضمن اوضاعنا و ظروفنا الحاضرة الا إذا سبقته وواكبته الجوانب الاخرى داخل الأمة العربية والاسلامية وخارجها على الاصعدة الفكرية والنفسية وفي المجالات السياسية والاقتصادية وذلك جميعاً مما يمكن ان يسهم فيه علماء المسلمين اسهاماً فعالاً في النواحي الثلاث التي اشرنا اليها بداية البحث وهي :

أ- تحريض الأمة على المقاومة وانهاء النفوذ الاستعماري في البلاد العربية والاسلامية.

ب - مقاومة الدعاية المضادة داخل الأمة التي تستهدف فرط وحدتها وازعاج ارادة القتال لديها .

ج- توثيق الترابط الترابط بالقوى التي يجمعنا وابطاها موقف العداء للاستعمار والصهيونية . وسنقف وقفة قصيرة عند كل ناحية منها :

أ- تحريض الأمة على مقاومة مراكز النفوذ الاستعمار

ان الجهاد ضد الوجود والسيطرة الأجنبية عسكرية كانت أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية بشكل مباشر أو غير مباشر امر يرى فقهاؤنا وجوبه وعدم جواز التسامح به ، بل انهم يعطلون استثناء المريض وذو العامة الوارد في الجهاز الابتدائي عند الجهاد الدفاعي ، كما رأيت في النصوص الفقهية سابقاً وإذا كان كذلك فان اضطلاع العلماء بوضع المسلمين امام مسؤولياتهم الشرعية من هذه الناحية وتحريضهم على مقاومة وانهاء مراكز النفوذ والسيطرة الاستعمارية مسألة تدخل في صميم مهمتهم اساساً ، هذا يضاف إلى كونها جانباً من اهم جوانب معركتنا مع الصهيونية والاستعمار .

ان حقيقة الصراع في المشكلة الفلسطينية كما نفهمه كان مع الاستعمار العالمي الذي يطمع بثرواتنا ابتداء ، واسرائيل ليست الا وجهاً من وجوهه وقاعدة من قواعده ولذلك فان دخول المعركة ضد الصهيونية لا ينحصر ضمن ما نوجهه لكيان اسرائيل الدولة بصورة

مباشرة فحسب وانما يتم ايضاً من خلال كل خسار يمكن ان ننزله بقوى الاستعمار ومصالحه ومراكز نفوذه باعتباره الحليف الطبيعي للصهيونية والممون الأول لنشاطها وعدوانها ولان كل نفوذ للاستعمار يعني نفوذاً للصهيونية تبعاً. ولذلك كانت مواقف الدول الإسلامية وغير الإسلامية من مشكلة تحرير فلسطين تتناسب عكسياً مع مستوى ارتباطها بالاستعمار ولا ادل على العلاقة المباشرة بين ضرب وتهديد المصالح الامبريالية وبين معركة العرب لتحرير فلسطين من المدى الذي احده استخدام البترول بشكله الجزئي الموقوت الذي هو اضعف الايمان . فما هو الشأن اذن ، لو تبع ذلك اللون من الاستخدام تحد غضب بمستوى التأميم الذي راده العراق وماذا لو رافق ذلك موقف اسناد من الدول الإسلامية بمستوى ماكما تفرض علاقات الاخوة التاريخية والمصالح المشتركة فضلاً يفرضه اسلامنا العظيم من ابعاد سبق ان وقفنا عليها من كلام الفقهاء رحمهم الله وماذا لو تبع ذلك في مجال الرد على العدوان تهديد بالانهاء لساحة مصالحه العريضة الاخرى في العالم الاسلامي . ان ذلك لا ريب لا يمكن ان يؤخذ في مجال الحساب والتصوير وللأسف في اطار العلاقات بين طبيعية الاوضاع الراهنة في كثير من اقطار عالمنا الاسلامي والعربي وبين الدول الاستعمارية الكبر ... ولذلك فان توجهنا في هذا المجال انما يكون لشعبنا العربي والاسلامي ليدرك مسؤوليته على هدى وعيه للمشكلة ويعرف ان بإمكانه ان يدخل ميدان الجهاد في تحرير فلسطين على اي مكان يسهم فيه بتهديد أو اقتلاع الركائز التي تدعم اسرائيل وتمكنها من البقاء وممارسة دورها في العدوان ... عسكرية كانت هذه الركائز أو سياسية أو اقتصادية أو اعلامية.

ب - مقاومة الدعاية المضادة - في الداخل - التي تستهدف

فرط وحدة الأمة واضعاف ارادة القتال لديها

رغم ان للاعلام الخارجي اهميته الكبيرة ، وان كشف نشأة اسرائيل على اساس الاغتصاب واللاشرعية والحديث عما رافق هذه النشأة من اساليب وحشية ووسائل بشعة وعرض مآسي الشعب العربي الفلسطيني المسلم ، وإعتداءات إسرائيل على المسجد الاقصى وقبة الصخرة قصفاً واحراقاً وغيرهما من مساجد المسلمين ومقدساتهم وآثار حضارتهم ، ثم التشهير بواقعها العنصري وفضح نواياها التوسعية ودورها الاستعماري رغم ان ذلك سيكون له اثره لا ريب على موقف الشعوب لصالح قضيتنا العادلة فان ذلك ولا شك ليش مما يدخل في امكان العلماء ان قدرة علماء المسلمين على التحرك بشكل مؤثر وفعال في هذا المجال انما يكون داخل المسلمين بحكم ارتباطهم بجماهير الناس ، وثقة الناس بهم وتيسر سبل الايصال من هذه الناحية . والتحرك في الداخل بالنسبة لاثره المباشر على المعركة أكثر ضرورة من العمل في الخارج .

ولعل اهم ما يواجه العلماء المسلمين في هذا الميدان تميتين وحدة الصف في الداخل تلك التي تحاول اسرائيل والامبريالية فرطها وزعزعتها ثم رفع معنويات الأمة وتصليبها ، وتوجيه اهتمامها للمعركة بمداهها الشامل والمحدد وابعاد جميع العوامل التي تضعفها ، وتشكل مسرباً لممارسة التخريب رغم بروز امكانية امتنا العربية المسلمة من خلال المقاومة العربية الفلسطينية ومن خلال حرب رمضان ، ومظاهر قوتها

الآخري التي لمسنا بداية معطياتها على العيد السياسي فعلا ان هناك اصواتاً وممارسات تكاد تطرح فكرة ان اسرائيل اصبحت امراً واقعاً وذلك ما جهدت الصهيونية والاستعمار خلال أجهزتهما الدعائية وتعاونهما لكسب جولات الحرب والاحتلال الجديد كل مدة ان توصلاه الينا ، وتقنعانا به .

ان الذين يدعون للاستسلام ويعملون للتأييس ويجدون في التعامل السياسي السياسي الراهن الذي يقوم على اساس امكانية التسوية مع اسرائيل رغم ما يقدم به النشاط في هذا المضمار من مبررات مجالا ومناخاً مناسباً اما ان يكونوا ضحية حقيقة لحالة من الانهزام الداخلي والقنوط نتيجة قصور في الرؤية ، وعجز عن فهم استراتيجية العمل السياحي والعسكري للثورة في مجال تحرير فلسطين ، والمدى اللازم لانتظار معطيات الظروف في مجال مواجهة قضية كقضية وجود اسرائيل .

واما ان يكونوا عملاء مأجورين يتحركون بقصد ويعملون وفق تخطيط كجزء من وسائل الصهيونية في حربها النفسية ضدنا ، ومنذ قرون التفت فقهاء المسلمين إلى خطورة هؤلاء في بث الهزيمة الداخلية ، واضعاف الاستعداد النفسي ، وصنفوهم إلى قسمين مخذل ومرجف .

ثم حكموا بوجوب ابعادهم عن ساحة المعركة ، وعزلهم عن الاحتكاك بالمقاتلين قال العلامة الحلبي في تذكرة الفقهاء (لا يجوز للامام ولا للامير من قبله ان يخرج معه من يخذل الناس ، ويشبطهم عن القتال ويهددهم عن الخروج كمن يقول ، الحر شديد أو البرد والشقة

٤٢٣ في الدين والعلم والحياة والإنسان

عظيمة والمسافة بعيدة والكفار كثيرون والمسلمون اقل ، ولا يؤمن هزيمتهم ولا المرجف وهو الذي يقول هلكت سرية المسلمين ولا طاقة لكم بهم ولهم قوة وشوكة ، ومدد وصبر ولا يثبت لهم مقاتل الخ^(١) .

قال ابن قدامة ولا يستصحب الامير معه مخذلا وهو الذي يثبط الناس عن الغزو ويهددهم في الخروج اليه والقتال والجهاد مثل ان يقول : الحر أو البرد شديد والمشقة شديدة ولا تؤمن هزيمة هذا الجيش واشباه هذا ولا مرجفاً وهو الذي يقول : قد هلكت سرية المسلمين وما لهم مدد ولا طاقة لهم بالكفار والكفار لهم قوة ومدد وصبر ولا يثبت لهم احد ونحو هذا ولا من يعين على المسلمين بالتجسس للكفار واطلاعهم على حوارات المسلمين و مكاتبتهم باخبارهم ودلالاتهم على عوراتهم أو ايواء جواسيسهم ولا من يوقع العداوة بين العالمين ويسعى بالفساد^(٢) .

وإذا كانت ساحة المعركة محددة في السابق فساحتها غير محدودة اليوم ، كخطورته في ميدان القتال امس .

ان بث روح التضحية ، وتقوية ارادة الجهاد ، وتثبيت الثقة بالنصر ورفض التراجع تحت اي ظرف شرط لازم لانجاح معركة امتنا العربية والاسلامية ، وحرير القدس الشريف ، وفلسطين عامة ، وهو من القوة التي امرنا الله باعدادها في قوله سبحانه (واعدوا لهم ما استطعتم من

(١) م ١ ص ٤١٠ .

(٢) ابن قدامة ، المغنى ١٨٣-١٨٤/٩ .

قوة^(١) ان اي فزد أو جهة على امتداد عالمنا العربي والإسلامي تعمل على اضعاف الأمة في هذا الجانب ، تكون بلا ريب قد ساندت العدو وبصورة مباشرة ارادت أو لم ترد ... اسمحوالي ان اذكر مثلاً من تجربة عدونا . لقد خرج تيودور هيرتزل في آب سنة من المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في (بال) قائلاً في بال أوجدت الدولة اليهودية ، ولو جهرت بذلك اليوم لقابلي العالم بالسخرية في غضون خمس سنوات ربما ، وفي غضون خمسين سنة بالتأكيد ، سيراهما الجميع ان الدولة قد تجسدت في إرادة الشعب في إقامتها هل سمعتم هذه النبوءة^(٢) ، وهل انتبهتم إلى الأساس الذي بناها عليه .

ان الدولة قد تجسدت في ارادة الشعب في أقامتها .

ولكم ان تقولوا أن فلسطين قد تحررت وان إسرائيل قد انتهت بمشيئة الله منذ انطلاق الرصاصة الأولى التي عبرت عن حياة وإرادة شعبنا العربي المسلم سنة ولنستعد عبارة هرتزل (بعد خمس سنين وربما وفي غضون خمسين سنة بالتأكيد سيراهما الجميع) .

وها انتم ترون ان الشعب الذي مسحته إسرائيل والامبريالية من التاريخ ، وسيرت مشكلة أرضه ووجوده وتاريخه مشكلة لاجئين عاد ليحتل مرة اخرى وبجدارة مكانة في الأمم المتحدة وفي قلوب الأحرار تلك هي البداية اننا نجد في كتاب الله العزيز وفي سيرة نبيه الكريم صلوات الله عليه
والرسالة

(١) الأنفال اية ٦٠ .

(٢) مذكرات هيرتزل ٢/٥٨١ .

٤٢٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
وفي عبر تاريخنا ومعطيات حاضرنا ما نحبط به آثار التخذيل والإرجاف

(ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)^(١).

ج- (توثيق صلتنا بالقوى التي يجمعنا واياها العداة للاستعمار)

هذه قضية رغم اتصالها من جهة بالموضوع السابق فقد رأيت طرحها تحت هذا العنوان مستقبلة فهي فيما يبدو لي مشكلة ذات اثر واسع في انكماش بعض الاوساط البسيطة من المتدينين ازاء القوى الفاعلة في المعركة ، وما أدري إذا كانت هي التي تتخذ ذريعة وستاراً في موقف بعض الانظمة من التحرك كما تقتضي شروط المعركة ومن التعامل مع الاطراف التي يمكن ان يستفاد منها في دعمها ، والحقيقة انها لا تعيننا الا بمقدار صلتها بقضية المعركة ، والتحرير فهي تطرح و تستغل في فصل الجماهير البسيطة في العالم الاسلامي وفي العالم العربي منه ايضاً عن حركة المقاومة وعن مجرى الثورات التي تقود الجهاد الحقيقي لتحرير فلسطين تلك هي الصلة والتعاون مع قوى تغايرنا عقائد واهدافاً ومنطلقات ثم ينطلقون من ذلك إلى التشكيك بالمقاومة وبالثورات ، واهدافها القريبة والبعيدة .

ان ذلك لا شك لا يطرح من زاوية الحرص على بنية الأمة ،
وحضارتها واستقلالها والا فما بال هؤلاء يصمتون ازاء الارتباط

(١) محمد ، آية ٧ .

بالاستعمار الغربي الذي كان وما يزال سر ما عانتها امتنا من انقراض
واغتراب وما ذاقته من نكبات ومآس .

ثم هل ان المجالات العلمية والتكنولوجية التي نحتاجها في المواجهة
يمكن ان تكون منتسبة بطبيعتها مهما كان مصدرها وهل يمكن ان تكون
الطائرة والمدفع مبشرين يحملان اتجاهاً فكرياً معيناً .

ان بنية امتنا ليست هشة ، ورؤيتها ليست مشوشة ، وموقفها فوق
مستوى القلق وعلاقتها بدينها وحضارتها علاقة وجود وهوية وان
حركات التحرر في امتنا لا يمكن ان تكافح تسلطاً سياسياً واقتصادياً
لتفسح الطريق امام تسلط آخر .

ذلك شأن وموقع الاطراف التي توجه هذه التهمة في محاولة اسقاط
كبير ، وتضعها في حالة من الحرج فيما تتصور بين جماهير الأمة المسلمة
البسيطة من ناحية وبين ما تفرضه عليها شروط الجهاد واستراتيجية
الثورة من تعاون مع القوى التي تكافح هي الاخرى في سبيل التحرر
من الاستعمار في العالم من ناحية ثانية .

إننا لا يمكن بالطبع ان نتعاون مع أمريكا أو بريطانيا مثلاً . ونطلب
اليهما تزويدنا بالسلاح والخبرة لانهاء وجودهما في المنطقة أو انهاء
وجود ربييتهما اسرائيل ، ولا نتوقع منهما مطلقاً ان يقفنا معنا حتى
نهاية الطريق بل ولا حتى إلى منتصفه في هذا المجال ... تلك هي المسألة

ألا ترون طرقها وارداً اذن ؟ نعم ليست على درجة من الخطورة
بحيث تعطل المجرى الجهادي للأمة ولكنها تدخل ضمن الدعاية المعادية

٤٢٧ في الدين والعلم والحياة والإنسان

التي يجب ان نقاومها ، وتشكل ستاراً لبعض الوجوه والمواقف واستغلالاً وتشويهاً لموقف الإسلام لا يسعنا إقراره والسكوت عليه .

فهل هناك رأي لفقهاءنا وعلمائنا المسلمين في المسألة .

نعم هناك نصوص فقهية تعالج هذه المسألة ، هي فيما ارى وجه من الوجوه المشرقة الحية التي تثبت ان تراثنا الفقهي ، ان الإسلام كثورة استوعب كل الحسابات التي تدخل في عملية انجاح تحركه وتحرك أتباعه لصالح أهدافه في الحق والخير ، قال العلامة الحلبي في تذكرة الفقهاء تجوز الاستعانة بأهل الذمة ، وبالمشرك المأمون الغائلة إذا كان في المسلمين قلة فان رسول الله استعان بصفوان بن امية على حرب هوازن قبل إسلامه واستعان ببني قينقاع ورضخ لهم ولو لم يكن مأمونا أو كان بالمسلمين كثرة لم يستعن بهم . لقوله تعالى (وما كنت متخذ المضلين عضداً)^(١) وقوله ﷺ (انا لا نستعين بالمشركين على المشركين)^(٢) و اراد ﷺ مع فقد احد الشرطين ، وهذا كله مذهب الشافعي وله قول آخر هو جواز الاستعانة بشرط كثرة المسلمين بحيث لو خان المستعان بهم أو انضموا إلى الكفار تمكن المسلمون من مقاومتهم جميعاً وعن احمد بن حنبل روايتان^(١) .

وورد في المغنى جواز استئجار الكفار للاستعانة بهم في دفع

(١) الكهف ، اية ١٥١ .

(٢) ابن ماجه ، سنن ٢/٩٤٥ ، رقم الحديث ٢٣٣٢ دار إحياء الكتب العربية .

(١) جزء ١ ص ١٠ .

العدو^(١) وقال العلامة الحسني في جواز الاستعانة بالمشركين لا ريب في ثبوته مطلقاً واستدل مضافاً إلى ما ذكره العلامة بآية الصدقات المشتملة على ذكر المؤلفة قلوبهم والتي كان الدفاع بالكافر احد ما تنطبق عليه على الأظهر قال بل حكي الإجماع عليه (يعني على الجواز) مضافاً إلى الأصل فما قد يظهر من بعض الأدلة في المنع مطروح أو محمول على بعض الأحوال . قال ، ومن تلك ظهر فساد إنكار بعض الناس على سلطات المسلمين الاستعانة بالكفار من رعاياهم وغيرهم ، واطهر من ذلك فساداً مقايسة الكافر المحارب لنا بغيره خصوصاً المعاون لنا بل لا إشكال في كون هذا الكلام من المكائد الأجنبية^(٢) .

من هذين النصين نتبين أن ليس في الفقه الإسلامي ما يفسح المجال لاستغلال هذا الجانب في خط جهادنا لإنهاء الاستعمار في بلادنا وتحرير فلسطين وغيرها من ديارنا المغتصبة وإذا كان ذلك صحيحاً فلا بد من أن يأخذ علماء الدين ذلك ضمن ما يقومون به من عمل لتوعية المسلمين ، وإيقافهم على حقيقة المشكلة ، والملابسات التي تحيط جوانبها المختلفة .

(١) المغنى ، م ٩ ص ٢٤٢ .

(٢) الحسني ، وجوب النهضة لحفظ البيضة ص ٨٣ .

المراجع والمصادر

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- ابن قدامة ، المغني مطبعة الامام _ القاهرة .
- ٣- ابن ماجة _ سنن دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٢ .
- ٤- الجزائري احمد _ قلائد الدرر مطبعة الآداب _ النجف .
- ٥- حاشية ابن عابدين ط ٢ سنة ١٩٨٦ مصطفى بابي الحلبي _ مصر .
- ٦- الحسني ، محمد ، وجوب النهضة لحفظ البيضة ط ١ النجف .
- ٧- الحلبي ، العلامة تذكرة الفقهاء ط حجر طهران .
- ٨- الشربيني ، الخطيب ، مغني المحتاج ط ١٣٧٧ القاهرة .
- ٩- الشهيد الثاني ، المسالك ط حجر ط ١ طهران .
- ١٠- صحيح البخاري نقلا عن المعجم المفهرس لالفاظ .
- ١١- صحيح مسلم الحديث النبوي .
- ١٢- الطباطبائي علي ، الرياض ط حجر طهران .
- ١٣- كاشف الغطاء جعفر ، كشف الغطاء ط حجر .

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء ٤٣٠

١٤- الكيالي ، عبد الوهاب ، المطامع الصهيونية _ دراسات فلسطينية
عدد ٢ .

١٥- مرزوق ، اسعد نظرة في أحزاب إسرائيل _ دراسات فلسطينية .

١٦- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ليدن سنة ١٩٣٦ .

١٧- مذكرات هرتزل ج ٢ نقلا عن الكيالي رقم ١٤ .

١٨- الميداني ، اللباب في شرح الكتاب ط ٤ القاهرة سنة ١٣٨١ .

١٩- النجفي ، محمد حسن جواله الكلام ط حجر طهران .

٢٠- وسائل الشيعة إلى مسائل الشريعة للحر العاملي ط ٤ دار احياء

التراث العربي _ بيروت سنة ١٣٩١ .

المحتويات

البحث الأول أصل الإنسان

أصل الإنسان بين نظرية التطور ونظرية الخلق المستقل في ضوء الفلسفة والعلم والدين	١٣
النظرية في الأصل	١٥
(الاستدلال على النظرية)	١٦
(أسباب وكيفية التنوع)	١٧
المواقف المتقابلة حول النظرية	٢٠
(نظرية التطور ليست تأسيساً للمادية)	٢١
ما بعد دارون	٢٧
توظيف النظرية لتأييد النزعة المادية	٢٧
القسم الثاني :	٢٨
الأدلة المزورة	٢٨
الإشكالات العلمية على النظرية	٣٣
الإشكال الأول:	٣٣
الإشكال الثاني:	٣٤

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء	٤٣٢
الإشكال الثالث:	٣٧
الإشكال الرابع:	٣٩
الإشكال الخامس: الشريط الوراثي لا يسمح بالتغيير النوعي	٤١
الإشكال السادس: الطفرات الوراثية	٤٣
الإشكال السابع:	٤٦
الإشكال الثامن:	٤٨
(موقف رجال الدين "من الكتائبين")	٤٩
رأي الإسلام في القرآن والسنة:	٦١
خلق حواء	٦٩
الحياة السماوية لآدم	٧٢
الذين لم يروا في النظرية نقيضاً للإيمان	٧٣
بطلان التفسير بالصدفة لإستحالتها	٧٩
من الذرة والذوذة	٨٣
من العالم الفلكي المادي الكبير	٨٩
الخلاصة	٩٤
Extract	٩٧
المصادر:	٩٩

البحث الثاني

التشريح وزرع الأعضاء في العملية الطبية

- التشريح وزرع الأعضاء في العملية الطبية^٥..... ١٠٥
- مصادرها وأحكامها في الفقه الإسلامي لدى الامامية..... ١٠٥
- غرس الأعضاء البشرية ١٠٩
- ١- المصدر الحيواني..... ١١١
- ٢- المصدر الإنساني الحي:..... ١١٢
- أخذ العوض المالي..... ١١٣
- ٣- مصدر الميتين دماغياً:..... ١١٤
- رفع الجهاز لدى مزاحمة الأهم وتعذر البديل..... ١١٩
- ٤- مصدر الميتين:..... ١١٩
- أدلة التحريم..... ١٢٠
- جواز التشريح..... ١٢٧
- التشريح في الطب العدلي..... ١٣١
- رؤية ولمس الأعضاء الجنسية..... ١٣٣
- لدى الدراسة وزرع الأعضاء..... ١٣٣

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء	٤٣٤
ثبوت الدية مع جواز التشريح	١٣٤
سقوط الدية بالوصية حال حياته	١٣٦
مصرف الدية البر والخيرات	١٣٧

البحث الثالث

الاستنساخ الحيواني والبشري والهندسة الوراثية

الاستنساخ الحيواني والبشري والهندسة الوراثية	١٤٣
من الناحيتين الفلسفية والفقهية	١٤٣
الفصل الأول: حول عالم الخلية	١٤٣
فلينظر الإنسان مم خلق	١٤٣
البصمات البشرية	١٤٨
النتائج النظرية والتطبيقية لاكتشاف عالم الخلية	١٥٢
النتائج النظرية	١٥٢
نفي الصدفة	١٥٤
النتائج التطبيقية	١٥٦
الفصل الثاني	١٥٧
تمهيد	١٥٧

٤٣٥ في الدين والعلم والحياة والإنسان
١٥٧ الاستنساخ لغة واصطلاحاً
١٥٨ الاستنساخ طريقة طبيعية
١٦٠ البدايات التاريخية لتقنيات الاستنساخ
١٦١ فوائد هذه التقنيات ومضارها
١٦٢ أولاً: الجانب الفلسفي والعقائدي
١٦٨ ثانياً: الجانب الفقهي التكليفي، والوضعي
١٦٩ أدلة القائلين بالرأي الأول
١٧٨ الحكم الوضعي
١٨٢ الحقوق، والواجبات

البحث الرابع/ الأحلام

١٨٥ أهميتها
١٨٥ اصلها
١٨٥ رمزيتها
١٨٥ نسبة الصدق فيها
١٨٧ الأحلام أهميتها، اصلها، رمزيتها نسبة الصدق فيها ^(١)
١٨٧ الحلم في اللغة

٤٣٦ العلامة الحجة السيد عدنان البكاء
١٨٩ اهميتها:
١٩٠ آراء العلماء في ذلك
٢٠٠ اقسام الاحلام:
٢٠٣ ان الاحلام قسمان:
٢١١ مناقشيء الحلم والرؤيا
٢١١ من حيث الأصل والصورة
٢١١ أولاً - الاحلام
٢١٣ آراء العلماء الغربيين :
٢٢٧ ثانياً - الرؤيا :
٢٤٢ رمزيتها:
٢٤٣ رأي الفلاسفة :
٢٤٨ نسبة الصدق في الرؤيا
٢٥٣ هل سنة المعصوم في الرؤيا حجة؟
٢٦٠ رأي الشيخ المفيد
٢٦١ رأي العلامة الحلي
٢٦١ ورأي المجلسي
٢٦٣ المصادر والمراجع

البحث الخامس / الأرواح الماسة

- الأرواح الماسة أو المستحوذة..... ٢٦٧
- ودورها في الاضطرابات النفسية والعقلية، في الدين و الفلسفة والعلم ٢٦٧
- الجن في الدين ٢٧١
- الجن في القرآن الكريم..... ٢٧٢
- تاريخ ومادة خلقه..... ٢٧٢
- لا سلطان له إلا بالدعوة التخاطبية..... ٢٧٥
- لبعض الأنس علاقات بالجن..... ٢٧٨
- الجن والشياطين لدى الفلاسفة..... ٢٨٠
- التواصل بينهم وبين الناس..... ٢٨٤
- علاقتهم في تعليم السحر..... ٢٨٥
- الأثر الوضعي للأسماء الإلهية..... ٢٨٧
- أخيار وأشرار..... ٢٨٨
- القسم الثاني من الفلاسفة..... ٢٨٩
- صلتهم بعالم الناس في الدنيا..... ٢٨٩
- المس والاستحواذ..... ٢٩٣

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء	٤٣٨
الثانية: المرتبة السفلى أو المنحطة	٣٠٠
أساتذة أكاديميون وأطباء كبار يؤكدون وجود المس والاستحواذ.....	٣٠١
الأرواح عليا ودنيا	٣٠٨
الأسباب المؤدية إلى المس والاستحواذ	٣٠٩
الملحق	٣٢٥
النموذج الأول:	٣٢٥
النموذج الثاني:	٣٣٥
المجانين من بعض أهل السلوك:	٣٣٥
المصادر والمراجع	٣٤٥

البحث السادس / الإمام علي عليه السلام، الشاهد التالي للرسالة

الإمام علي عليه السلام، الشاهد التالي للرسالة	٣٥١
---	-----

البحث السابع / جوانب من عمل الإمام الصادق عليه السلام

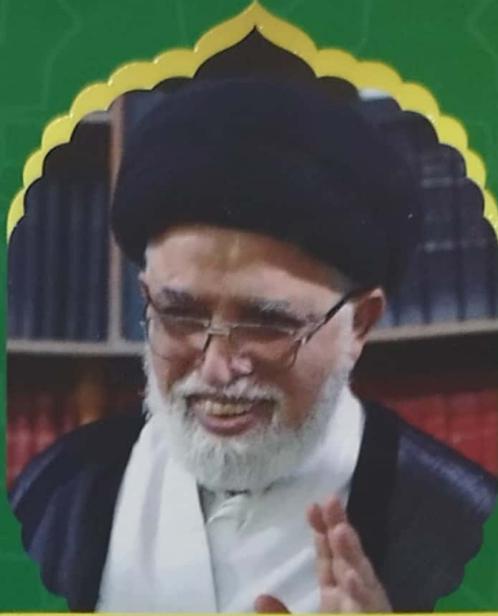
جوانب من عمل الإمام الصادق عليه السلام	٣٧٣
واقع الأمة ، وظروف الأمام عليه السلام	٣٧٤
الإمام والحكم	٣٧٥
عمل الإمام عليه السلام ومجالاته	٣٧٩

٤٣٩ في الدين والعلم والحياة والإنسان
٣٧٩ العمل السري
٣٨١ الجانب الأول
٣٨٢ الجانب الثاني من عمله الايجابي السري
٣٨٤ العمل العلني
٣٨٥ ١- نشر مفاهيم العقيدة ، وأحكام الشريعة
٣٨٦ الإمام عليّ عليه السلام يفتح باب التخصص
٣٨٧ الإمام عليّ عليه السلام يأمر أصحابه بالتدوين والتأليف
٣٨٨ الإمام عليّ عليه السلام يضع القواعد
٣٩١ ٢- مقابلة الإمام عليّ عليه السلام للتيارات الغربية الفاسدة
٣٩٤ الإمام عليّ عليه السلام والزنادقة
٣٩٧ الإمام عليّ عليه السلام والوضاعون
٣٩٩ الإمام عليّ عليه السلام وأصحاب المذاهب و الرأي
٤٠٣ الإمام عليّ عليه السلام والمتصوفة
٤٠٥ مراجع البحث

البحث الثامن / حرب العربية الفلسطينية الشعبية وما يمكن ان يقوم به

علماء الإسلام من دور خلال النصوص الفقهية

العلامة الحجة السيد عدنان البكاء	٤٤٠
حرب التحرير العربية الفلسطينية الشعبية وما يمكن ان يقوم به علماء	
الإسلام من دور من خلال النصوص الفقهية.....	٤٠٩
وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم بالنسبة للمشكلة الفلسطينية.....	٤١١
حقيقة الصراع في مشكلة الحرب العربية الاسرائيلية	٤١٦
تحديد اساليب المواجهة	٤٢٢
أ- تحريض الأمة على مقاومة مراكز النفوذ الاستعماري	٤٢٣
ب - مقاومة الدعاية المضادة - في الداخل - التي تستهدف فرط وحدة	
الأمة وازعاف ارادة القتال لديها.....	٤٢٥
ج- (توثيق صلتنا بالقوى التي يجمعنا واياها العداء للاستعمار)	٤٢٩
المراجع والمصادر.....	٤٣٣
المحتويات	٤٣٥



عن الكتاب

ولابد لي ان اشير هنا ان بعض الموضوعات التي حاضرت فيها في المؤتمرات ، قد عدت الى بحثها بصورة موسعة ومتكاملة من كل جهة ثم تقدمت بها لغرض الترقية العلمية الى مدرس والى أستاذ مساعد ، ومنها (الاستنساخ والهندسة الوراثية) ، و (التشريح واحكامه) ، و(الانسان بين التطور والخلق المستقل) الذي نشر في المجلة العلمية لنقابة الأطباء (مجلة الراقي) العدد الثاني ٢٠٠٥م _ ١٤٣٦هـ .



مؤسسة الشيخ زين الدين
المعارف الإسلامية

